مراصد الصلاة

في

مقاصد الصلاة

للمحدث الحافظ قطب الدين القسطلاني

(ت ٦٨٦ هـ)

علق عليه وخرج أحاديثه

محمد صديق المنشاوي

السوهاجي

راجعه وقدم له

د/ محمود عبد الرحمن عبد المنعم

المدرس بجامعة الأزهر

دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية:
دار الاعتصام
للطباعة والنشر والتوزيع
الدحماني عبد الكريم
35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس) - الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الدكتور / محمود عبد الرحمن عبد المنعم

الحَمْدُ للّه رَبِّ العَالَمِينَ ، والصَّلاةُ وَالسَّلَامُ عَلىَ سَيِّدنا مُحَمَّد ، سَيِّد الأَوَّلِينَ وَالآخرينَ ، وَعَلَى آلهِ وَأصحابِه وَمَنْ اهْتَدَى بِهَديهِم إِلَى يَوْم الدِّين .

أمَّا بعــد :

فإنَّ اللّه سبحانه وتعالى لم يَخْلُق خَلقه عَبَثاً ، ولم يتركْهُم سُدًى ، إنَّمَا خَلَقَهُم لأمرٍ عَظِيم ، وشَرَف خَطِير نَبَّه عليه بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ، ٥٧] ، ونَزّه سبحانه نَفْسَهُ أن يكون خَلْقه لِبَنِي البَشَر بلا غَايَة ، وَلَا هَدَف ، ولَا تَكْلِيف ، ولَا حِسَاب ، فقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦] ؛ فالعبُوديَّة للّه وَحْدَهُ هي حَقّ اللّه على عِبَادِه ، والجَنَّة والنَّجَاة من النَّار هي حقّ العِبَاد الَّذِينَ أدَّوا حَقَّ خَالِقهم – الذى ألزم اللّه به نفسه دون أحد من خلقه – .

وإذا كانت أبواب العِبَادَات كثيرة ، والطَّاعَات متعدِّدة ، فإن الصَّلاة تأتى على رأس العِبَادات التى ينبغى أن يؤَدِّيها كل مكلَّف مسلم حتى يُحقِّق العبُوديَّة المُرَادَة من خلقه .

وتأتى أيضاً لتكون مَعْلَماً كبيراً من مَعَالِم تكوين الشخصيَّة المسلمة فهى :

خَيْرُ الأَعْمَال :

حيث جاء في الحديث : « اسْتَقِيمُوا وَلَن تحصُوا ، واعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالكُم الصَّلَاة ، وَلَا يُحَافِظ عَلَى الوُضُوء إِلَّا مُؤْمِن » [(١)].

فانظر كيف أمر بالاستقامة ، ثُمَّ بَيَّنَ مَشقَّة هذا الأَمر وأَنَّ الإنسان لن يَعْمَل كل ما أُمِرَ به ، فهو من المشقَّة بمكان ، ومع أنَّ أبواب الخير الكثيرة والاستقامة تشمل جميع الأوامر والنَّواهى فعلًا وتركاً فإنه نبّه على أهمّها وأولَاها ، وفى الحديث لفتة أُخرى ، وهى أَنَّ الإنسان إذا قَصُرَت طَاقَته على الإحصاء فى الامتثال حتى يحقق الاستقامة ، فإنَّ فى الصَّلَاة ومقدِّماتها جبراً لقُصُوره وإصلاحاً لخلله .

وعن مالك - رضى اللّه عنه - قال : كتب عمر - رضى اللّه عنه - : « إِنَّ أَهَمّ أُمُوركُم عِندِى الصَّلاة ، مَنْ حَفظَها وَحَافَظ عليها حَفِظَ دِينهُ ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُو لِمَا سِوَاهَا أَضْيع ... »[(٢)].

وفى الحديث : « الصَّلَاة خَيْر موضُوع فَأَقْلِل منهُ أَوْ أَكثر » [(٣)].

وَهِىَ عِمَاد الدِّين :

وإذن لن يكون لِبنَاء الدِّين وجُود بدون عماده وركنه الأعظم بعد الشَّهادتين ، جاء فى الحديث : « الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّين ، مَنْ أَقَامَهَا فَقَدْ أَقَامَ الدِّين ، وَمَن هَدَمَهَا فَقَدْ هَدَمَ الدِّين » [(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧ ، ٢٧٨) ، وأحمد (٥/٢٧٧ ، ٢٨٢) ، والدارمى (١/١٦٨) ، والحاكم (١/٣٠) ، والبيهقى فى السنن (١/٨٢ ، ٤٥٧) ومالك فى الموطأ (٣٤) .

(٢) انظر : المدونة الكبرى للإمام مالك .

(٣) انظر : مجمع الزوائد للهيثمى (٢/٢٤٩) .

(٤) انظر : كنز العمال رقم (١٣٧٢) .

وَهِيَ نُـورٌ :

وَمَا أَحْوَجَنَا فى دياجير ظُلُمات المـادة ، والأمطار الآسنة إلى نُور من اللّه سبحانه نمشى فيـه ، قال النبى ﷺ فى حـديث معاذ : « ... وَالصَّـلَاة نُور ... » رواه مسلم .

ومن عظم مكانتها سَمَّاهَا اللّه إيمـاناً ، وجعـل تركها مُنافياً له كما قال سبحانه : ﴿ ... وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُضِيعَ إِيـمَانَكُمْ ... ﴾ [البقرة / ١٤٣] أى صلاتكم ، لَـمَّا سألوا عن الصَّلاة التى صلوها قبل بيت المقـدس .

وفى الحديث : « بَيْـنَ الرَّجُل والشِّرْك تَرْك الصَّلَاة » متفق عليه .

وقال النبى ﷺ : « العَهْدُ الَّذِى بَيْنَنَـا وَبَيْـنَهُم الصَّلَاة ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَـدْ كَفَرَ » رواه الخمسة .

والصَّلَاة فَرِيضَة مُحكمة دائِمَة : لَا تَسْقُط فى حَضَر ولَا سَفَر ، ولَا سِلْم ، ولَا حَـرْب ، ولَا بَحْـر ، ولَا بَرّ أو جَـوّ ، ولَا فى صِحَّة ، ولَا مَرَض ، ومع أنَّهـا حُـدِّدَتْ بِخَمْس صَلَوَاتٍ فى اليـوم والليلة ، وكل صَلَاة حـدّدَت بعَدَد مُعَيَّن من الرَّكعات ، وكيفيَّة مُعيَّنـة من جَهْريَّة أو سِريَّة ، ووقت مُعين من ليل أو نهـار ، فقد تُرِكت مِسَاحة واسِعَة ، وفتح باب كبير لمن أراد مَزِيد صـلة بربِّه يستطيع أن يقف بين يدى ربِّه مُتنفِّلًا فى أى وقت شَـاء من اللَّيـل أو النَّهـار عَـدَا ما استثنى من مكان أو زمان ، وهو محصُور محـدود ويومئ إلى عِظَم شأن الصَّلاة أيضاً إذ لا يليق أن يتمثل المسلم بين يَدِى رَبِّه فيها .

وقد شُـرِعَت صَـلَوَات مُتَعَـدِّدَة كثيرة : فللحاجة صـلَاة ، وللاستخارة صَلَاة ، وللكُسُوف والـخُسُوف صلَاة ، وللعِيدَين صلَاة ، وللجُمُعَـة صَـلَاة ، ولتَحِيَّـة المسجد صـلَاة ، وللجَنَازة صـلَاة ، وللخَوف صلَاة ، وللتلاوة ، والشُّكر ، والسَّهو سُجُود ، وهناك قِيَام

اللَّيل والتَّرَاويح ، وعِنـد تـمَكُّن الأعْدَاء من المسلم بالقَتْـل إذا تمكَّن صَـلاة .

وَتَأَمَّل كيفَ حَظيت الصَّلاة باهتمام بَالِغ من ناحِية الاستعداد والأداء ، فجعل لهـا استعداداً طيِّباً بالوضُـوء وغَسل آثار الذنوب وتطهير الجـوارح ، والتَّهجير ، والسَّعي ، ومراعـاة وقت الوُجُـوب ، والأذان ، وترداده ، وصَلَاة السُّنَّـة القبلية ، وشَرَعَ لها أداءً حسناً فيـه مُجَاهَدَة الشيطان ، وتوفر العبـد بكليته على الإقبال عليها دون التفَات بالعَين أو بالقَلْب كما جاء في حديث الحارث الأشعري وفيه : « ... وآمركُم بالصَّلاة ، فإنَّ اللَّـه ينصب وجهـهُ لوجـه عَبْـده ما لم يلتفت ، فَإِذَا صَلَّيْتُم فلَا تَلتَفِتُـوا ... » رواه أحمد .

وجَعَلَ لهـا تعقيباً حَمِيداً بعـدَ أدائهـا بالاستغفار ، والتَّسبيح ، والتَّحمِيد ، والتَّكبير ، والدُّعَاء .. وغير ذلك كما جاء في الأحاديث الصحيحة .

ونتيجتها خاتمـة خير وبَرَكة : فيها مَحْـو للذُّنوب والـخَطَايَا ، ورَفْع للدَّرجـات .

والصَّلاة لها جَسَدٌ ، ورُوحٌ ، وَمَظْهَرٌ ، ومخبرٌ ، وأثرٌ ، ونتيجة : فمظهرها وجسدها : الأركان والسُّنن والهيئات ، ومخبرها وروحها : الـخُشُوع والصِّلَة ، والقُرْب من اللَّـه ، وأثرها : البُعـد عن الفَحْشَاء والمنكر وكل ما يُغضِب اللَّـه ، والنظام ، وتقدير الوقت ، ومن نتائجها : السَّمت الـحَسَن بين النَّـاس ، والرَّاحة وإصلاح البَـال ، والسَّكينة ، والصَّـبر ، ولا قرار للذُّنوب والمعـاصي مع الصَّـلاة ، إذا رُوعيت شروطها ، وأديت أركانها ، وحُوفِظ على سُننها وآدابها ، واجتنبت مكروهاتها ومُفسداتها .

قال النبي ﷺ : « أَلَا أَدُلُّكَ عَـلَى مَا يَـمْحُو اللَّـهُ بِـهِ الـخَطَايَا

ويَرْفَع الدَّرجات ! قُلت : بَلَى يَا رَسُول اللّـه ، قالَ : إِسْبَاغ الوُضُوء عَلَى المَكَارِه ، وَكَثْرَة الـخُطَى إِلَى المَسَاجِد ، وانْتِظَار الصَّلَاة بعدَ الصَّلَاة ، فذلكُم الرِّبَاط ، فذلكُم الرِّبَاط ، فذلكُم الرِّبَاط » رواه مسلم .

وقال النبى ﷺ : « الصَّلَوَات الْخَمْس ، وَالجُمُعَة إِلَى الجُمُعَة ، وَرَمَضَان إِلَى رَمَضَان مُكَفِّرَات لِمَا بينهن إِذَا اجتنبت الكَبَائِر » رواه مسلم .

وجاء فى الحديث : « إِنَّ الرَّجُل لينصرف من صَلَاتِهِ وما كُتِبَ لهُ منها إِلَّا عشرها ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » رواه النسائى .

فَرُوعِيت أحوال المصلِّى فى ترتيب الحكم على صلاتِه قبولًا ورداً ، وثواباً بدرجاته على قَدْر حضُورِهِ ، وخُشُوعِه .

ولقد حظيت الصَّلاة باهتمام عُلَمَاء الإسلام ببيان أحكامها : (شُروطها - أوقاتها - أركانها - سُننها - وفضائلها - الأذان ، وما يتعلَّق به من أحكام ، كالسُّترة وأحكامها - المساجد وأحكامها ، كيفية صلاة الخوف ، الكسوف والخسوف) وغير ذلك ، ووضعت هذه الأحكام فى بُطُون الكُتُب والموسُوعات الفقهية ، بل وأفردت لها كتب خاصة بها ، وذلك بعد أن بذلُوا قَصَارى جهْدهم فى النظر حتى استنبطوا هذه الأحكام .

وقد وجَدنَا إشارات إلى بعض حِكَمِ الصَّلاة وأسرارها فى ثَنَايَا هذه الكتب بقلَّة ، ولم يجد هذا الجانب مثل ما وُجِدَ الجانب الأول من اهتمام ، وجاء الإمام قُطب الدِّين القَسطَلَّانى فوضع هذا السِّفر القَيِّم الذى أسْمَاه (مَرَاصِد الصَّلَاة) عُنِيَ فيه ببيان الحِكَم والأسرار والمقاصِد أكثر ممَّا عُنِيَ فيه ببيان الأحكام الشَّرعية ، وإِنْ كان لا يخلُو من بعضها .

فإن هناك سرًّا فى كل لفظة فى الصلاة ، أو حركة فيها سواء كانت واجباً أو دونه .

السُّجود : فالسَّجدَة تخفضُ وجْه الإنسان فى الأرض لكنها فى نفس الآن تَرْفَعهُ وتعليه ، وتوحد جهته ، فلَا سُجُود إلَّا للَّه ، فَتُحَرِّرهُ من السُّجود لآلهة كثيرة ، قال محمد إقبال :

تَلَوَّن من كُلِّ ثَوْبٍ مَنَاة ... وَشَابَ بَنُو الدَّهْر وَهِيَ فَتَاة
فَهَذَا السُّجُود الَّذِى تَجْتَوِيه ... بِه مِنْ أُلُوف السُّجُود نَجَاة

وقد ترجم معناهما الدكتور / عبد الوهاب عزَّام فقال : « إن الإنسان شاب ، ولكن اللَّات ومناة لا تزالان فى فناء تبدلان كل زمان ثوباً » .

هذه السَّجدة التى تثقل على نفسك هى التى نَجَّت الإنسان من آلاف السَّجدات [1].

وقال فى قصيدته (سجدة) :

سَجدة تخفض الجباه ولكن ... عَزّ فيها مسَبِّح وتَعَالَى
ظَنَّها الجَاهِلُونَ غُلًّا ولكن ... هِيَ فى الحَقّ تُحَطِّمُ الأَغْلَالَا
تُثَبِّتُ الوَجْه والجوارح فى الأر ... ض ولكن تُقَلْقِلُ الأَجْبَالَا
خرّ فِيهَا لِسَاجِد كُلُّ شَيْء ... ووعى الدَّهْر قَوْله والفعَالَا
هِيَ للَّهِ وحدته فَعَزَّت ... وَمَحَتْ كُلَّ غَاشِم يَتَعَالَى
فى سُكُونٍ وَلِلقُلُوب مسير ... يَمْلَأ الأَرْض همَّة وصِيَالَا
مَن وعاهَا وعى السِّيَادَة فى الأر ... ض جَمَالًا وَرَحْمَة وجَلَالا [2]

* * *

(١) النفحات للدكتور / عبد الوهاب عزام ، ص ٧٤ – ط مكتبة النور .
(٢) النفحات ، ص ١١٧ .

هـذا عن السُّجود وليس ما ذُكِر كل أسراره وحِكَمِهِ ولك أن تتأمَّل فى البـاقى وتحمد اللَّه على نِعْمَـة الإسلام ، وتنظر فى هـذا الكتاب الرَّائع (مراصِد الصَّـلاة) الذى أتحفنـا به مؤَلفه ، وأضفى عليه الأخ الشيخ / محمد صـديق المنشاوى رونقاً من تعليقه الطَّيب ، وحسبه ما بَذَلهُ من جهـد فى تخريج أحاديثه إذ لا يخلُو الكلام فى مثل هـذه المعـانى من أحـاديث ضـعيفة ، خرَّجها وبين درجتها عـدا ما فى التعليقـات من فوائد أُخرى حسان ، واللَّـه حسيبنا وحسيبه ، وأسأل اللَّـه أن يرزقنا العِـلْم ، وأن يجمله لنـا بالعَمَل والأدب ، وأن يتقبل منَّـا صَالِح الأعمال وأن يلحقنا بالصَّـالحين إِنَّـهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَـدِير .

د/ محمود عبد الرحمن عبد المنعم
المدرّس بجامعة الأزهر

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إنَّ الحمدَ للَّه ، نَحْمَدهُ ، ونَسْتَعِينُه ، ونَسْتَغْفِره ، ونَعُوذُ باللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، من يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَن يُضْلِل ، فَلَا هَادِى لهُ ، وأَشهدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ ورَسُولُه .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] (١) .

أمَّا بعد :

فلمَّا كانت الصَّلاة الرُّكنَ الثَّانى من أرْكان الإسلام ، وفريضَةَ ربِّ العالمين على العبادِ ، ووسيلةَ المُناجاة فى الخلواتِ ، وبها تُكفَّرُ

(١) وهذه تسمى عند العلماء بخُطبة الحاجة ، ويُسَنُّ أن يُبْدَأَ بِهَا قَبل كُلِّ كلام ، أخرجه أبو داود (٣٣١/٣) ، والترمذى (٤١٢/٣) ، والنسائى (٧٩/٢) ، وابن ماجه (٦٠٩/١ ، ٦١٠) .

السّيئاتُ ، وتُرفعُ الدَّرجاتُ ، والفَيْصلَ بين الكُفرِ والإيمانِ ، وأفضلَ قُرُباتِ الأبدان بعد المعرفة والإيمانِ ، ونُورَ المسلم فى الحياة وبعد المماتِ ، وأوّلَ ما يُسأَلُ عنهُ العَباد ، وميزانَ تَرْجيح الصَّلاح والفَسَاد ، والموجبةَ للدخول من الباب الذى خُصِّصَ لها من أبْوَاب الجنّة الثمانية ، ولَمَّا كانَ الإنسان أقْرَب ما يكون إلى ربّه فيها ؛ كان من الواجب عليه معرفةُ أسْرارِها ، ومقاصدها عن طريق ما يتعلَّق بها من آياتٍ مُنزَّلةٍ ، وأدعيةٍ ثابتةٍ ، وحركاتٍ واردةٍ .

ومن أجل ذلك كُلِّه شَرَعَ القَسْطَلّانى فى كتابَةِ رَسَالَتِهِ هذه ، والتى جعلها لنَفْسِهِ تَذْكِرَةً عندَ المُناجاةِ ، وتَبْصِرَةً فى معاناةِ المراعاةِ ، ولقد وصلها بما فيه عِبْرة فى الخَلَواتِ لمن له خِبْرة بالتّفْرِقَةِ بين الرَّغبات .

ولم يكن القَسْطَلّانى بِدْعاً من العُلَمَاء المُصَنِّفِينَ فى سَلْك هذا الدَّرْب ، وقَرْع ذلك الباب ، فلقد سَبَقَهُ فى سَير هذا الدَّرب جَمٌّ غَفِيرٌ من العُلَماء ، ولقد أشار إلى ذلك بقولهِ : « وَنَحْنُ وإنْ كُنَّا قد سُبِقْنَا فيما له قَصَدْنا من هذه الجهات فلنا أُسْوة بمن سبقنا » .

ولِلّه دَرُّ القائل :

لَسْنَا وَإِنْ كُنَّا ذَوِى حَسَبٍ   يَوْماً عَلَى الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِى كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا   تَبْنِى وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وكان مِمَّن سَبَقَ القَسْطَلّانى فى ذلك أبو بكر القَفَّال الشّاشِىّ (١) ، والحَكِيم التِرْمِذِى (٢) ، وأَلَّف فى ذلك أيضاً سُلْطَان

---

(١) هو : محمد بن على بن إسْمَاعيل القَفّال الشّاشِىّ الشافعى فقيه ، محدث وعنه انتشر المذهب الشافعى فى بلاد ما وراء النَّهْر ، تُوفى سنة (٣٦٥ هـ) .
انظر : طبقات الشّافعية الكبرى (١٧٦/٢) ، والنُّجوم الزّاهرة (٢٩٦/٣) ، وشذرات الذَّهب (٥١/٣) ، ووفيّات الأعيان (٥٨٠/١) ، وسير أعلام النُّبلاء (٢١٧/١٠) .
(٢) هو : محمد بن على بن الحسن بن بشر أبو عبد الله ، الحكيم ، الترمذى صاحب التّصانيف ، أُخْرِج من تِرْمذ وحكم عليه بالكُفْر بسبب كتابيه « ختم الولاية » ، =

العُلمـاء العزُّ بنُ عبد السلام [1] ، فقد أَلَّف فى ذلك رسالة صغيرة ، ولقد اعتنى بهـذه الرِّسالة السُّلْطان المِلِكُ الأَشْـرَف [2] ، وكان يقـرؤها الـمَلِكُ الأَشْـرَف على كل من يدخـل عليـه من خـواصِّه ، وكذلك أَلَّف ابن قيم الجوزية « الصَّلاة » وهو كتاب فيـه من الـحِكَمِ والأسرار المتعلِّقة بالصَّلاة شيء كثير .

تَوْثِيـقُ الكتاب :

ذُكِرَتْ هـذه الرِّسالة فى « كَشْف الظنون » (١٦٥٢/٢) ، وفى كتاب « الأعْـلام » (٣٢٣/٥) ، مع نسبتها إلى القَسْطَلَّانى ، ولقد حاولنا الحصول على المخطوطة الأصلية فلم نَسْتَطِع الحصول عليها ، فاعْتَمَدْنَا على النُّسْخَة القـديمة التى طُبعت بالمطبعـة المصرية بالأَزْهَر (٣ رمضـان سنة ١٣٤٩ هـ) والتى أشـرف عليهـا وعـلى إخراجها إلينا : (فضيلة الأستاذ / رضْـوان مُحَمَّد رضْوان) فَجَزَاهُ اللَّـهُ كُلَّ خيرٍ ، وعَامَلَهُ بِلُطْفِـهِ ، وتَغَمَّـدَهُ بِرَحْمَتِهِ .. آمين .

* * *

= و « علل الشريعة » ، تُوفى نحو ٣٢٠ هـ ، وانظر : حلية الأولياء (٢٣٣/١٠) ، والرسالة القُشَيْرية (٢٩) ، وطبقات السبكى (٢٠/٢) ، وطبقات الصُّوفية (٢١٧) ، وطبقات الشَّعرانى (١٠٦/١) .

(١) هو : عَبْد العَزيز بن عبد السَّلام بن أبى القاسم بن حسن بن محمد بن مُهَذب السُّلَمِىّ ، شيخ الإسلام ، وأحد الأئمة الأعلام ، وسُلْطَان العُلماء ، تُوفى سنة (٦٦٠ هـ) .
انظر : طبقـات الشافعية الكبرى (٢٠٩/٨) ، والبداية والنهـاية (٢٣٥/١٣) ، وشـدرات الذَّهب (٣٠١/٥) ، وفـوات الوفيـات (٥٩٤/١) ، والنجـوم الزاهـرة (٢٠٨/٧) ، وحسن المحاضرة (٣١٤/١) .

(٢) هو : مُوسى (الأَشْرَف) بن محمد العادل بن أبى بكر محمد بن أيُّوب ، مظفر الدِّين ، أبو الفتح ، من ملوك الدَّولة الأَيُّوبيَّة بمصر والشام ، تُوفى سنة(٦٣٥ هـ) .
انظر : الأعـلام (٣٢٧/٧) ، ووفيَّـات الأعيـان (١٣٨/٢) ، ومـرآة الزَّمـان (٧١١/٨) ، والنُّجوم الزَّاهرة (٣٠٠/٦) ، وذيل الرَّوْضَتين (١٦٥) .

عَمَلِي فِي الكِتَاب

قُمتُ فى هـذه الرِّسالة بقراءة النَّص ، وضبطت ما يَحْتَاج فيـه لضبطٍ ، ثُمَّ خَرَّجْتُ أحاديثها ، وحكمتُ عليها من حيثُ الصِّحة والـحُسْن والضَّعف ، بما تيسَّـر لدىّ من أقـوال العُلَمَـاء الـحُفَّاظ العَارِفِين بالعِلَلِ ، والـجَرْح والتَّعْدِيل ، وشَرحتُ ما فيها من غريب ، وما تضمنته من حِكَم وعِبَرٍ .

ثُمَّ قُمتُ بالتَّعليق على بعض المسَائل العَقَـدِيَّة والفِقْهِيَّـةِ التى ظَنَنْتُ أنَّها تَـحتاجُ إلى ذلك ، بما تَيَسَّر لَدَىَّ من أقوال العُلَمَاء الأَثْبَاتِ .
ثُمَّ بَيَّنْتُ مَخْرَج كُلِّ قول أَتَيْتُ به ، ومصدره لعُمُوم النَّفع والفَائِدَة .

ثُمَّ تَرْجمتُ للصَّحابة والرُّواة ، والأعـلام بترجمة مُوجزة ، ثُمَّ أشرتُ لأَشـهر وأَعمّ ، وأنفـع المصَادِر ، لعُمُـوم النَّفْع والتَّزوّد من سيرهم ، وأخبارهم ، وقمتُ بـإنشاء بعض العنـاونين للفصـل بين الكلام أو توضيح مقصوده .

وللّـه الـحَمد فى الأُولى والآخرة .

اللَّهُمَّ إِنِّـى أَسْأَلُكَ الإِخْـلَاصَ فِى القَصْـدِ وَالْعَمَلِ .

محمد صِدّيق المنشاوى
السُّوهَـاجى

* * *

ترجمة المؤلف (١)

ابنُ القَسْطَلَّانِيّ (٢)

(٦١٤ - ٦٨٦ هـ ، ١٢١٨ - ١٢٨٧ م)

هو الإمام العَلَّامَة ، الحَافِظ ، المحدِّث ، الفَقِيهُ ، الأَدِيبُ ، النَّاظِمُ ، النَّاثرُ ، العَابِدُ ، الزَّاهِدُ ، مُحمَّد بن أحمد بن عليّ بن محمد بن الحسن ابن عبد اللّه بن أحمد بن المَيْمُون ، الشَّافِعِيّ القَيْسِيّ التَّوْزَرِى (٣) (الأصل) (٤) ، المصرى المولد (القاهرى المَنْزِل والوَفاة) (٥) ، المكيّ المنْشأ (المكيّ الدَّار) (٦) ، المعروف بابن القَسْطَلَّانِيّ .

---

(١) مصادر الترجمة :

تاريخ علماء بغداد (١٧٣) ، وشذرات الذَّهب (٣٩٧/٥) ، وحسن المحاضرة (٢٣٦/١) ، وكشف الظُّنون (٦٢ ، ٤٧ ، ١١٣٣) ، وإيضاح المكنون (٢٢٦/١ ، ٧٠٧/٢) ، وهديَّة العارفين (١٣٥/٢) ، ومنتخب المختار (١٧٣) ، ، وذيل مرآة الزَّمان (٣٣٠/٤) ، وفوات الوفيَّات (٣٦٦/٢) ، ولحظ الألحاظ (٧٦/٥) ، والنُّجوم الزَّاهرة (٣٧٣/٧) ، والوافى بالوفيَّات (١٣٢/٢) ، والبداية والنِّهاية (٣١٠/١٣) ، والعقد الثمين (٣٢١/١) ، وطبقات الشَّافعية الكبرى (٤٣/٨) ، وتاريخ ابن الفرات (٨٥/٨) ، والمُقفَّى (٢٣٠/٥) .

(٢) قيل : نسبة إلى قسطلينة ، قاله ابن فَرْحون المالكى فى « الدِّيباج المذهَّب » ، والسَّخاوى فى « النُّور السَّاطع » ، وقيل : نسبة إلى قسطيلية ذُكر ذلك فى هامش شرح أبى شامة للشقْراطِيسيَّة ، وقيل : نسبة إلى قسطيلة ، قاله القطب الحلبى فى « تاريخ مصر » ، وانظر هامش لحظ الألحاظ (٧٦/٥) .

وهذا خلاف يسير يُشير إلى بلدة واحدة من مُدنها « تَوْزر ، ونَقْطة » كما ذكر كل واحدٍ منهم ، وهذا الخلاف يرجع إلى اختلاف الإخْبار والسَّماع والله أَعْلم .

(٣) التَّوْزرىّ : نسبة إلى تَوْزر ، وهى : من بلاد (قسطلينة أو قسطيلية) ، وهى مدينة حصينة لها أربعة أبواب ، توجد أقصى إفْرِيقِيَّة ، تشتهر بكثرة النخل والبساتين ، وهى من أكثر بلاد إفْرِيقِيّة إنْتاجاً للبلح . انظر : معجم البلدان (٦٧/٢) .

(٤) ، (٥) ، (٦) انظر : لحظ الألحاظ (٧٦/٥) .

مَـوْلِـدُهُ وَنَشْـأَتُـهُ :

وُلِدَ ابن القَسْـطَلّاني في ٢٧ من ذي الحجة ، سنة أربع عشرة وستمائة ، وُلِدَ بمصـر ، ثُمَّ نُقِـلَ صغيراً إلى مكَّة فنشأ بها ، وتَفَقَّـه هناك وسَمِعَ العِلْم ، وممَّن قال بمولده بمصر، ابن العِمَاد فى (شَذَرَات الذَّهَب) قال : « المصرى ثم المكى » ، وقال المَقْرِيزىّ فى (المُقفَّى الكبير) : « وَلِدَ بمصر يوم الاثنين السَّابع والعشرين من ذى الحجـة سنة أربع عشرة وستمائة » ، وقال ابن تَغْرِى بَرْدى فى (النُّجُوم الزَّاهرة) : « المصرى المولد ، المكى المنْشأ الشَّافعىّ المذْهب » ، وقال صاحب الوافى : « وُلِدَ بمصـر ونشأ بمكة » ، وكذلك فى (معجم المؤلفين) : « المصرى المولد » ، و (الأعـلام) : « مولده بمصر » .

وخالف ذلك ابن فَهْد الهاشمى فى (لحظ الألحاظ) قال : « وُلِد بمكة المشرفة ، ... » .

حَيَـاتُهُ وَرَحَـلَاتُهُ :

كانَ قُطب الدِّين القَسْطَلَّانِـىّ عُمـدةَ السَّالكين ، وقُـدْوَة النَّاسكين ، بَقِيَّة العُلَمَاء العَـاملين ، أحـد من جَمَع العِلْم والعَمَـل ، والوَرَع ، والهيْبـة ، نَشَأ بمكة وتلقَّى العِـلم فيها ، وسَمِع فيهـا من والده والشهاب السُّهْرَوَرْدِى[1] ، ولبس منه خِـرْقَة التَّصَوُّف ، وغيرهم من شُيُوخها والقَـادمين إليها ، ورَحَلَ فى سنة تسع وأربعين وستمائة ، فَسَمِع ببغـداد ومصر والشَّام والجزيرة جمعاً جمًّا من

---

(١) هو : الشيخ القدوة المحدث شهاب الدين ، أبو حفص ، وأبو عبد الله عمر ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن سعد القرشى التيمى البكرى السُّهْرَوَرْدىّ ، ثم البغدادى ، تُوفى سنة (٦٣٢ هـ) .

انظر : وفيات الأعيان (٤٨٠/١) ، والنجوم الزاهرة (٢٨٣/٦) ، وشذرات الذهب (١٥٣/٥) ، والبداية والنهاية (١٣٨/١٣) ، ومرآة الجنان (٧٩/٤) .

أصحاب ابن عَسَاكر [1] والسِّلَفيّ [2] وغيرهم ، تَفَقَّه وأَفْتَى وطُلب إلى القاهرة من مكة ، وتَوَلَّى به مشيخة دار الحديث الكاملية [3] .

وكان مِمَّن نَظَر في العُلُوم فَبرعَ في علائها بحراً وطلع في سمائها بدراً ، وشارك في فُرُوع الفقه وأصوله ، وخَاض في معقـول العِلْم ومنقوله ، وعنى بطلب الحديث أحسن عِنَايَة ، فحصل بالسَّماع [4] ، والإجازة [5] على كثير من الرواية .

كان (رحمه اللّـه) جامعاً بين الرِّواية [6] ، والدِّراية [7] شديداً

---

(١) هو : على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقى الشافعى المعروف بابن عساكر ، وهو محدث ، حافظ ، تُوفى فى رجب سنة (٥٧١ هـ) ودُفن بباب الصغير .

انظر . وفيات الأعيان (٢٤٢/١) ، وطبقات الشافعية الكبرى (٢٧٣/٤) ، والمنتظم (٢٦١/١٠) ، وتذكرة الحفاظ (١١٨/٤)، وشذرات الذهب (٢٣٩/٤) .

(٢) هو : الإمام العلامة ، المحدث ، الحافظ ، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد الأصبهانى الجَرْوانى السِّلَفِيّ ، توفى فى شهر ربيع الآخر سنة (٥٧٦ هـ) .

انظر : شذرات الذهب (٢٥٥/٤) ، وميزان الاعتدال (٧٣/١) ، وحسن المحاضرة (٢٠٠/١) ، ولسان الميزان (٢٩٩/١) ، وتذكرة الحفاظ (٩٠/٤) ، وكشف الظنون (٥٤ ، ٥٨٧ ، ...) ، وإيضاح المكنون (٥١٨/٢) .

(٣) انظر : لحظ الألحاظ (٧٦/٥) .

(٤) وهى طريقة من طُرق تحمل الحديث ، وصورتها : أن يقرأ الشيخ ، ويسمع الطَّالب ، سواءٌ قرأ الشيخ من حفظه أو كتابه ، وسواءٌ سمع الطَّالب وكتب ما سمعه ، أو سمع فقط ولم يكتب .

وهى أعلى أقسام طُرق التَّحَمُّل عند الجماهير ، ومن ألفاظ أدائها : (سَمِعْتُ وَحَدَّثَنِى ، وَأَخْبَرَنِى ، وَأَنْبَأَنِى ، وَقَالَ لِى ، وَذُكِرَ لِى) قبل التخصيص .

(٥) وهى من طُرق تحمل الحديث أيضاً ، وتعريفها . الإذن بالرِّواية لَفْظاً ، أو كِتَابَةً وصورتها أن يقول الشيخ لأحد طُلَّابه : « أجَزْتُ لك أن تَرْوِى عَنِّى كذا وكذا ... » ، وهى أنواع كثيرة .

والأَوْلَى فى أدائها أنْ يقول الرَّاوى . « أَجَازَ لِى فلان » .

(٦) **علم الحديث رِوَايَة** : « علم يشتمل على أقوال النبى ﷺ وأفعاله ، وَرِوَايَتِهَا ، وضَبْطِهَا وتحرير ألفاظها » ، وانظر تدريب الرَّاوى (٢١/١) .

(٧) **علم الحديث دِرَايَة** : « علم يُعْرَف منه حقيقة الرِّواية ، وشروطها ، وأنواعها ، =

على الحشوية المتسترين بستار السُّنة، باهر الحُجَّة عند المناظرة لجمعه بين المنقُول والمعْقُول ، وكان يقول : العَجَب ممَّن ينتمي إلى أهل السُّنَّة ويتعرَّض للاقتداء بالسَّلف الصَّالح منهم ويعتمد على ما ورد في الكتاب والسُّنَّة كيف يُخالف قَوْلُه قَوْلَهم وينتهي إلى ما لم يرد على السَّادة المقتدَى بهم من الخَوْض فى كيفية الكلام فيزيد فيه (بحرف وصوت) ولم يرد ذلك فى كتاب ولا سُنَّة (أى سالمة من عِلَّة) ويستدل على إثبات المقطوع به بالمظنون من الأحاديث المتضادة المتون ، وكان شديد العَدَاوة على غُلاة المتصوفة الجاهلين .

وكلَّف بالأدب فَدَرَتْ عليه دَيْمَتُهُ، وجاءتْ له بما شاء شَيْمتُهُ ، ومن شعره [1] :

إِذَا طَابَ أَصْلُ المَرْءِ طَابَتْ فُرُوعُهُ
ومن غَلَطٍ جَاءَتْ يَدُ الشَّوْكِ بالوَرْدِ [2]
وَقَدْ يَخْبُثُ الفَرْعُ الَّذِى طَابَ أَصْلُهُ
لِيَظْهَرَ صُنْعُ اللَّهِ فى العَكْسِ وَالطَّرْدِ

وقال أيضاً (رحمه اللّه) [3] :

إِذَا كَانَ أُنْسِى فى الْتِزَامِى لِخِلْوَتِى
وَقَلْبِى عَنْ كُلِّ البَرِيَّةِ خَالِى
فَمَا ضَرَّنِى مَنْ كَانَ فى الدَّهْرِ قَالِياً
وَمَا سَرَّنِى مَنْ كَانَ فِيَّ مُوَالِى

وَظَلَّ كذلك فى العِلْم والتَّعرف على أحوال السَّلف الصَّالح

= وأحكامها ، ورجال الرِّواية وشروطهم ، وأصناف المرويات ، وما يتعلق بها » . انظر : تدريب الرَّاوى (٢١/١) .

(١) انظر : العِقْد (٣٢٥/١) ، وشذرات الذَّهب (٣٩٧/٥) .

(٢) فى العقد : « ومن عجب جاءت » .

(٣) انظر : فوات الوفيَّات (٣٦٧/٢) ، وشذرات الذَّهب (٢٣٩/٤) .

والتَّمَسُّك بما يعلم فَفَاضَتْ عليه عَوَارِفُها ، فاجْتَنى غروسها ، واجْتَلى شُموسها ، وَجَمَع في ذلك مجموعات ، وأوضَح في مجلسه موضوعات إلى أنْ ولي دار الحديث الكامليّة فقام بها أحْسَن قِيام ، ولم يزلْ معظماً عند الخاصَّة والعَامَّة مُتَصَدِّياً لإبلاغ السُّنن وإسباغ المِنَن ، قائماً بقضاء الحاج على أحسن مِنْهَاج ، من إرفادِ مُسْتَرْفد ، وإنجاد مُسْتَنْجد ، والتفريج عن مكروب ، والتَّعريج على أكرم مطلوب [1] .

وَفَاتُهُ :

وَظَلَّ كذلك في جُوده وعِلْمه وكَرَمِه إلى أن تَمَّ حِمَامُهُ وانْقَطَع من الحياة زمامُهُ فقضى نحبه وغُصّ بجنازتِهِ الفَضَا ولم يشهدِ النَّاس مثل يومِهِ مَشهداً ، ولا وَرَدُوا كَثْرَةً مثل نَعْيه مورداً ، وذلك في ليلة الثامن والعِشْرين من المحرَّم سَنَة ستٍّ وثمانين وستمائة ، ودُفِنَ (رحمه اللّه) بسفح المقطم بالقرافة الكبرى .

ثَنَاءُ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ :

قال ابن تَغْرى بَرْدى : « كانَ شُجاعاً ، عالِماً ، عاملًا ، عابداً ، زاهداً ، جامعاً للفَضَائل ، كريم النَّفس ، كثير الإيثار ، حسن الأخلاق ، قليل المَثِيل » [2] .

قال ابن العِماد : « كانَ أحد من جَمَع العِلْم والعَمَل ، والهَيْبة ، والوَرَع » [3] .

قال ابن سِيد النَّاس : « أحْفَظ من لَقِيَهُ في أجوبته عن مسائل ابن أَيْبَك » [4] .

---

(١) انظر : لحظ الألحاظ (٥/٧٨) .

(٢) ، (٣) ، (٤) انظر : شذرات الذهب (٥/٣٩٧) .

مُـؤَلَّفَــاتُهُ :

لَقَـدْ أَلَّفَ ابن القَسْطَلَّانِيّ فى الحديث والفقه وغيرهما ، ومن مؤَلفـاته التى ذكرها السّيوطى فى (حسن المحاضرة) (٢٣٦/١) ، وعمر رضا كحالة فى (معجم المؤلفين) (٨٦/٣) ، والزِّركلى فى (الأعلام) (٣٢٣/٥) :

١ – (الإفصاح عن المعجم من الغامض والمبهم) فى أسانيد رجال الحـديث رَتَّبَـهُ على الحروف .

٢ – (اقتـداء الغـافل باهْتِـدَاء العاقل) .

٣ – (رسالة فى تفسير آيات من القرآن الكريم) .

٤ – (لسان البيان عن اعتقـاد الجنان) .

٥ – (مدارك المرام فى مسالك الصِّيام) .

٦ – (تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة) .

٧ – (تتميم التكريم لما فى الحشيش من التحريم) .

٨ – (ارتفاع الرّتْبـة باللِّبـاس والصُّحبة) .

٩ – (عـروة التوثيق فى النـار والحـريق « فى حـريق المسجد الحـرام ») .

١٠ – (رسالة فى لبس الـخِرْقَة) .

١١ – (وسيلة العباد فى فضل الجهاد) .

١٢ – (الأدوية الشّافية فى الأدعِيَة الكافِيَة) .

١٣ – (مراصد الصَّلاة فى مقاصد الصَّلاة ، وهو الذى بين أيدينا) .

* * *

مراصد الصلاة

في

مقاصد الصلاة

للمحدث الحافظ قطب الدين القسطلاني

(ت ٦٨٦ هـ)

مُقَدِّمَةُ المُصَنِّف

الحَمدُ للَّه الَّذِى أجْزَل لعِبَادِه من سنى الهِبَات ، ما أجْمَل فيما نَوّع لهم من رِضَى القُرُبات ، وأكْمَل فى مراده من وسيع البركات ، ما رفع به من قدر وضيع الطَّلبات إلى رفِيع الدَّرَجَات ، وحصل من وداده لمطيع العَزَمَات فى قطع وصل الشَّهوات ، ما نَفَعَ به من كانَ ضرّ نفسه بالتعلق بحبل الشُّبهات .

وصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّد الَّذِى بَعَثَهُ لِخَلْقِه حُجَّة قامِعَة لما قام من شيطان النّزعات ، قاطعة لما دَامَ من سُلطان التَّبعات ، وعلى آله وصحبه ومن رَغِبَ فى النَّجاة من الهلكات .

وبعـد :

فهذه « مَرَاصِد الصَّلاة فى مَقَاصِد الصَّلاة » جَعَلْتُهَا لنَفْسِى تَذْكِرَة عند المُنَاجَاة ، وتَبْصِرَة فى مُعاناة المراعاة ، ووصلتها بما فيه عِبْرَة فى الخلوات ، لمن له خِبْرَة بالتَّفرقة بين الرَّغبات ، ونحنُ وإنْ كنَّا قد سُبقنا فيما له قد قَصَدنَا من هذه الجهات ، فلنا أُسوة بمن سَبَقَنَا ناسِجاً على مِنْوَال من قبله فيما أتى به من المصَنَّفات ، على أنَّا لا ندعى أنَّا نفى بما وافينا به من تلك الحالات ، ومن تَأَمَّل ما أوْدَعناه بصحيح العزمات ، شكر لنا ما نظَّمناه من الشّتات ، وأوردناه من المعانى المطْرُوقَات والمبتكرات ، ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُولِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

والنَّظَر فيما رُمْناه يَنحصر فى مقدِّمة ومَطَالب ، أمَّا المقدِّمة ففى حِكْمَة الأحكام والتَّعَبُّدَات ، وفى أنواع القُرُبَات وما لها من

الثَّمرات ، وفى أفضلية الصَّلوات ، وما معنى التَّقرُّبات ، وأمَّا المطالب فأربعـة :

الأول : فى الافتتـاح بالتَّـوجـه ، والأدْعِيَـة والأثنيـة[1] المتنـوعات .

الثَّانى : فى تَنَـوّع الحركات والسَّكنات ، واختصاص كل نوع بذكر من الأذْكَار المشْرُوعات .

الثَّالث : فى الاعتبـار لما اشتملت عليه الفَاتحة عِنـدَ قراءتها من الكلمات ، وما تَضَـمَّنت من الـحِكَم الـحَاكِمَة بتحصيل الزِّيادات .

الرَّابع : فيما وقع فى الصَّلاة من الأسماء والصِّفات .

وهـذه جُملة يَنتفِـع بها أرباب التَّوجهات ، ويتوجه إليها باليَقَظَة عِندَ سَمَاعِهَا من كان شُـربه من منـاهل الغَفَلات ، ومِنَ اللّـه نَسْأَل الثَّبات عِنـدَ الممات ، والحراسَـة من الآفات عنـدَ المقيل والبيَات ،

---

(١) الأثنيـة - جمع الثناء - : وهو المدح ، هكذا اقتصر على هذا المعنى فى المعجم الوسيط (١٠٦/١) .

وفى المصباح المنير (٣٣) قال : أثنيت على زيد بالألف ، والاسم الثناء بالفتح والمد ، يقال : أثنيت عليه خيراً وبخير ، وأثنيت عليه شرًا ، وبشَرٍّ ، لأنه بمعنى وصفته ، هكذا نصَّ عليه صاحب المحكم ، وكذلك صاحب البارع ، وعزاه إلى الخليل .

قال : واقتصر جماعة على قولهم : أثنيت عليه بخير ولم ينفوا غيره ، ومن هـذا اجترأ بعضهم فقال : لا يستعمل إلَّا فى الحسن وفيه نظر ، لأن تخصيص الشىء بالذِّكر لا يدل على نفيه عما عداه ، والزيادة من الثقة مقبولة .

ولو كان الثناء لا يستعمل إلَّا فى الخير كان قول القائل : أثنيت على زيد كافياً فى المدح ، وكان قوله : وله الثناء الحسن لا يفيد إلَّا التأكيد ، والتأسيس أولى فكان فى قوله : الحسن احتراز عن غير الحسن ، فإنه يستعمل فى النوعين ، وله فى ذلك كلام طويل مفيد فليرجع إليه فى موضعه ... (المراجع) .

ومنه نَسْتَمِد حُسن التَّوفيق للتحقيق فيما نأتيه من وظائف العَادَات والعِبَادَات بمحمَّد ﷺ وآله [1].

* * *

(١) فى هذا الدُّعاء توسل إلى الله – عَزَّ وَجَلَّ – بأحد خلقه ، ولعل المؤلف ممَّن يجوز هذا النوع من التَّوَسُّل ، والتَّوَسُّل نوعان :

الأول : توسل ثابت بالنصوص ، وهو ثلاثة أنواع :

١ – التوسل إلى الله – عَزَّ وَجَلَّ – بأسمائه وصِفَاته ، لقوله – عَزَّ وَجَلَّ – : ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ...** ﴾ [الأعراف / ١٨٠] ، ولقول أنس – رضى الله عنه – : كان النبى ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر قال : « يَا حَىّ يَا قَيُّوم بِرَحْمَتك أَسْتَغِيث » رواه الترمذى والحاكم .

٢ – التوسل إلى الله – عَزَّ وَجَلَّ – بعمل صالح قام به الدَّاعى ، وذلك يظهر من حديث الثلاثة « الذين أووا المبيت إلى الغارفدخلوه فدعوا بِصَالِح أَعْمَالِهِم » متفق عليه .

٣ – التوسل إلى الله – عَزَّ وَجَلَّ – بدعاء الصَّالحين ، ومن ذلك حديث « استسقاء عمر بالعباس – رضى الله عنهما – » رواه البخارى .

وهو مذهب جماهير السَّلف والصحابة وأهل الحديث ، وأنكروا ما عداه .

الثانى : توسل لا دليل عليه ، وهو التوسل بالمخلوق .

ومن ذلك ما ذهب إليه الإمام أحمد بجواز التوسل بالنبى ﷺ وحده فقط ، والشوكانى إلى التوسل به وبغيره من الأنبياء والصَّالحين ولا دليل على ذلك كله ، ولا نميل إليه .

انظر : التوسل والوسيلة للألبانى ، ومجموع الفتاوى (١/ ٢٧ ، ١٠٥ ، ١٠٩) .

القَــولُ فى الـمُقَــدّمَــة

وَفِيهَــا خَمْسَـــةُ أَطْــرَاف

الطَّـــرَفُ الأَوَّلُ

فِى حِكْمَـة الأَحْكَام وَالتَّعَبُّـدَات

وهـذه قاعدة غَوْرٍ (١) ، فهمها بعيدٌ ، إلَّا لمن أَلْقَى السَّمع وَهُوَ شَهِيد ، أمَّا إنَّ الأحكام لا تخلُو عن حِكمة فإنَّه معلُوم ؛ لكن الحِكْمَة قد تظهر وقد تخفى للنَّاظر فيها ، فَمن ثاقب ذهنه فى العُثور عليها ، ومن قاصر لا يتأتى لذهنهِ أن يميل إليها ، وقد اخْتَلَفَ العُلَمَاء والأَئِمَّة فى ذلك ، فطائفة قالت : الإيمان محض تَقْلِيد ، لأَنَّه إيمان بالغَيب ، والغَيب لا سَبِيل إلى العِلم به ، فكذلك جميع الشَّريعة تقليد يجب الإيمان بما جاءت ولا يبحث عن فَهْم أصله وعِلَّته وثمرته وحِكمته ، إذ أثبت الصِّدق للشَّارع فوجب تلقى ما أتى به بالقبول والاعتماد عليه فيما رآه مصلحة دُون البَحْث عن مقاصده فإنَّه قد لا يصادف الباحث العِلَّة التى كانت ظهرت له وعنها نَشَأَ الحُكم ، وهذه عمدة من أنكر القياس (٢) فيكون قد اعتدَى وتَعَرَّض لما هُو مُستغن عنه مِمَّا لم تدعهُ إليه ضرورة ، وهذه طريقة سَلَكها جماعة مِمَّن اتّبع الأثر وأداه تقرير هذا الأصل إلى حَمْل كلام الشَّارع على ظَوَاهِره فأنكر التَّأويل ، ونشأ من ذلك مفاسد عَظِيمَة ، وموارد أثِيمَة ، واستدلت هذه الطَّائِفَة على ذلك بقول

---

(١) **قَاعِدَة غَوْر** : أى لا تدرك حقيقتُها إلَّا بصعوبة ومشقَّة ، كالماء الغائر الذى لا يُقْدر عليه . لسان العرب ، لابن منظور (٣٣١٢/٣) (مادة : غور) .

(٢) **القيـاس** : هو إلحاق ما لم يرد فى بيان حكمه نصّ من الكتاب أو السُّنة ، أو الإجماع ، بأمر منصوص عليه ... لاشتراكهما فى عِلَّة الحُكم . (الموجز فى أصول الفقه ص ٢٢٥) .

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لما سَأَلَ عن الأبِّ فى قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [1] ، ثم قال مالك : يا ابن الخطاب ، ولهذا نهينا عن التكلُّف فى الدِّين ، فكانت الأحكام مَحض تَعَبُّد لا تُعَلَّلُ بالعُقول ، وأبَتْ طائفة ثانية ذلك وقالت : الرسل (عليهم الصلاة والسلام) وإنْ كانت مُبلغة الشَّرائع ومعرفة عِبَادِ الله بأَمْرِهِ ونَهْيه إلَّا أنَّ الأعمال تنشأ عن المقاصِد والنِّيَّات ، ومهما كانت المقَاصِد مفهومة الحُكم ، تبادر إلى عملها ما نهض من الهمم ، وازدادت بَصِيرَة وإيماناً ، وحِكْمَة وفُرقاناً ، وليس نفس الاعتقاد فى الصِّدق كافياً فى المراد ، من تمام الانقياد ، بل فهم الأسرار ممَّا يُوجب زيادة الأنْوَار ، ويشرحُ الصُّدور فى الإِيراد للأعمال والإِصدَار ، فحينئذ قالوا : لكل الأعمال من أعمال الشَّرع فى العِبَادَات ، أو العَادَات ، أو الأَخلاق المحمُودَات ، والمذْمُومات ، حُكم فى الأصل يَخصُّه ، وحُكم تخصصه ، وسِرّ يقتضيه ، فَمن منور باطنه يفتح له باب الفَهْم فيه والتعبير عن مَعْلُومه ، ومن منور باطنه قاصِر عن التعبير عنه ، ومن مظلم لمن تُشْرق فيه أنْوَار الهداية ، واقف مع الصُّور ، دون المعانى الكاشفة عن أسرار أحكام البَشَر ، وهُم الأكثر فى اعتبار النَّظَر ، فلا جرم من تَعَاطَى ذلك إيراداً وإصداراً ، كان كمَثَلِ الحِمَار يَحْمِلُ أسْفَاراً ، وعلى طريقة الطَّائفة الثانية درج فحُول العُلماء ، ونهج فيها سُراة الفُضَلَاء الفُهَمَاء ، وهو العمدة لمن بحث عن أسرار الصَّوم والصَّلاة ، والحَجّ والزَّكاة ، وأطَالَ البَحْث فى ذلك واستخرج منها ما كان كامِناً هُنَالِكَ ، وبه نقول ، فإنَّه مظهر لمحاسن الشَّريعة ، مُفيد لتعْظِيمها وتقْدِيمها ، مُبيد لما يعترض به عليها من طَمْس الله نُور بَصِره وبَصِيرته ، ممَّن أَنْكر شرفها ، وأظهر ذمّها ، وقد سبق إليّ تحرير هذه

---

(١) سورة عبس ، الآية ٣١ .

قال ابن كثير فى تفسيره (٤١٣/٤) : « قال ابن عباس : **الفَاكِهَةُ** : كل ما أكل رطباً ، **والأَبُّ** : ما أَنْبَتَتِ الأرض ممَّا تأكله الدَّواب ، ولا يأكله النَّاس » .

القَاعِدَة فى استقراء الحكم لما جاء من الأحكام ، جماعة من عُلَمَاءِ الإسلام ، وبَيَّنُوا ما هى عليه من التَّمام والانتظام ، كالإمام أبى بكر القَفَّال الشَّاشِى من الفقهاء ، والحَكِيم التّرمذى من الصُّوفية العُلَماء ، وهذا هو الصَّواب الذى تنهض حجّته ، ولا تنتقض عِلَّته ، ولا يلزم من ذلك أنْ يُقال : إنَّ عَصْر الصَّحابة والتَّابعين — رضى الله عنهم — لم يَخُوضُوا فى ذلك فيكون بِدْعَة واعتداء ، ولعلّ ما نعتقد أنه يصلح أن يكون حكمةً لا يكون مقصوداً للشَّارع ، ولعلّ له قصداً آخر لم يوجدِ العثورُ عليه من النَّاظِر فى ذلك فيكون مُتَعَدِّياً لأنا نقول : إنَّ السَّلف الأول لم يُدَوِّنُوا ما قام بهم من العُلوم والمعارف ، حتى إنَّ النَّحو والفِقْه لم يدونا على الأبواب إلَّا بعدهم ، وإنما كانوا يَتَلَقَّوْنَ العِلم تلقيناً بعضهم من بعض بالمذكرات والمناظرات . وأمَّا المخالفة لمقصود الشَّارع فليس فيه ذلك إذ المتكلِّم فى هذا المقام وظيفته إبداء عِلَّة مناسبة للحكم ، لا أنَّه يحكم بأَنَّ ذلك مقصود الشَّارع ، وقد تكون عِلَّة أُخرى له لم يقعِ العثورُ عليها عَلِمَها الشَّارع وجهلها هو فلا يكون له مخالفاً ، بل موافقاً فى تأْكيد إلزام الحجّة بقوله للعقول .

وبهذا تم الطَّرف الأول .

* * *

الطَّرَفُ الثَّانى

أَنْوَاع القُرُبَات وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا

اعلَمُوا (وفقَّنا الله وإيَّاكم) أنَّهُ لَمَّا أبْدَعَ الله من آدم (عليه السَّلام) فِطْرته ، واستخرج من ظَهْرِهِ ذُرِّيَّته ، وأودَعَ من ارتضاه منهم حِكمته ، ليمِيزَ الخبيث من الطَّيب ، ويُذيق كلًّا منهما نعمته ونقمته ، أعَدَّ لمن أوْجدهُ دارين : دار ابتلاء وامتحان ، واعتلاء وامتنان ، أمد الأُولى بالأنكاد والأحزان ، وحشاها من التَّوفيق والخذْلان ، وأعَدّ للأُخرى ملأها من الرَّحْمَة والرِّضْوَان ، لأهل الهُدَى والإيمان ، وملأها من السُّخط والهَوَان لأهل الكُفر والعِصْيَان ، وجَعَلَ أمل العامل فى الأُولى ممتدًّا لما فى الأُخرى من رَاحَةِ الأبْدَان ، ومُجَالَسَة الرَّحمن فى رِيَاض الرَّوح والرَّيحَان ، وأمَّنهُ من الجوارح بِسَبْع عن الأعوان ، ليكتسب بها ما يترجَّح عمله عند نَصْب الميزان ، وأَمَّرَ عليها أميراً هو القَلْب ، وجعله عَظِيم الشَّأن ، إنْ استقام استقامت ، وإنْ اعوج اعوجت على ممرّ الأزمان ، وأودعهُ كُنُوز الآمال وبيوت الأموال من : العقل والفَهْم ، والذَّكاء والعِلم ، والحِكْمَة والفِطْنة ، والرَّغبة والرَّهبة ، والخُشُوع والخَشْيَة ، فهو ينفق منها بقدر الإمكان ، ويستخدمها فيما يتأَتَّى له من الأشْوَاب بما أُقيم عليها من السُّلطان ، وجعل له فى مملكته عدوًّا متاخماً له وهو الشَّهوة القائمة بنوع الحيوان وجعل معدنها النَّفس التى هى أعْدَى عَدُوّ للإنسان ، والهَوَى متحكم عليها فى الإساءة والإحسان ، يَدعُوها إلى إجابته وطاعته فى السِّر والإعلان ، وأقام الجوارح بمثابة من له نوعٌ من الحيوان مختلفة الأمزجة ، مُتفاوتة الطَّبائع ، متباينة الأشْكال ، كالإبل والبَقَر ، والغَنَم ، والخيل ، والبِغَال ، والحمير ، والدَّجاج ، وجعل

العَبْد مُوكَّلًا برعايتها ، ورعيتها فى الأودية المعشَّبة الخصبة المنمية لها ، ولكل نوع منها وادٍ لا يصلح لغيرها ، ولا ترعى هى إلَّا فيه لملاءمة ما يَنْبتُ فيه من الأشجار لها ، ومُباينة نَبَات غيره من الأودية لأمزجتها ، فهو يُرسل أمواله فى تلك الأودية راعِيَة ، ويقُوم هو مُشرفاً على قَلْعَة أو رابية ، ليطَّلع على أحوالها ، ويكشِف ما استتر عنه وعنها من أعدائها ، ويحرسها من عَدُوّها الذى يَتخلَّل غفلتها ، فإن تَعَرَّض لها سبعٌ حَمَاها منه ، ونَفَاها عنه ، وإنْ عرض لحيوان منها كَسْر ، أو آفَة من مرض ، أو وقَعَ فى بئر أو مهواة أخرجهُ وجبر كسره ، ودَاوَى مرضه وجرحه ، وإنْ رعت حشائش ذوات سمائم بادَرَ إليها عند ظهُور العلامات فَسَقَاهَا من الأدوية ما يقاوم ضررها ويدفعه ، فكان الآدمى من مراقبة قلبه لجوارحه على هذه المثابة ، فالقَلْب راعٍ لجوارحه ، وهو مسئولٌ عنها ، ومأْمُور بكفالتها ، فقيل له : أنْفِق عليها من خزائن أموالك المعدَّة عندك ، وحارب عَدُوّك وخلِّص أتباعك وجُندك من تعرضها للقتل والأسر ، واطْلُب لهم الأمْن والعَافِية ، فَلَمَّا تَسَلَّط عليهم العَدُوّ باستيلاء الغفلات ، واستقرار الخواطر بالوثوب على الشَّهوات ، والرُّكوب للسَّيِّئات ، طالب القلب الجوارح بطاعته فى تَرْك الشُّبهات ، والنَّفس فى تَرْك الشَّهوات فأبَيَا إلَّا تمادياً على الضَّلالة ، وتهادياً إلى فعل الجهَالة ، فدعاهما إلى عمل الصَّلاة ليجمع فى ذلك بين أدبين لهما ، وهما عِبَادة قلبه ، وهى جوارحه ليشغل جُنده وأعوانهُ عن الفَرَاغ لإجابة عَدُوّه ، وعِبَادَة قلبه الذى هو ركنه وسُلطانه ، فيتجدَّد من إسلامه وإيمانه ما قد خلق لباسه ، ويبتعد من شيطانه ما دنا منه مُذ غفل عنه أحراسه ، ويقُوم به من الوَفَا بعد الجفا ما تَصْفُو به من الأكدار أنفاسه ، فإنَّه عند طلبه لقُرْبه من ربِّه ، يكثر التَّردد فى قلبه ؛ فإذا أشْرَق فيه نُور الهِدَاية سَكَن تردده فاطمأن ، وأمن بعد خوف فأسلم (أى انقاد) لمعبوده بجَوَارحِهِ ، وآمن أى صدق بقلبه فَسَكَن بعد اضطرابه ، فلزمهُ اسم الإيمان والإسلام بفِعْل الصَّلاة والعَبْد أبداً دائر بين أمرين :

إمَّا حُكمٌ من الله عليه فى الأحْوَال فحقُّه الرِّضا عنه فيه ، وإمَّا فعل يقُوم به العبد فحقُّه التَّسليم والامتثال فى الأمر والنَّهى فيه . فمهما حَصَلَ الخَلَل فى واحد مِنْهُمَا أو فيهِمَا جَدَّدهُ بصَلاته ، فلذلك أُجريت صُورة الصَّلاة على صُورة أفعالهِ العَادِية ، من القِيَام والقُعُود ، والرُّكوع والسُّجود ، خُشُوعاً وخُضُوعاً ، ودُعاءً وثناءً ، وافتتاحاً بالتَّحمِيد ، واختتاماً بالتَّسليم ، وجُعِلَتْ ثمرتها إقْبَال الله على عَبْدِه ، ومَثُوبتها فوزه بالقُرب والرِّفعة من عِنده ، ومحلّها رَفْع الحجب المعترضة للعَبْد بين يديه ، المانِعَة من الوصُول لمولاه والدُّخُول عليه ، فإذا تقرَّر ذلك فنقول :

ليَعْلَم أنَّ التَّنويع فى العِبَادات من الحكم المعتبرات ، فإِنَّ النَّفس مجبولة على السَّآمة والملل ، مَحْمُولة على التَّنَقُّل فى طَلَب البَدَل ، مَطْرُوقَة ساحتها بضُرُوب من العِلَل ، فإذا تَنَوَّعَت أعمالها ، وتَبَدَّلَت أحوالها ، نَهضَت عزمتها ، وانتقضَت فترتها ، فقامت نَشِيطَة إلى عملها ، وإتْقَان الأعمال المشْرُوعَة مَطْلُوب ، وكَمَالهَا لله فى خَلْقِه مَحْبُوب ، ولما تنوَّعَتْ العِبَادَات بحَسْب المصَالح الإلٰهية على ألْسِنَة الرُّسل (عليهم الصَّلاة والسَّلام) لحكمة الانقياد والتَّذَلل . كان منها ما هُوَ بوجه مخصُوص بشُرُوط مخصوصة فى أزْمِنَة مخصُوصَة ، كالصَّلوات الخَمْس المفْرُوضَة ، وثمرتها الإقْبَال من الله على المُتَوَجِّه له بفعلها .

فإِنْ قِيل : **مَا الحِكمَة فى فَرْض الصَّلَوات ، وتخصِيصهَا بالخَمْس ؟**

قُلْنَا : **الحِكْمَة وجهان :**

أحدهما : أنَّ الأَنْفُس البَشَرِيَّة المقْتضِية للشَّهوة والغَفْلَة والسَّهْو والنِّسْيان والشَّر فى العَمَل والفترة عنه فاقتضَتْ الحِكْمَة أن تذكر نِسْيَانها وتُوقِظ غَفْلَتها ، وتُقْمَع شَهْوَتهَا بقطْعِها عن عادتها ، ومُناجَاتها لمولاها الذى كَفَلهَا بنعَمِه ، وغَذَّاها بجوده وكَرَمِه ، ولعلمه بضعف قُوَاهَا لم يجعل هَذِه العِبَادَة إلَّا فى أوْقَاتٍ يكْثُر الفَرَاغ فيها من اشتغال العَادَات وهذا هو الحِكْمَة فى تَنْقِيصهَا من الخمْسِين إلى الخَمْس رَأفة بِهِم ، ورَحْمَة لَهُم .

والوجه الثانى : أنَّ العَبْد فى هذه الدَّار يَعْمَلُ لنجاتِهِ فى الدَّار الأُخرى ، وهى مشتملة على أهْوَال وَمَشَاق وَمَتَاعِب ، وأمام العَبد دُونها خَمْسُ عَقَبَات :

الأُولى : الدُّنيا ، وشُرُورها ، وآفَاتهَا ، ومَحْذُورَاتها وشَوَاغِلها وعلَائِقها القَاطِعَة عن مزيد السَّعَادَة .

الثانية : المَوْت ، وما يخشَى من فِتْنَته ، وشِدَّة سَكَرَاته ، وما يشاهد عندهُ من الأُمور العِظَام ، والآلام الجِسَام .

الثالثة : القَبْر وَضِيقَتُهُ ووحشَته ، وسُؤَال مُنْكَرٍ وَنَكِير ، وذلك صَعْبٌ خَطِير .

الرَّابعة : المَحْشَر وهوله ، وما فيه من الخَوْف الشَّدِيد ، والجزع الأَكِيد .

الخامسة : الحِسَاب ، وما يخشَى فيه بعد العِتَاب من وقُوع العِقَاب ، فكان فِعْل الصَّلَوات الخَمْس مُسهلًا لهذه العَقَبَات ، مُحصلًا لِنَيل المسرَّات فى دَار الكرَامات .

وكان من العِبَادَات ما يكون بوجه مخصوص ، على وجه مخصوص ، على هيئة مخصوصة ، مخالفة للعادة ، كالحَجّ ، وثمرتُه وجُود المَغْفِرَة بفعله .

وكان منها ما يكون بوجه مُقَيَّد بزمانٍ دون مكان ، كالصَّوم الوَاجِب فى شَهْر رَمَضَان ، وثمرتُه تَطْهِير النَّفس لما فيهِ من كَسْر شَهَوَاتِ الأنفُس ، وقَطْع دَوَاعى لذَّاتها ، وتَصْفِيتها من كدوراتها ، وإقْبَالهَا على مُناجَاتها ، فإنَّ النَّفس مَتَى جَاعَتْ أَضَاءَتْ فيها الأَنْوَار ، ونَزَلَتْ إليها الأسرار .

وقد ورد فيما روى من الحديث : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى من ابْن آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ »[(1)].

---

(١) أما اللفظة الأولى : « إنَّ الشَّيطَان يجرى من ابن آدم مجرى الدَّم » ، فقد أخرجها البخارى رقم (٢٠٣٥ ، ٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩ ، ٣١٠١ ، ٣٢٨١ ، ٦٢١٩ ، ٧١٧١) ، ومسلم (٢١٧٤ ، ٢١٧٥) ، وأبو داود (٢٤٧٠ ، ٢٤٧١ ، ٤٩٩٤) ، والنسائى فى السنن الكبرى (١/٩ ، =

وكان منها ما هو بوجه مُفارقَة مَحبُوب الأنفُس ومألوفها ، كالزَّكاة ، فإنَّها تَنْقِيص الأموال بالعُشر ، ونِصْف العُشر ، ورُبْع العُشر ، وذلك مُتقيِّد بزمنٍ مَعْلُوم ، وعَدَد مَعْلُوم ، ووزنٍ مَفْهُوم ، ونَوْع من المال مخصوص ، لما فيه من قَمْع دَوَاعِي الحِرص بالجمع والمَنْع ، وثمرتُه تَطْهِير المَال ، وتَنْمِيته بالتَّضعيف فى المآل .

ومنها ما لم يتقيَّد بزمنٍ مُعين ، كالجِهَاد ، لما فيه من إظْهَار شِعَار الدِّين ، وإيثار إقامة شَرَف المُوَحدين ، وثمرتُه حُصُول الجَنَّة ، وهذه كلها توجهات من الله تعالى فى خَلْقِهِ مطلُوبَة ، ولأحرى المراد فيهم منسوبة .

فإذَا عَلِمَ التَّوجُّهَاتِ الشَّرعيَّة ، وما يترتَّب عليها مِنَ المَقَاصِد ، صرفنا العِنَايَة مِنَّا إلى النَّظَر منها فى مقاصد الصَّلاة ، فإنها فى التَّقرُّب إلى الله تَعَالَى أشْرَف القُرُبَات لشبهها بفِعْلِ المَلَائِكَة المنتدبين لامتثال المأمورات ، ولاختصاصها بالإقبال من الله الَّذِى تَقْصُر عنهُ جَمِيعُ الطَّاعَات ، وليكونَ العامل لها عَلَى بَصِيرَة جالبة للمسرَّات ، دافعة للمضرَّات .

وبعد تمام هذا الكلام قد وقفت على خبر قد روى لا يثبت مثله :

روى عن على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ مسنداً ما معناه ، إنَّ اليَهُود سَألُوا النبى ﷺ عن فرض الخمس فى مواقيتهن ؟ فأجابهم بأنْ قال :

= ١/١٠) ، وابن ماجه (١٧٧٩) ، وأحمد (٣٣٧/٦) ، وغيرهم من حديث صَفِيَّة (زوج النبى ﷺ) به نحوه ، ورُوِى هذا الجزء من حديث أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله .

وأما الجزء الثَّانى : « فَضَيِّقوا مجاريه ، بالجوع والعطش » ، فقال العراقى فى (تخريج أحاديث الإحياء) : « متفق عليه دون قوله : فَضَيِّقُوا مجاريه بالجوع » (٤٢٢/١) ، وقال ابن السُّبْكىّ فى (طبقات الشَّافعيَّة) (٢٩٩/٦) : « فى الصحيحين لكن زاد فيه فَضَيِّقُوا مجاريه بالجوع ، وذلك لا يُعرف » ، وقال العَجْلُونى فى (كشف الخفاء) (٢٥٦/١) : « فإنَّه مُدْرج من بعض الصُّوفيَّة » .

قال ابن حجر فى الفتح (٣٢٨/٤) : وقوله : « يَجْرِى ... » قيل : هو على ظاهره ، وأن الله تعالى أَقْدَرَهُ على ذلك ، وقيل : « هو على سبيل الاستعارة من كثرة إغْوائه ، وكأنَّه لا يُفارقه كالدَّم ، فاشتركا فى شدة الاتصال وعدم المفارقة » انتهى .

« أَمَّا الظُّهر فإِنَّ فِي السَّمَاءِ حَلقَةً تَزُولُ فِيهَا الشَّمس فَتُسَبِّحُ المَلَائِكَة وَلَا تُغْلِقُ حَتَّى تُصَلِّي وَيُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ فَأُمِرْنا بِالصَّلَاةِ حِينَئِذ ، وَأَمَّا العَصْر فلأَنَّ الشَّيْطَان وَسْوَس لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فى تِلْكَ السَّاعَةِ حَتَّى أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَة فأرغم الله أَنْفَه بالصَّلَاة فِيهَا ، وَأَمَّا المَغْرِب فلأَنَّ الله تَعَالَى تَابَ عَلَى آدَمَ عَلَيْـهِ السَّلَامُ عِنْـدَ الغُرُوب فَأُمِرَ بِالصَّلَاة تَوْبَةً لَهُ وَلِمَنْ أَذْنَب ، وَأَمَّا العِشَاءُ فلأَنَّهَا صَلَاةُ المُرْسَلِينَ قبله عَلَيْهِ وعَلَيهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ ، وَأَمَّا الصُّبْح فلأَنَّ الشَّمْس تَطْلع بَيْنَ قَرْنى شَيْطَانٍ وَتَسْجُدُ لَهَا الكُفَّار فَأَمَرَ أُمَّتهُ بِالصَّلَاة وَالسُّجود لله قَبْلَ أَنْ يَسْجُد الكُفَّار لِغَيرِ الله تَعَالَى » (١) .

وأوقفك على خبرٍ آخر قد رُوى وفيه : « أَنَّ تَوْبَةَ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ كانَتْ عِندَ طُلُوعِ الفَجْرِ فَصَلَّى ركعتين شُكراً لله تعالى ، وكانت تَوْبَةُ دَاود عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ زَالَتْ الشَّمس أَتَاهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَشَّرَهُ بِهَا ، فَصَلَّى أَرْبَع ركعَاتٍ ، وكانَتْ تَوْبَةُ ابنه عَلَيْـهِ السَّلَامُ عِندَ العَصْرِ فَبَشَّرَهُ بها جِبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى أَرْبَع ركعَاتٍ ، وكانَتْ بِشَارَة يَعْقُوبَ بِيُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى لِسَانِ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عِندَ إِفْطَارِ الصَّائِم بأَنَّهُ حَيّ يُرْزَق ، فَصَلَّى ثَلَاثَ ركعاتٍ ، وكانَ خُرُوج يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَطْنِ الحُوت كالفرخ حِينَ اشْتَبَكَتْ النُّجُوم وَغَابَ الشَّفَق ، فَصَلَّى أَرْبَع ركعاتٍ » (٢) .

فجعل الله هَذِهِ الصَّلوات ، فى هـذه الأوقات ، تَمْحِيصاً للسَّيِّئَات ، وكفَّارات للخَطِيئَات ، ورفعـة للدَّرجات ، وجمع لهذه الأُمة ما تفرق للأنبياء عَلَيهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبلهم من الكرامات ، فناهيك من شَرَف تَخصَّصَت به الأُمَّة المحمَّدِيَّة فى الأرضين والسَّموات ، وبه تم الطَّرف الثانى .

* * *

---

(١) وهذا الحديث غير ثابت ، ورُويت منه أجزاء (٢) وهذا حديث غير ثابت .

الطَّـرَفُ الثَّالِثُ
ثَمَـرَاتُ القُـرُبَاتِ

القُرُبَات وإنْ تَعَدَّد نوعُها ، واتَّحدَ حُسنها ، فإنَّ حاصلُها يؤُول إلى استعْطَاف المِلِكُ الجَلِيل وإقباله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ على عَبِدِهِ بإنالة العَطَاء الجزيل ، وإزالة التَّعرُّض له باعتراض المخالفة إلى الإلقاء فى العَذَاب الوبيل ، ولكل عِبَادَة ثمرة منها تجنى ، ونتيجة عليها تُنشأ ومنها تُبنى ، فمن تَدَبَّر معانى القُربات ، ظفر فى عمله بأرفع الدَّرَجَات .

ولَمَّا كان القَصْدُ منَّا إلى مقاصد الصَّلاة ذكرنا ما يتعلَّق بها من الثَّمرات : فلها ثمراتٌ عاجلة فى الدنيا ، وآجلة فى الآخرة ، فذلك نوعان :

النَّـوعُ الأَوَّلُ : الثَّمَـرَاتُ الْعَـاجِلَة :

وَهِيَ سَـبْعَةُ عَشَـر :

الأُولَى : حقْن الدَّم عن سَفْكِه بفعلها[1] ، واخْتَلَفَ العُلَمَاء فى قَتْلِ

---

(١) وهذا خلاف عريض بين العلماء ، ولقد بَسطه النَّووى فى شرح مسلم (٤٣٠/٢) بسطاً شافياً فقال (رحمه الله) : (وأما تارك الصَّلاة فإن كان منكراً لوجوبها فهوكافر بإجماع المسلمين خارج من ملَّة الإسلام إلَّا أن يكون قريب عهد بالإسلام ولم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه ، وإن كان تركه تكاسلًا مع اعتقاده وجوبها كما هو حال كثير من الناس فقد اختلف العلماء فيه ، فذهب مالك والشافعى رحمهما الله والجماهير من السَّلف والخلف إلى أنه لا يكفر بل يفسق ويستتاب ، فإن تاب وإلَّا قتلناه حدًّا ، كالزانى المحصن ، ولكنه يُقتل بالسيف ، وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر وهو مروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل رحمه الله وبه قال عبد الله بن المبارك ، وإسحاق بن راهويه وهو وجه لبعض أصحاب الشافعى رضوان الله عليه ، وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزنى صاحب الشافعى رحمهما الله أنه لا يكفر ولا يقتل بل يعزر ويحبس حتى يصلّى ، واحتج من قال : بكفره بظاهر الحديث الثانى المذكور وبالقياس على كلمة التوحيد ، واحتج من قال : لا يقتل بحديث : =

تاركها ، فمذهب الشافعى (1) ومالك (2) قَتْلُهُ حَدًّا ، ومذهب أحمد (3)

= « لا يحل دم امرىء مسلم إلَّا بإحدى ثلاث ... » وليس فيه الصلاة ، واحتج الجمهور على أنه لا يكفر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ... ﴾ [النساء / 116] ، وبقوله ﷺ : « من قال : لا إله إلَّا الله دخل الجنة » ، وبقوله ﷺ : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلَّا الله دخل الجنة ، ولا يلقى الله تعالى عبد بهما غير شاك فيحجب عن الجنة » ، ولقوله ﷺ : « حرَّم الله على النار من قال : لا إله إلَّا الله » .. وغير ذلك ، واحتجوا على قتله بقوله تعالى : ﴿ ... فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة / 5] ، وقوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلَّا الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم » ، وتأولوا قوله ﷺ : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » على معنى أنه يستحق بترك الصلاة عقوبة الكافر وهى القتل ، أو أنه محمول على المستحل ، أو على أنه قد يؤول به إلى الكفر ، أو أن فعله فعل الكفار ، والله أعلم) انتهى كلامه .

(1) هو : محمد بن إدْريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السَّائب بن عبيد بن هاشم ابن عبد المطلب بن عبد مَناف بن قُصىّ بن كِلاب بن مُرة ، صاحب المذهب المعروف ، عالم عصره ، ناصر الحديث ، فقيه المِلَّة ، أبو عبد الله القُرشىّ ، المكىّ الغزى المولد ، ثم المصرى الوفاة ، تُوفى سنة (204 هـ) .

انظر : تهذيب الكمال (1161/3) ، وتقريب التهذيب (143/2) ، وصفة الصفوة (248/2) ، ووفيّات الأعيان (565/1) ، والنُّجوم الزَّاهرة (172/2) ، وتهذيب التهذيب (25/9) ، وتذكرة الحفَّاظ (329/1) .

(2) هو : إمام دار الهِجْرَة ، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك أبى عامر بن عمرو بن الحارث المدنى ، حليف بنى تيم ، من قُريش ، صاحب المذهب المعروف ، عالم الحجاز ، وقيل فيه : هل يُفْتَى ومالك فى المدينة ؟ تُوفى سنة (179 هـ) .

انظر : تهذيب الكمال (1296/3) ، وتقريب التهذيب (223/2) ، وسير أعلام النبلاء (48/8) ، ووفيات الأعيان (555/1) ، وتذكرة الحفاظ (193/1) ، وتهذيب التهذيب (5/10) ، والنجوم الزاهرة (96/2) ، وطبقات الفقهاء (42) ، والطبقات الكبرى (168/9) .

(3) هو : إمام أهل السُّنَّة والجماعة ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد ابن إدريس بن عبد الله الذُّهلى ، الشَّيْبانى المَرْوَزى ، ثم البغدادى ، أحد الأئمة الأربعة وصاحب المذهب المعروف ، ابتلى فى محنة خلق القرآن ، فَثَبَّتَه الله ، تُوفى سنة (241 هـ) .

انظر : تهذيب الكمال (35/1) ، وتقريب التهذيب (14/1) ، ووفيات الأعيان (47/1) ، وطبقات الحنابلة (3 - 11) ، وطبقات الحفاظ (17/2) ، وسير أعلام النبلاء (177/11) ، وتهذيب التهذيب (72/1) ، والنجوم الزاهرة (304/2) ، وشذرات الذهب (96/2) .

قَتْلهُ كُفْراً ، ومذهب أبى حنيفة [1] إيلامه بالضَّرب المُوجع والحبس الطَّويل حتى يُصَلِّى .

الثَّانى : شَرَفهُ بِطَاعة مَولاه ، وامتثال أمره بإجَابَة نِدَائِه بقرع بابه لما دَعَاه .

الثَّالثة : أمنه من الله وإدخاله فى خفارته ، وقد ورد من حديث الحسن[2] عن جُنْدب بن سفيان[3] (رضى الله عنه) عن النَّبىّ ﷺ قال : « مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِى ذِمَّةِ الله فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فى ذِمَّتِهِ »[4] أخرجه الترمذى .

---

(١) هو : إمام أهل العراق ، وفقيه الملَّة ، أبو حنيفة النُّعْمَان بن ثابت بن زوطى التَّيْمىّ الكوفىّ ، ولد فى حياة صِغار الصَّحابة ، ورأى أنس بن مالك ، عُنى بطلب الآثار ، والنَّاس عيالٌ عليه فى الفقه والرأى ، تُوفى سنة (١٥٠ هـ) .

انظر : تهذيب الكمال (١٤١٥/٣) ، وتهذيب التهذيب (٤٤٩/١٠) ، وتقريب التهذيب (٣٠٣/٢) ، ووفيات الأعيان (٢١٥/٢) ، وطبقات الفقهاء (٦٧ ، ٦٨) ، والنجوم الزاهرة (١٢/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣٩٠/٦) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢١٦/٢) .

(٢) هو : الحسن بن أبى الحسن (يسار) ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت ، كان سيد أهل زمانه علماً ، وعملًا ، كان تام الشَّكل مَليح الصُّورة ، كان من الشُّجعان ، المَوْصوفين ، ومن أَعلم النَّاس بالحلال والحرام ، « ثقة فقيه فاضل مشهور » ، تُوفى سنة (١١٠ هـ) .

انظر : سير أعلام النبلاء (٥٦٣/٤) ، وتهذيب التهذيب (٢٦٣/٢) ، وتقريب التهذيب (١٦٥/١) ، والطبقات الكبرى (١١٤/٧) ، والميزان (٤٨٣/١) .

(٣) هو : الصحابى الجليل أبو عبد الله جُنْدب بن عبد الله بن سفيان البَجَلىّ العَلَقِى ، نَزَلَ الكُوفة ، والبصرى ، وكان يقول : « تعلَّمنا الإيمان قبل القرآن ، ثم تَعَلَّمْنَا القرآن فازددنا إيماناً » ، عاش وبقى إلى حُدود سنة (٧٠ هـ) .

انظر : تهذيب الكمال (٢٠٥/١) ، وتهذيب التهذيب (١١٧/٢) ، وتقريب التهذيب (١٣٤/١) ، وسير أعلام النبلاء (١٧٤/٣) ، والطبقات الكبرى (٢٢/٦) ، والإصابة (٥٠٨/١) ، والاستيعاب (٢٥٦/١) ، وأسد الغابة (٣٦١/١) .

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم (١٦٤/٥) ، والترمذى (٢٢١) ، وأحمد (٣١٣/٤) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢٥٠/٥) ، والبيهقى (٤٦٤/١) ، وغيرهم من حديث جُنْدب به نحوه ، وروى من حديث أبى بكر ، وأبى هريرة ، وابن عمر ، وأنس وغيرهم . =

الرَّابعة : اتِّخَاذ العَهْد عِنـدَ الله كما ورد فى حديث عبادة بن الصَّامت[1] (رضى الله عنه) قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقـول : « خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى العِبَادِ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ شَيْئاً مِنْهُنَّ اسْتِخْفَافاً بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاء أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ »[2] أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه .

الـخَامِسَة : بَسْـط الرِّزق وسِعَته كما قال الله تعالى : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّـلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً[3] نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ...** ﴾[4] .

السَّادِسَة : انتهاؤه بفعلها عن الفَحْشَاء والمُنكر كما قال الله تعـالى : ﴿ ... **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ... ﴾[5]، ومعنى الآية من

= قال : المباركفورى فى تحفة الأحْوَذِى (٢/١٤) :

« (فهو فى ذِمَّة اللَّه) أى فى عهده وأمانِهِ ، فى الدنيا والآخرة ... (ولا تُخْفِرُوا اللَّه فى ذِمَّته) ، قال فى النِّهاية : خَفرتُ الرجل أجرته وحَفِظْتهُ ، وأَخْفرت إذا نَقَضْت عَهْدَهُ ، وذِمَامَهُ ... » .

(١) هو : الصَّحابى الجليل ، أبو الوليد الأنْصَارى ، ابن قَيْس بن أَصْرم بن فهر بن ثَعْلَبَة بن غنم ابن عوف بن الخَزْرَج ، أحد النُّقباء ليلة العقبة ، ومن أعيان البدريِّين ، سكنَ بَيْت المقدس ، وذلك عندما وجهه عمر إلى الشام قاضياً ، ومعلماً ، تُوفى بالرَّمْلة ، وقيل : ببيت المقدس ، تُوفى فى خلافة معاوية سنة (٣٤ هـ) .

انظر : شذرات الذهب (١/ ٤٠) ، والطبقات الكبرى (٣/٩٣) ، وتقريب التهذيب (٢٩٢) ، وتهذيب التهذيب (٥/١١١) ، والبداية والنِّهاية (٣/١٥٠) .

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود (١٤٢٠) ، والنسائى (٤٦١) ، وابن ماجه (١٤٠١) ، وأحمد (٥/٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢) ، ومالك فى الموطأ (١٢٣) ، والبيهقى (١/٣٦١ ، ٢/٨ ، ٤٦٧ ، ١٠/٢١٧) ، والحميدى (٣٨٨) ، وأبو نعيم (٥/١٣١) وغيرهم من حديث عبادة بن الصامت به نحوه .

(٣) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ : « يعنى إذا أَقَمْتَ الصَّلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب » ، وقال الثَّوْرىّ : « لا نُكلِّفك الطلب » .

(٤) سورة طه ، الآية (١٣٢) .

(٥) سورة العنكبوت ، الآية (٤٥) .

حيث الظَّاهر : أنَّ الصَّلاة الكاملة هي التي بهذه الصِّفة كقوله (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [1] أي كامل الإيمان ، ويحتمل أن يريد نفس فِعْل الصَّلَاة عندَ قِيَام الدَّاعي إلى فعلها ينهى عن ذلك لأنه مثار الدَّاعي من الخوف والخَشْيَة ومهما وجدا نهياً عن المخالفة .

السَّابعة : التَّطْهير من الخَطَايا بفعلهن لحديث أبي هريرة [2] (رضي الله عنه) وسيأتي .

الثَّامنة : المشاركة لأهل الجنَّة في خِصَال خَصَّهُم الله بها في الجنَّة وهي سبعة :

الأُولى : أهل الجِنَان في ضِيَافَة الرَّحمن ، والمصَلِّي كذلك لحديث ورد عنه (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) قال : « مَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا لِلَّهِ فَهُوَ ضَيْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » [3] ، وكان عليٌّ

---

(١) (متفق عليه) وهو جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٢٤٧٥ ، ٥٥٧٨ ، ٦٧٧٢ ، ٦٨١٠) ، ومسلم (١٠٠ ، ١٠٥) ، وأبو داود (٤٦٨٩) ، والترمذي (٢٦٢٥) ، والنسائي (٤٨٧٠ ، ٤٨٧١ ، ٤٨٧٢ ، ٥٦٥٩ ، ٥٦٦٠) ، وابن ماجه (٣٩٣٦) ، وأحمد (٣٧٦/٢) ، والبيهقي (١٨٦/١٠) ، وأبو نعيم (١٦٤/٣ ، ٣٢٢ ، ٢٥٧/٨) ، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به .

(٢) هو الصَّحابي الجليل أبو هريرة الدَّوْسِي اليماني ، اختلف في اسمه على أقوال أرجحها : عبد الرحمن بن صَخر ، وكان حِفْظُهُ من معجزات النُّبوة ، اشتهر بالحِفْظ والزّهد والوَرع ، وكان يقول : نشأتُ يتيماً وهاجرتُ مسكيناً وكنتُ أجيراً ، ولي البحرين لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، تُوفِّي في سنة (٦٠ هـ) .

انظر : الطبقات الكبرى (١١٧/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٥٧٨/٥) ، وصفوة الصفوة (٦٨٥/١) ، وتقريب التهذيب (٦٨٠) ، وتهذيب التهذيب (٢٦٢/١٢) ، والبداية والنهاية (١٠٣/٨) ، وحلية الأولياء (٣٧٦/١) وحديثه : « أرأيتم لو أنَّ نَهراً بباب أحدكم يَغْتسل منه ... » .

(٣) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصفهان (٢٦٦/٢) بلفظ : « من أتى المسجد فهو زائر الله ، ... » وفيه عمر بن حبيب القاضي ، كذَّبهُ ابن معين ، وضعفه غيره . ورُوِي ما فيه نَحْو ذلك من أحاديث صحيحة .

ابن الحسين[1] (رضى الله عنهما) يقول إذا دخل المسجد : « إلٰهى عَبدُك ببابك ، ضَيفُك ببابك ، سَائِلُك ببابك » .

وثانيها : أَنَّ لأهل الجنَّة الرِّضوان من المَلِك الدَّيَّان لقوله تعالى : ﴿ ... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... ﴾[2]، وقال (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ) : « أَوَّلُ الْوَقْتِ رِضْوَانُ اللَّهِ »[3].

وثالثها : أَنَّ لأهل الجنَّة المغْفِرَة، وكذلك المصَلِّى نقل عن عَلِىٍّ (رضى الله عنه) فى قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾[4]. قال : « هو الصَّف الأول » .

ورابعها : أَنَّ لأهل الجنَّة مُناجاة الله والمصلِّى يُنَاجى ربه كما ورد فى الحديث : « فَلْيعْلَمْ مَنْ يُنَاجِى »[5].

وخامسها : أَنَّ أهل الجنَّة يُسَلِّمُ الله عليهم بقوله : ﴿ ... سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[6]، وكما قال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ

---

(١) هو : أبوالحسين ، زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، كان ثقة مأموناً كثير الحديث ، ولم يكن للحسين عقبٌ إلَّا من على بن الحسين ، قُتِل مع أبيه سنة (٩٤ هـ) ودُفن بالبَقِيع .

وانظر : البداية والنهاية (١٠٣/٩) ، وسير أعلام النبلاء (٣٨٦/٤) ، وصفوة الصفوة (٩٣/٢) ، والطقبات الكبرى (١٥٦/٥) ، وتقريب التهذيب (٤٠٠) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (٧٢) .

(٣) (إسناده هالك) ورُوِى بلفظ : « الوَقْتُ الأول من الصَّلاة رضوان الله ، الوقت الأول رضوان الله ... » أَخرجه الترمذى (١٧٢) ، والدَّارقُطْنى (٢٤٩/١) ، والبَيْهَقِى (٤٣٥/١) ، وابن عَدِىّ (٢٦٠٦/٧) ، وفيه يَعْقُوب بن الوليد ، ضعفه ابن معين ، وكذَّبه أحمد ، والذَّهبى وسائر الحفَّاظ ، فالإسناد هالك به .

(٤) سورة آل عمران ، الآية (١٣٣) .

(٥) (صحيح) أخرجه أبو داود (١٣٣٢) ، وأحمد (٩٤/٣) من حديث أبى سعيد ، ومالك فى الموطأ (٨٠/١) ، وأحمد (٣٤٤/٤) ، والبيهقى (١٢/٣) من حديث البياضى ، والطبرانى فى الأوسط (٤٧٥٧) ، والحاكم (٢٣٥/١ ، ٢٣٦) من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) .

(٦) سورة الزمر ، الآية (٧٣) .

سَلَامٌ ... ﴾ (١) ، والمصلى يُسَلِّمُ عليه بقوله : « السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ » (٢) ، ويختم الصَّلاة بالتَّسليم ويقول قبل أن يَتَكلَّم ما كان رَسُولُ الله ﷺ يقوله : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَام ، وَمِنْكَ السَّلَام ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ والإِكْرَام » (٣) .

وسادسها : القُرب من الله فى الجنَّة ، والمصلِّى كذلك لقوله تعالى : ﴿ ... **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ (٤) ، ولقوله (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ) : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِن رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » (٥) . والقُرب مِنَ الله ، هو قُرب الانبساط ليسَ بِقُرب البِسَاط ، قال الله تعالى : ﴿ ... **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ (٦) .

وسابعها : أَنَّ مُفتتح أهل الجنَّة الحَمْد وختامهم كذلك كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ** ... ﴾ (٧) ، ثم قال : ﴿... **وَقُضِىَ**

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٤٤) .

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٨٣١ ، ٨٣٥ ، ١٢٠٢ ، ٦٢٣٠ ، ٦٢٦٥ ، ٦٣٢٨ ، ٧٣٨١) ، ومسلم (٤٠٢) ، وأبو داود (٩٦٨) ، والترمذى (٢٨٩) ، والنسائى (١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ...)وابن ماجه (٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢) ،وأحمد (٤١٣/١ ، ٤٢٣ ، ٤٣٧) ، والطبرانى (٥٥/٣/١) ، والبيهقى (١٤٨/٢) ، وغيرهم من حديث ابن مسعود (رضى الله عنه) به .

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم (٥٩٢) ، وأبو داود (١٥١٢) ، والترمذى (٣٠٠) ، والنسائى (١٣٣٨) ، وابن ماجه (٩٢٤) ، وأحمد (٦٢ ، ١٨٤ ، ٢٣٥) ، والبيهقى (١٨٣/٢) ، وغيرهم من حديث عائشة (رضى الله عنها) به ، إِلَّا الترمذى أخرجه من حديث ثوبان به .

(٤) سورة العلق ، الآية (١٩) .

(٥) (صحيح) أخرجه مسلم (٤٨٢) ، وأبو داود (٨٧٥) ، والنسائى (١١٣٧) ، وأحمد (٤٢١/٢) ، والبيهقى (١١٠/٢) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) به .

قال صاحب عَوْن المعبود (١٢٨/٣) :

« أى هو فى السجود أقرب من ربه منه فى غيره ، والمعنى أقرب أكوان العبد وأحواله من رضا ربه وعطائه وهو ساجد » .

(٦) سورة قٓ ، الآية (١٦) . (٧) سورة الزمر ، الآية (٧٤) .

بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ ... وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] ، والمصلِّى يفتتح كل ركعة بالحَمْد ، وهذه الجملة من نِعَمِ الله التى تَفَضَّل بها فى هذه الدَّار على من أقام الصَّلوات بحدودها ، وأدام الرَّغبات بين يديه ، وراعَى جميل مقصودها ، فهذه جملة شارك المصلى فيها أهل الجنَّة .

التَّاسعة : التَّنَعُّم بمحادثة الله ومكالمته ، فهو يَتَنَعَّم بالتلاوة فى الصَّلاة كما يَتَنَعَّم أهل الجنَّة بكلام الله ، فقد ورد فى الحديث : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِفَاحاً لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ »[3] .

العاشرة : شُغل النَّفس عن تفرغها فى استيلاء الفِكر عليها بغلبة سُلطان الهَوَى على العَقْل وضَربها بِسَوْطِ الخَوْف من القيام بين يدى الله تعالى على مثل تلك الحالة من الذِّلَّة والخُضُوع والآهية والمسْكَنَة بتعفير الوجه حتى تجيب إلى ما أراده منها من ملازمة الأدب فى الخدمة ، وتَنْشِيط ما فتر منها من العزمة ، فتتمرن على ذلك ولا تتكلف فعله عند المطالبة لها بالإقدام عليه ، وبه تَمَّت ثمرات الصَّلاة العاجلة .

* * *

(١) سورة الزمر ، الآية (٧٥) .

(٢) سورة يونس ، الآية (١٠) .

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٦٥٣٩ ، ٧٤٤٣ ، ٧٥١٢) ، ومسلم (١٠١٦) ، والترمذى (٢٤١٥) ، وابن ماجه (١٨٥) ، وأحمد (٢٥٦/٤ ، ٣٧٧) ، والبيهقى (١٧٦/٤) ، والطبرانى (٨٢/١٧) ، وغيرهم من حديث عدى بن حاتم (رضى الله عنه) به .

النَّـوْعُ الثَّانى : الثَّمَـرَات الآْجِـلَة :

وَهِـىَ عَشـرَةٌ :

الأُولى : الخَلَاص من العَقَبات الخَمْس المذكورات فى الطرف الأَول .

الثَّانية : أَنَّ النَّار لا تأكل موضع السُّجُود كَرَامَة له .

الثَّالثة : التَّمكن من السُّجود يوم العَرْض فى قوله تعالى كما أخبر عن الكفَّار : ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ** ﴾[1] . والمعنى : أَنَّهُ سأل منهم السُّجود وهو بالصَّلاة فَتَكَبَّروا وَأَبَوْا عن الإِجابة للدَّاعى فى الدُّنيا ، فسأل منهم السُّجُود فى الآخرة فأُجابوا فمنعوا من فعله عُقُوبَة لهم فى الآخرة على التَّكبُّر فى الدُّنيا بِعَدَم الإِجَابة كما قال الله تعالى : ﴿ ... **وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ** ﴾[2] ، يعنى : فيأبون مع السَّلامة والتَّمكن من الفِعْل ، فعندَ مُعاينة العطب والأَهْوَال أَجَابُوا فما مكنوا ، ومن حديث عطاء بن يسار[3] عن أبى سعيد[4] (رضى الله عنهما) قال : سمعتُ النَّبىَّ ﷺ يقول : « يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ

---

(١) سورة القلم ، الآية (٤٢) .

(٢) سورة القلم ، الآية (٤٣) .

(٣) هو : أبو محمد الهِلَالى عَطاء بن يَسَار المدنى ، مولى مَيْمُونة بنت الحارث الهلالية زوج النبى ﷺ ، ثقة ، فاضل صاحب خطب ومواعظ .

وانظر : تهذيب الكمال (٩٣٨/٢) ، وتهذيب التهذيب (٣١٧/٧) ، وتقريب التهذيب (٢٣/٢) ، والميزان (٧٧/٣) ، وسير أعلام النبلاء (٤٤٨/٤) ، والعبر (١٢٥/١) .

(٤) هو : الصحابى الجليل المجاهد سعد بن مالك بن سِنَان بن ثَعْلبة بن عبيد بن الأَبْجَر بن عوف بن الحارث بن الخَزْرَج ، واسم الأبجر خُدْرة ، ولم يكن أحد من صِغار الصحابة أَعْلم منه ، تُوفى سنة (٧٤ هـ) .

انظر : تهذيب الكمال (٤٧٣/١) ، وتهذيب التهذيب (٤٧٩/٣) ، وتقريب التهذيب (٢٨٩/١) ، وأسد الغابة (٣٦٥/٢) ، والاستيعاب (٦٠٢/٢) ، والإصابة (٧٨/٣) .

فِى الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً وَاحِداً »[1] أخرجه البخارى فى التفسير وهو مختصر من حديث الرؤية .

الرَّابعة : مُضاعفة الخمس بالخمسين وفاء بِوَعْد الله للعِبَاد حين فرض عليهم الصَّلوات ، فقال لرسوله محمد (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ) بعد مراجعته له ليلة الإِسراء : « قَدْ أَمْضيت فَرِيضَتِى وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِى هى خَمْس وَهُنَّ خَمْسُونَ »[2] .

الخامسة : الشَّفَاعَة فى النَّجَاة من عَذَاب القَبْر وَعَذَاب النَّار ابتداء ، والخروج من النَّار انتهاء . روى عن أبى بكر الصِّدِّيق[3] (رضى الله عنه) أنه قال : « إِذَا حَضَرَت الصَّلَاة قَالتْ المَلَائِكَة يا بنى آدَمَ قُومُوا فَأَطْفِئُوا نِيرَانكُم الَّتِى أَوْقَدتم » ، وقد ورد أنَّ الصَّلَاة تَنْفَع وتدفع عنه العَذَاب ، وأنها تحول بينه وبين لهب النَّار ، وكذلك أعمال البِرّ كلها .

السَّادسة : رفعة الدَّرجات فى الجنَّة .

السَّابعة : وِرَاثَة الفِرْدَوس من الجنَّة كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْس ... ﴾[4] .

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٤٩١٩ ، ٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) ، وأحمد (١٦/٣) ، والحاكم (٥٨٢/٤) ، وابن خزيمة (١١٥) ، وأبو عوانة (١٦٩/١) ، وغيرهم من حديث أبى سعيد الخدرى به نحوه .

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٣٨٨٧) ، ومسلم (١٦٢) ، والنسائى (٤٤٨) ، وابن ماجه (٢١٣) ، وأحمد (٢٠١/١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٧٢ ، ٤٢٢ ، ...) ، وابن خزيمة (٣٠١) من حديث أنس بن مالك .

(٣) هو : الخليفة الأوَّل بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى قُحافة ، عُثمان بن عامر بن عَمْرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مُرة ، هو الصديق الذى صدق النبى ﷺ حين كذَّبَهُ النَّاس ، وهو رفيق النَّبى ﷺ فى الدنيا والآخرة ، وعتيق الله من النار ، تُوفى سنة (١٣ هـ) .

وانظر : تهذيب الكمال (٧٠٩/٢) وتهذيب التهذيب (٣١٤/٥) ، وتقريب التهذيب (٤٦٦) ، وأسد الغابة (٣٠٩/٣) ، والاستيعاب (٣ - ٩٦٣/٤) ، والإصابة (١٦٩/٤) .

(٤) سورة المؤمنون ، الآيتان (١٠ ، ١١) .

الثَّامنة : الأمن من الفَزَع الأكبر .

التَّاسعة : نُور الوَجْه عَلَامَة لهم فى الجنَّة على شرفهم ورفعة درجتهم .

العَاشرة : اختصاصهم بباب من أبوابِ الجنَّة يدخُلُون منهُ قد أَعَدَّهُ اللَّهُ للمُصَلِّين .

فهذه ثَمَرات مطلوبة ولو تتبَّعنَا جميع الثَّمرات لأطَلْنَا ، فلنقتصر على ما ذكرنا ، ولنتبع ذلك بحديث رويناه وقع لنا جامع لخصال جُعِلَتْ عُقُوبة لتاركها تحذيراً من تَهَاونه بفعلها ليجمع بين التَّرغِيب والتَّرهِيب حتى يُقْبِلَ العبد على الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ فى صَلَاتِه بِقَلْبٍ مُنِيب .

روينا من حديث عَامِر الشَّعبى [(١)] قال : أخبرنى أبو جحيفة واسمه وَهْب بن عبد الله [(٢)] عن عَلِيّ [(٣)] (رضى الله عنه) عن النَّبى ﷺ أنَّه قال : « مَنْ تَهَاوَن بِصَلَاتِهِ فَإِنَّ الله يُعَاقِبهُ بِخَمْس عشرة خصْلَة : سِتٌ منها فى الدُّنْيَا ، وَثَلَاث عِندَ الْمَوْت ، وَثَلَاث فى القَبْر ، وَثَلَاث وَقْت خُرُوجِهِ مِنَ

(١) هو : عَامِر بن شراحيل الشَّعْبى ، أبوعمرو ثِقَةٌ مشهور فقيهٌ فاضلٌ . قال مَكْحُول : « ما رأيتُ أفْقه منه وكان يقول : ما كتبتُ سوداءَ فى بَيْضاء ، ولا حَدَّثَنِى رجل بِحَدِيثٍ إلَّا حَفِظْتُهُ ، ولَا حَدَّثَنِى رَجُل بحديث فأَحْبَبْتُ أن يُعِيدَهُ » ، تُوفى بعد المائة .

انظر : تهذيب الكمال (٦٤٣/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢٩٤/٤) ، والطبقات الكبرى (١٧١/٦) ، وشذرات الذهب (١٢٦/١) ، والوافى بالوفيات (٥٨٧/١٦) ، والحلية (٣١٠/٤) .

(٢) هو : وَهْب بن عبد الله بن أبى دُبَى ، الهُنائِىّ ، الكُوفِىّ وقد يُنسب لجدّه ، وهو ثِقة ، ويُقال : « ابن أبى الأسود » ، ووثقه ابن معين والعَجْلونى .

وانظر : تهذيب الكمال (١٤٧٩/٣) ، تهذيب التهذيب (١٦٤/١١) ، وتقريب التهذيب (٣٣٨/٢) ، والجرح والتعديل (١٠١/٩) ، ومعرفة الثقات (١٩٥٤) .

(٣) هو : أمير المؤمنين ، أبو الحسن على بن أبى طالب بن عبد المطلب ، ويُكَنَّى بأبى تراب ، شهد المشاهد كلها ، ولم يَتَخَلَّفْ إلَّا فى غَزْوَة تَبُوك ، وكان غزير العِلم ، صاحب اللواء فى الحروب ، تُوفى سنة أربعين ، ودفن بالكُوفة فى قصر الإمارة ، وغُيِّب قَبْرُه .

انظر : صفوة الصفوة (٣٠٨/١)، وشذرات الذهب (٤٩/١) ، وتقريب التهذيب (٤٠٣) ، والطبقات الكبرى (١٠٠/٢) ، والبداية والنهاية (٢٢٢/٧) ، وغاية النهاية (٤٢٥/١) ، والحلية (٣١٤/١) .

القَبْر ؛ فَأَمَّا السّت الَّتِى فى الدُّنْيَا : فَيرْفَعُ عَنهُ اسم الصَّالِحِينَ ، والثَّانِيَة يُرْفَع عنهُ بَرَكَة الحَيَاة ، والثَّالِثَة يُرْفَع عَنهُ بَرَكَة الرِّزْق ، والرَّابِعَة لَا يقبل منهُ شىء مِنْ أَعْمَالِ الخَيْر ، والخَامِسَة لا يُسْتَجَاب دُعَاؤُه ، والسَّادسَة لا يجعل لهُ فى دُعَاءِ الصَّالِحِين نَصِيبٌ ؛ والثَّلَاث الَّتِى عِندَ المَوْت : فَإِنَّهُ يَمُوتُ عَطَشاً فلو صُبّ فى حلقِهِ ماء سَبْعَة أَبْحُرٍ ما روى ، والثَّانية يَمُوتُ بَغْتَةً ، والثَّالثة كَأَنَّهُ ثَقل بِحَدِيدِ الدُّنيا ؛ والثَّلَاث الَّتِى فى القَبْر : فأَوَّلها يُظْلِمُ عَلَيْهِ القَبْرُ ، والثَّانِيَة يَضِيقُ عليهِ القَبْرُ ، والثَّالثة تسيل عينيه باكواء ؛ والثَّلاث الَّتِى عندَ خُرُوجِهِ مِنَ القبر : يَلْقَى الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ ، والثَّانية تكون مُحَاسَبتهُ شديدة عَظِيمَة ، والثَّالثة رُجُوعه مِنْ بين يَدِى رَبِّهِ إِلَى النَّار إِلَّا أَنْ يَعْفُو عنهُ »[١]. قُلت : فإذا كان المتهاون بها جَزَاؤُه هذه الخِصَال ، فالمحافظ عليها تنعكس هذه الخصال الذَّميمة فى حَقِّه جيِّدَة فيكتب اسمه فى الصَّالحين ويرزق البركة فى الحياة والرِّزق إلى ما عددناه من تلك الخصال الباقية .

ومن شَرَف الصَّلَاة أنَّ العَبد يُحْبَس عِندَ الوصُولِ إلى الجنَّة ، فإن كانت تَامَّة أطلق ، روى مقسم[٢] عن ابن عباس[٣] (رضى الله عنهما) :

---

(١) (باطل) ذكره ابن عِراق فى تنزيه الشريعة (١١٣/٢) وقيل فى الميزان : « حديث باطل رَكَّبَه محمد بن على بن العباس على أبى بكر بن زياد النَّيْسَابُورى ، وقيل فى اللسان · هو ظاهر البطلان من أحاديث الطُّرُقِيَّة » اهـ .

قال الذهبى فى الميزان (٩٩/٥) : « محمد بن على ... رَكَّبَ على أبى بكر ... حديثاً باطلًا فى تارك الصَّلاة » .

(٢) هو : مِقْسم بن بُجْرة ، ويقال : نَجْدة ، أبو القاسم مولى عبد الله بن الحارث ، ويقال له : مَوْلى عبد الله بن عباس ، صدوق كان يُرسل ، تُوفى سنة (١٠١ هـ) .

وانظر : تهذيب الكمال (١٣٦٩/٣) ، وتهذيب التهذيب (٢٨٨/١٠) ، وتقريب التهذيب (٢٧٣/٢) ، والميزان (١٧٦/٤) ، واللسان (٣٩٧/٧) ، وتاريخ الثقات (٤٣٨) .

(٣) هو : حَبْرُ الأُمَّة ، وإمام التفسير ، أبو العباس عبد الله بن العَبَّاس بن عبد المطلب (شيبة) ابن هاشم ، واسمه عمرو بن عبد مَنَاف بن قُصى بن كِلاب بن مُرَّة القرشىّ الهاشمى المكىّ ابن عم النبى ﷺ ، قال : مسح النبى ﷺ على رأسى ودعا لى ، تُوفى سنة (٦٧ هـ) . =

« أَنَّ على جسر جهنم سبع محابس يسأَل العبد عند أولها عن شهادة أن لَا إِلَه إِلَّا الله ، فإن جاء بها تامَّة جاز إلى الثانى فيسأل عن الصَّلاة ، فإن جاء بها تامَّة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة ، فإذا جاء بها تامَّة جاز إلى الرابع فيسأل عن الصَّوم ، فإن جاء به تامًّا جاز إلى الخامس فيسأل عن الحجّ ، فإن جاء به تامًّا جاز إلى السادس فيسأل عن العُمْرَة ، فإن جاء بها تامَّة جاز إلى السابع فيسأل عن المظالم ، فإن خرج منها وإلَّا يقال : انظروا ، فإن كان له تطوع أكمل به أعماله ، فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة .

ومن شرفها أنها شفاء روينا من حديث مجاهد [1] عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ فى حديث فيه : « فَصَلِّ فَإِنَّ فِى الصَّلَاةِ شِفَاءً » أخرجه ابن ماجه [2] وبه تم الطرف الثالث .

* * *

= انظر : تهذيب الكمال (٦٩٨/٢) ، وتهذيب التهذيب (٢٧٦/٥) ، وتقريب التهذيب (٤٢٥/١) ، وأسد الغابة (٢٩٠/٣) ، والاستيعاب (٩٣٣/٣) ، والإصابة (٣٢٢) .

(١) هو : شيخ القراء ، والمفسرين أبو الحَجَّاج المكيّ ، الأسود مَوْلى السَّائب بن أبى السَّائب المخزومى ، ويقال : مولى عبد الله بن السائب القارئ ، رَوَى عن ابن عباس فأكثر وأطاب ، تُوفى سنة (١٠٢ هـ) .

انظر : تهذيب الكمال (١٣٠٥/٣) ، وتهذيب التهذيب (٤٢/١٠) ، وتقريب التهذيب (٢٢٩/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤) ، والميزان (٤٣٩/٣) ، والحلية (٢٧٩/٣) .

(٢) (إسناده ضعيف) أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٨) ، وأحمد (٣٩٠/٢ ، ٤٠٣) ، والعقيلى فى الضعفاء (٤٨/٢) ، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٧١/١ ، ١٧٢) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة ، وفيه أبو المنذر (ذُؤاد بن علية) ، وهو ضعيف ، وانظر الميزان (٢٢٢/٢) ، وتهذيب التهذيب (٢٢١/٣) ، وفى التقريب : (ذَوّاد بن عُلْبَة : ضعيف) .

الطَّـرَفُ الـرَّابِـعُ

فَضْـلُ الصَّـلَوات عَـلَى كُلِّ الْعِبَادَات

قد قامت أدِلَّة الكتاب والسُّنة على أفضلية الصَّلوات ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى دعا العباد إلى فعلها في جميع الأَوقات إلَّا ما خص بالنهى عنه من الساعات (١) فقال تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ...﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾(٤) ، ولشرفها عند الله سأل إبراهيم (عليه السلام) ربه أن يجعله مصليًا فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ... ﴾(٥) ، وفي الصحيح المتفق عليه من رواية أبي هريرة (رضى الله عنه) قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْساً مَا تَقُولُونَ ذَلِكَ يُبْقِى مِنْ دَرَنِهِ شَيْء ؟ قَالُوا : لَا يُبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً ، قَالَ : فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ

---

(١) ورد النهى عن الصلاة بعد صلاة الصبح حتى تَطْلع الشمس ، وعند طُلوعها حتى ترتفع قَدْرَ رُمح ، وعند استوائها حتى تميل إلى الغروب ، وبعد صلاة العصر حتى تغرب ، ... وعن عمرو بن عَبْسة قال : « قلت : يا نبيّ الله ! أخبرنى عن الصلاة ؟ قال : صَلِّ صلاة الصبح ثم اقْصرْ عنِ الصلاة حتى تَطْلع الشمس وترتفع ؛ فإنَّها تَطْلع بين قَرْنَىْ شَيْطان وحينئذ يسجد لها الكفَّار ، ثم صلِّ فإنَّ الصَّلاة مشهودةٌ محضورةٌ حتى يَسْتقلَّ الظِّلُّ الرُّمح ، ثم اقصرْ عنِ الصلاة ، فإن حينئذٍ تُسْجَر جَهَنَّم ، فإذا أقبل الفَيْىء فَصَلِّ فإنَّ الصلاة مشهودةٌ محضورةٌ حتى تُصَلِّى العصر ، ثم اقصرْ عنِ الصلاة حتى تَغْرب ؛ فإنَّها تَغْرب بين قَرْنَىْ شَيْطان وحينئذ يَسْجُد لها الكُفَّار » (رواه مسلم ، وأحمد) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٢٣٨) .

(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان (١ ، ٢) .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية (٩) .

(٥) سورة إبراهيم ، الآية (٤٠) .

الْخَطَايَا »[1] ، وورد من حديث ثوبان[2] (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْمَلُوا وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ »[3] وهذا الحديث من رواية ثوبان فيه مقال فى الانقطاع والاتصال[4] . ومعنى « لن تحصوا » : أى لن تطيقوا الاستقامة فى أعمالكم دواماً ، فإن ذلك مشقّة على النفوس . فدل الكتاب والسُّنة على فضيلة الصلاة مطلقاً ، ودل حديث ثوبان على أن الصلاة أفضل الأعمال والمراد بذلك أفضل الأعمال البدنية لأنها مقصورة على ذات

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٥٢٨) ، ومسلم (٦٦٨) ، والترمذى (٢٨٦٨) ، والنسائى (٤٦٢) ، وأحمد (٣٧٩/٢) ، والدارمى (٢٦٧/١) ، والبيهقى (٣٦١/١ ، ٦٢/٣) وغيرهم من حديث أبى هريرة به نحوه .

وفى الفتح (١٥/٢) قال ابن العَرَبى : « وجه التمثيل أن المراد كما يَتَدَنَّسُ بالأَقْذار المحسوسة فى بَدَنِه وثيابه ويُطَهِّره الماء الكثير ، فكذلك الصَّلوات تُطَهِّر العبد عن أقذار الذّنوب حتى لا تبقى له ذنباً إلَّا أسقطته » .

وقال ابن حَجَر فى الفتح (١٦/٢) : « وظاهره أن المراد بالخطايا فى الحديث ما هو أعم من الصغير والكبير ، لكن قال ابن بَطَّال : يُؤخذ من الحديث أن المراد الصَّغائر خاصة » .

(٢) هو : مَوْلى النبى ﷺ سُبِىَ من أرض الحجاز ، فاشتراه النبى ﷺ ، وأعتقه فلزم النبى ﷺ ، وصحبه وحفظ عنه كثيراً من العلم ، يُكَنَّى أبا عبد الله ، ويقال : أبا عبد الرحمن ، وقيل : هو يَمَانِىّ ، واسم أبيه بَجْدَر ، وقيل : بُجْدَر ، تُوفى سنة (٥٤ هـ) .

وانظر : تهذيب الكمال (١٧٦/١) ، وتهذيب التهذيب (٣١/٢) ، وتقريب التهذيب (١٢٠/١) ، وأسد الغابة (٢٩٦/١) ، والاستيعاب (٢١٨/١) ، والإصابة (٤١٣/١) .

(٣) (صحيح) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧) ، وأحمد (٢٧٦/٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢) ، والدارمى (١٦٨/١) ، والطبرانى فى الصغير (٤) ، والحاكم (١٣٠/١) ، وقال : صحيح ... ، ولست أعرف له علَّة يُعَلُّ بمثْلها ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى (٤٥٧/١) ، وغيرهم من حديث ثَوْبان به .

(٤) أمَّا الانْقِطَاع بين سالم بن أبى الجَعْد ، وثَوْبَان فقد رُوى الحديث موصولاً من طريق أبى كَبْشة السّلولى أنَّه سمع ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول : « سددوا واعملوا وخيروا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » .

أخرجه الدارمى (١٦٨/١) ، وأحمد (٢٨٢/٥) ، والطبرانى فى الكبير (٧٢/١) ، وروى من طُرق أُخرى .

المكلف [1] لا تتعدى عنه إلى سواه فيما يترتب على فعلها من الثواب .

سَبَبُ تَسْمِيَةِ الصَّلَاةِ بِهَذَا الاسم [2] :

فإنْ قلت : لم سميت الصلاة صلاة ؟ قلت : أما من حيث الاشتقاق لفظاً فإن فى ذلك وجوهاً :

أحدها : من التصلية ، وهى التقويم من قولهم : صَلَّيْتُ العُودَ بالنار : أى قومته فكأنها تُقَوِّمُ العبد عما كان فيه من الاعوجاج بالمخالفة .

وثانيها : من الصِّلة للعبد بربه عند طاعته له بفعلها إذ بفعلها يصل وبتركها ينقطع ، روى عن جابر [3] (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » [4] .

وثالثها : أنَّ العبد يصل بتركها إلى النار .

---

(١) أى أن الصلاة لا تقبل إلَّا ممن يقوم بها بجوارحه ، وأبدانه ، فلا يجوز أن يُصلِّى شخصٌ ما نِيابة ، أو طمعاً فى وصول الثواب إلى أُمّه أو أبيه أو ... كالحج والصدقة ، ولنْ يَنَال من ذلك إلَّا التَّعب .

(٢) **الصلاة** : تعنى الدعاء ، ولأهل الاشتقاق ثلاثة أقوال : قيل : لما فيها من الدعاء ، وقيل : لرفع الصَّلاة فى الركوع ، وهو مَغْرِزُ الذَّنَبِ من الفرس ، وقيل : لما فيها من الخشوع واللين ، يقال : صليتُ العود بالنَّار إذا لَيَّنْتُه ، المصلى يلين ، ويخشع « النظم المستعذب (٥١/١) » ، وقد قيل : إن الصلاة مشتقة من الصَّلوين ، وهما عظما الورك « المغنى (٧٥/١) » .

(٣) هو : الصَّحابى الجليل جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرَام بن ثَعْلَبة بن حرام بن كعب بن غنم بن سَلَمة ، أبو عبد الله ، وقيل : أبو عبد الرحمن الأنْصَارى الخَزْرجى السَّلمى المَدِينى ، من أهل بيعة الرّضوان ، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتاً ، عاش حتى ذهب بصره وشاخ ، تُوفى سنة (٧٨ هـ ، وقيل : ٧٧ هـ) .

انظر : تهذيب الكمال (١٧٩/١) ، وتهذيب التهذيب (٤٢/٢) ، وتقريب التهذيب (١٢٢/١) ، وأسد الغابة (٣٠٥/١٣) ، والاستيعاب (٢١٩/١) ، والطبقات الكبرى (٥٦١/٣) .

(٤) (صحيح) أخرجه بهذا اللفظ الترمذى (٢٦٢٠) ، وأبو داود (٤٦٧٨) ، وابن ماجه (١٠٧٨) ، وأحمد (٣٧٠/٣) ، والبيهقى (٣٦٦/٣) ، وغيرهم من حديث جابر به .

وأخرجه مسلم (٨٢) ، وأحمد (٣٨٩/٣) ، والبيهقى (٣٦٦/٣) ، من حديث جابر بلفظ : « بين الرَّجُل وبين الشِّرك أو الكفر تَرْك الصَّلاة » .

ورابعها : لأنه يصل بفعلها إلى الجنَّة ، روى عن على (رضى الله عنه) أنه قال : « هل تدرون لم سميت الصلاة صلاة ؟ قالوا : لا يا أمير المؤمنين . قال : لأن العبد يصل بها إلى الجنة » .

وخامسها : لأن العبد إذا قام فيها وصل وجهه بوجه الله ، أى استقبله ، روى فى الحديث الصحيح : « لَا يَتْفُلْ أَحَدُكُمْ قِبَلَ وَجْهِهِ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ »[1] ، ويروى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن[2] (رضى الله عنه) أنه قال : الصلاة سميت صلاة لاستقبال العبد بوجهه وجه الله تعالى .

وسادسها : سميت صلاة لمواصلة الله العبد بتعهده بنعمه عند فعلها كما قال تعالى : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ...** ﴾[3] .

أَسْبَابُ التَّفْضِيل :

ولما كانت الصلاة تجمع متفرقاً من القُربات من الطَّهارة واستقبال القِبْلَة والدُّعاء والثَّناء والقراءة والتسبيح ، كانت أكثر ثواباً وأعظم أجراً ، وأكبر عند الله فى العمل قدراً ، لأنَّه اجتمع فيها ما لا يجتمع فى غيرها ، ولا سيما إن قارن ذلك الخشوع والخضوع والحضور فى فعلها فإنها تزكو بذلك ثمرتها وتظهر بركتها اعتبار فيه أسرار ، لها أنوار ، واختيار فيه لنعم الله آثار .

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٤١٢ ، ٤١٣) ، ومسلم (٥٥١) ، والبيهقى (٢٩٢/٣) ، ومن حديث أنس بمعناه ، ومسلم (٥٤٧) ، من حديث ابن عمر بلفظ متقارب .

(٢) هو : أبو سَلَمة بن عبد الرحمن بن عَوْف بن عبد بن الحارث بن زُهْرة بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب القرشى الزهرىّ ، الحافظ ، أحد أعلام المدينة ، تُوفى أبوه وهو صبى ، وثَّقهُ أبو زُرْعة ، وابن سعد ، تُوفى بالمدينة (٩٤ هـ) .

وانظر : التهذيب (١١٥/١٢) ، وتهذيب التقريب (٤٣٠/٢) ، وطبقات الحفاظ (٢٣) ، وسير أعلام النبلاء (٨٧/٤) ، والطبقات الكبرى (٣٢٣/١٥) .

(٣) سورة طه ، الآية (١٣٢) .

الْخُشُـــوع فِى الصَّـلَاة

اعلموا أنَّ الصَّلاة جسد والإخلاص روحه والحضور مع الله قلبه وسره ، فمن لا إخلاص له فلا عمل له [1] ، ومن لا حضور له فلا كمال فى الثواب يحصل له ، كما ذم الله فاعل ذلك : ﴿ ... **وَلَا يَأْتُونَ الصَّـلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى** ... ﴾ [2] ، وكما ورد فى الحديث : « يُكْتَبُ لِلْمَرْءِ مِنْ صَلَاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا » [3] ، وكما ورد أيضاً : « تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِينَ يَقْعُدُ أَحَدُكُمْ حَتَّى إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ قَامَ فَنَقَره أَرْبَعاً لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا قَلِيلًا » [4] . فمن لم يكن مخلصاً فى صلاته حاضراً بقلبه مع مولاه فى أفكاره ، فى حركاته وسكناته ، فى صلاته فقد عرض نفسه لفوات مقصود الصلاة ولا إشكال أن

---

(١) وذلك لقول النبى ﷺ : « إنَّما الأعمال بالنيات » ، فالإخلاص هو مقياس الإثابة على العمل ، وكم من عمل قليل عظَّمَتْهُ النِّية ، وكم من عمل كبير جعلته النِّية هباءً منثوراً ، وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب (٩) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (٥٤) .

(٣) (معناه وارد) قال العراقى فى تخريج الإحياء (٢٨٥/١) : « حديث ليس للعبد من صلاته إلا ما عَقَل » ، لم أجده مرفوعاً ورَوَى محمد بن نصر المَرْوَزى فى كتاب الصلاة ، من رواية عثمان ابن أبى دَهْرش مرسلًا : « لا يَقْبل الله من عبد عملًا حتى يشهد قلبه مع بدنه » ، ورواه الدَّيْلميّ فى مسند الفِرْدوس من حديث أبى بن كعب ، ولابن المبارك فى الزّهد موقوفاً على عمّار : « لا يُكتب للرجل من صلاته ما سهى عنه » .

قال السُّبكى فى طبقات الشَّافعية (٢٩٤/٦) : « لم أجد له إسناد » .

قلت : ومعناه وارد فى أحاديث كثيرة ، منها ما رواه أبو داود ، وابن حبان ، والنسائى من حديث عمار : « إن الرجل لينصرف وما كُتب له إلا عُشْر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ... » الحديث .

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم (٦٢٢) ، وأبو داود (٤١٣) ، والترمذى (١٦٠) ، والنسائى (٥١١) ، وأحمد (١٤٩/٣ ، ١٨٥ ، ٢٤٧) ، ومالك (٢٢٠) ، وعبد الرزاق (٢٠٨٠) ، وأبو عوانة (٣٦٥/١) ، وغيرهم من حديث أنس به نحوه .

أحوال العبد منظورة ؛ فمنها ما هو عادة كالسّعى فى طلب المعاش المحصل لقيام البنية المعين على القوة المعينة على العبادة ، وهذا هو مثار الغفلة ومداعى الشهوة ، فاغتفر ذلك لأجل الضرورة الداعية له إذ لا غنى للأجساد الحيوانية عن تناول المواد الحافظة لبقائها بأخذ الأَغذية ، ومنها ما هو عبادة فينبغى أن يخالف فيها ما كان عليه من العادة ويتوجه لله تعالى مخلصاً بقلبه وقالبه ، فإذا كان وقته فى حياته معموراً بهاتين الخصلتين فقد تعرض للجمع بين شرف الرتبتين .

اشْتِمَالُ الصَّلَاة عَلَى أَنْوَاع مِنْ عِبَادَاتِ الأَنْبِيَاءِ وَالْـمَلَائِكَة :

ولما كانت الصلاة تشتمل على أنواع من عبادات الأنبياء والملائكة (عليهم الصلاة والسلام) ، والقيام بأمر الله تعالى كان لها شرف على غيرها :

فأولها : التكبير وبه يقع الامتثال للأمر فى قوله تعالى : ﴿ ... **وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً** ﴾ [(١)] ، وبالاستفتاح يقع التأسى بالخليل (صلوات الله وسلامه عليه) فى قوله : ﴿ **إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِي** ... ﴾ [(٢)] ، وبالتعوذ بنوح (عليه الصلاة والسلام) فى قوله : ﴿ ... **أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ** ... ﴾ [(٣)] ، وبيوسف (عليه الصلاة والسلام) فى قوله : ﴿ ... **مَعَاذَ اللَّهِ** ... ﴾ [(٤)] ، وبموسى (صلوات الله عليه وسلامه فى قوله : ﴿ ... **أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْـجَاهِلِينَ** ﴾ [(٥)] ، وبمريم (عليها السلام) : ﴿ ... **إِنِّى أَعُوذُ بالرَّحْمٰنِ مِنكَ** ... ﴾ [(٦)] ، وبأمها فى قولها : ﴿ ... **إِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا** ... ﴾ [(٧)] ،

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (١١١) .
(٢) سورة الأنعام ، الآية (٧٩) .
(٣) سورة هود ، الآية (٤٧) .
(٤) سورة يوسف ، الآية (٢٣) .
(٥) سورة البقرة ، الآية (٦٧) .
(٦) سورة مريم ، الآية (١٨) .
(٧) سورة آل عمران ، الآية (٣٦) .

وبالبسملة فى قول نوح عند ركوب السّفينة : ﴿ ... **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا** ... ﴾[1] ، وبسليمان (صلوات الله عليه وسلامه) فى كتابه إلى بلقيس : ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾[2] ، وبالحمد بآدم (صلوات الله عليه وسلامه) فى قوله لما عطس: الحمد لله، وبقراءة شىء من القرآن ولو آية وافق الملائكة فى قوله تعالى : ﴿ **فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً** ﴾[3] وبالقيام بزكريا فى قوله الحق : ﴿ ... **وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَاب** ... ﴾[4]، وبالركوع داود فى قوله تعالى : ﴿ ... **وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ** ﴾[5] ، وبالسجود جميع الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ، ومن اصطفاه الله وهداه وارتضاه واجتباه فى قوله تعالى : ﴿ ... **إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا** ﴾[6] ، وبالتسبيح الملائكة فى قوله تعالى : ﴿ ... **سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا** ... ﴾[7] ، والتشهد بمحمد ﷺ ليلة المعراج ، وبالصلاة على النبى ﷺ الامتثال لما أمر الله به منها فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ... ﴾[8] ، وبالسلام على اليمين والشمال الأمن من العقوبة بالاتباع والقضاء لحق من عن يمينه وشماله من المصلين والملائكة المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ ... **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ** ﴾[9] .

* * *

---

(١) سورة هود ، الآية (٤١) . (٢) سورة النمل ، الآية (٣٠) .

(٣) سورة الصافات ، الآية (٣) . (٤) سورة آل عمران ، الآية (٣٩) .

(٥) سورة صٓ الآية (٢٤) ، والمراد بالركوع هنا السجود ، قال ابن كثير : (٤/٣٠) : « وخر راكعاً » أى ساجداً .

(٦) سورة مريم ، الآية (٥٨) . (٧) سورة البقرة ، الآية (٣٢) .

(٨) سورة الأحزاب ، الآية (٥٦) . (٩) سورة قٓ ، الآية (١٧) .

اشْتِمَالُ الصَّلَاةِ عَلَى أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْس :

والصلاة قد جمعت مبانى الإسلام فى قوله (عليه الصلاة والسلام) : « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ »[1] من شهادة التَّوحيد فى التشهد الذى هو خاتمتها ووسطها ، ومن الحجّ الذى هو القصد[2] ، والصلاة من شرطها القِبْلَة ، فهو قصد إلى البيت بالتوجه ، ومن الزكاة التى هى تنقيص من الأموال بتنقيص الأبدان بالأفعال بالحركات ، ومن الصوم بالإمساك عن المفطرات فإنَّ المصلى ممنوع عنها ، ومن الجهاد بالمشقَّة فإنَّ المصلى لنفسه مجاهد ولشيطانه محارب ، ويقال : إنما سُمِّىَ المحراب مِحْرَاباً لمحاربة الشيطان بإقامة الصلاة فيه[3] .

فلما اشتملت هذه الصلاة على هذه المعانى من الاقتداء بالملائكة والنبيين وصالحى المؤمنين والامتثال لأمر رب العالمين ومبانى الإسلام التى عليها مدار

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٨) ، ومسلم (١٦) ، والترمذى (٢٦٠٩) ، والنسائى (٥٠٠١) ، وأحمد (٢٦/٢ ، ٩٣ ، ١٢٠) ، والبيهقى (٣٥٨/١ ، ٨١/٤ ، ١٩٩) ، والحميدى (٧٠٣) ، والطبرانى (٣٧١/٢) ، وغيرهم من حديث ابن عمر به .

(٢) **الحجّ** : هو القصد فى اللغة .

أمَّا فى الشرع : فهو قصد مخصوص إلى البيت الحرام لأداء مناسك مخصوصة ، وكون الصلاة تشتمل على عبادة الحج هذا فيه نوع من التكلف ، إذ ربما يقول : إنها تشتمل على عبادة التيمم الذى هو القصد أيضاً ، حتى ولو لم يكن المصلى متيمماً ، ومثله ما بعده الزكاة والصيام (المراجع) .

(٣) لم أجد أصلًا لهذا التعليل .

وأصل المحراب : المكان الرفيع ، والمجلس الشريف ، لأنه يدافع عنه ، ويحارب دونه ، وقيل : محراب الأسد لمأواه ، ويسمى القصر ، والغرفة محراباً ، قال :

رَبَّةُ محـراب إذا جئتهـا لم ألقهـا أو أرتقى سُلَّما

قال ابن الأنبارى عن أحمد بن عبيد : سمى محراباً ، لانفراد الإمام فيه وبعده عن القوم ، ومنه يقال : هو حرب لفلان إذا كان بينهما تباعد وبغض ، ويحتمل أن يكون محراباً ، لأن الإمام إذا قام فيه لم يأمن أن يلحن أو يخطئ ، فهو خائف ، فكأنه مأوى الأسد . انظر : (النظم المستعذب لابن بطال ٧٤/١ ، ٧٥ ، ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة) (المراجع) .

الدِّين كانت أجدر بالفضيلة ، وأولى بتحصيل الوسيلة ، وقد حرص النبى ﷺ على فعلها فقال فيما رويناه من حديث على (رضى الله عنه) قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ »(١) ، وفى الحديث الصحيح : « وَالصَّلَاةُ نُورٌ »(٢) : أى ينور القلب بفعلها أو يؤول أمر فاعلها إلى النور يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ ... نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ... ﴾(٣) أو ينور وجه فاعلها فى الدنيا كما ورد فى الحديث : « مَنْ صَلَّى بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ »(٤) فلأجل ذلك قدمها الخواص على جملة الأعمال ، ومن هنا قال ﷺ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلَاةِ »(٥) ، والمعنى : أنها سكنت عن أن تمتد إلى النظر إلى سواها من القرار وهو السُّكون عن الحركة إلى زهرة الدنيا وزينتها اشتغالاً بما قامت فيه لذائذ المناجاة لله دل عليه قوله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ... ﴾(٦)

---

(١) (إسناده ضعيف) أخرجه القُضَاعى فى مسند الفِرْدَوس (١٨١/١) من حديث على ابن أبى طالب به ، وفيه ابن لَهيعة ، وهو يحتاج لمتابعة إذا حدَّث عنه غَيرُ العبادلة ، ورَوَى أحمد والبزار قوله : « الصلاة قربان » .

وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٠/٥) : « ورجالهما رجال الصحيح » .

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم (٢٢٣) ، والترمذى (٣٥١٧) ، والنسائى (٢٤٣٧) ، وابن ماجه (٢٨٠) ، والدارمى (١٦٧/١) ، وأحمد (٣٤٢/٥ ، ٣٤٤) ، وغيرهم من حديث أبى موسى الأشعرى به .

(٣) سورة التحريم ، الآية (٨) .

(٤) (ليس بحديث) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣) ، واتفق أئمة الحديث على أنه من قول شريك لثابت بن موسى وهو من أنواع الحديث المدرج .

(٥) (صحيح) أخرجه النسائى (٣٩٣٩) ، وأحمد (١٢٨/٣ ، ١٨٥ ، ١٩٩) ، والحاكم (١٦٠/٢) ، وابن عدى (١١٥٠/٣ ، ١١٥١) ، وغيرهم من حديث أنس به .

وقال السِّنْدىّ فى حاشيته على سنن النسائى (٦١/٧) : « بَلْ هو مع تلك المحبة مُنْقطع إليه تعالى حتى أنَّه بمناجاته تَقَرّ عَيْناه ، وليس له قريرة العين فيما سواه ، فَمَحَبَّتُهُ الحقيقية لَيْستْ إلَّا لخالقه تبارك وتعالى » .

(٦) سورة الحجر ، الآية (٨٨) .

الآية ، ثم قال : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً ... ﴾[1] الآية ، أو أَنَّ معناه : أن السرور إنما هو فى الصلاة ، لأن العرب إذا دعت لشخص تقول : أقر الله عينك بمعنى أزال الله عنها الحرارة ، وإذا دعت عليه تقول : أسخن الله عينه بمعنى جعلها حارة فكانت عينه (عليه الصلاة والسلام) بالصلاة قريرة لما يجد فيها من لذيذ مؤانسته فى مناجاته وشغله بما هو فيه من التوجه للقيام فى خدمة مولاه ، وبه تم الطرف الرابع .

* * *

(١) سورة طه ، الآية (١٣٢) .

الطَّـرَفُ الـخَامِس
القُـرُبَاتُ وَالْـحِكَمُ الْـمُتَعَلِّقَـةُ بِهَـا

إن الله غنيٌّ عن العالمين فيما يتقرَّبون به من القُربات [١] المالية [٢] والبدنية [٣]، وإنَّما شرعها ابتلاءً وامتحاناً لهم كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْـمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [٤] ، أى المجاهدين أنفسهم على إقامة ما وضعتهُ عليهم والصابرين عن شهواتها الدَّاعية إلى المخالفات ، وارتكاب المنهيات والمحظورات ، فإذن موضوع قواعد العبادات وأنواع القُربات مخالفة العادات ، ومباعدة الغفلات ، قصداً للقرب من جناب خالق الأرض والسموات ، وطمعاً فى إقباله الرافع للدرجات بكثرة الحسنات ، والمراد بالتقرب وجود القرب من إحسانه وجوده ، ونيل المطلوب من إفضاله على الصادق له فى مقصوده ، وذلك من خصائص عباده الواقفين على بابه النازحين بتقواهم لله فى أسرارهم عن مداناة عناية محبتهم له بأن يجعلهم من أحبابه فيعاملهم معاملة حقير ضعيف تقرب إلى عظيم قوى بالانقياد والذُّل لعزَّته وعَظَمَتِه ، والاعتماد على تقديم جلاله فى قلبه وسِعَة نعمته ورحمته . وأمَّا القرب من ذاته فمستحيل لأنَّ اعتبار قطع المسافات بالقُرب والبُعد من الغايات [٥]، من صفات الأجسام المستعدة

---

(١) قال صاحب القاموس الفقهى (٢٩٨) : « القُرْبة : ما يُتَقرب به إلى الله تعالى من أعمال البر والطاعة ، والجمع قُرَب ، وقُرُبات » ، وعند الحنفية : « فعل ما يثاب عليه بعد معرفة من يُتقرب إليه به ، وإن لم يتوقفْ على نِيَّة » .

(٢) **القُربات المالية** : كالزَّكاة ، والصَّدقة . (٣) **القُربات البدنية** : كالحج والصَّلاة .

(٤) سورة محمد ، الآية (٣١) .

(٥) هذا فيه تعطيل بعد تشبيه ، وإنما ينبغى أن يقال : « إن أثبت الله قرباً للعبد منه ، أو منه للعبد آمنَّا به على ما جاء وأثبتنا ما أثبته الله وسكتنا عما سكت عنه وهو الكيفية فنقول : هو قرب لا يعلمه إلَّا الله ، مع مراعاة نفى المثلية عنه سبحانه ، فنحن نؤمن بكل ما ثبت من الصفات =

لقبول التركيب والتحليل والآفات ، والحق سبحانه وتعالى منزه عن هذه الحالات ، لأن من شرط ثبوت الإلهية وجود الكمال ، وانتفاء النقائص فى الحال والمآل ؛ فإذن قربه من الموجودات يقع إطلاقه باعتبارين :

أحدهما : قرب علم ومشاهدة [(١)]، وعموم قهر فيها مانع لها عن معاندة ، كما فى قول الحق : ﴿ ... **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [(٢)]، فالموجودات على اختلاف أجناسها وأنواعها ، ومباينة طباعها ومفاوتة أوضاعها من جماد ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، كلها مؤتمرة بأمره ، مندرجة تحت قهره ، قد أحاط علماً منها بما لحق وسبق ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ** ... ﴾ [(٣)] وكلها آمة لجهة قصده ﴿ ... **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ... ﴾ [(٤)]، وقال تعالى لمن فهم إبهامه بالأمر وتصريحه : ﴿ ... **كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** ... ﴾ [(٥)] فمن ألهم فهماً وعلم حكماً ، استقرأ أسراره فى موجوداته ، واعتبر آثاره فى مصنوعاته ، وقابل كلًّا بما يليق به ، ووقف حسيراً عند سعة دوائر الموجودات ، وإحاطة علمه العلى بمراكزها المستودعات المعدودات ، وقد قال تعالى : ﴿ ... **مَا يَكُونُ**

= فى حدود ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾ ، وما خطر ببالك فالله أجل من ذلك ، وهو مذهب السلف القديم والذى لا ينبغى أن يعدل عنه ، وهو الأسلم والأعلم إن شاء الله » (المراجع) .

وفى دعوة التوحيد (ص ١٧) : « فإذا كان الله قد وصف نفسه مثلًا بالاستواء على العرش وبالمجىء يوم القيامة ... وإذا كان قد وَصَفَه رسول الله ﷺ بأنَّه يَنْزل إلى السماء الدنيا ، ويَدْنُو من الحجاج عَشِيَّة عَرَفَة ، ... ، فيجب أن يحمل ذلك كله على حقيقته دون أن يفهم منه التماثل بين الله وبين خلقه فى شىء من هذه الصفات » .

(١) وفى شرح العقيدة الواسطية (٧٨ ، ٧٩) : « إثبات صفة المَعِيَّة له – عَزَّ وَجَلَّ – وهى نوعين : **معية عامة** : شاملة لجميع المخلوقات ، فهو سبحانه مع كل شىء بعلمه وقدرته وقهره ، ... ولذلك قال : ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ** ... ﴾ [الحديد : ٤] ، **ومعية خاصة** : وهى معيته لرسله وأوليائه بالنصر والتأييد ، كقوله تعالى : ﴿ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] » .

(٢) سورة فصلت ، الآية (١١) .

(٣) سورة الملك ، الآية (١٤) .

(٤) سورة الإسراء ، الآية (٤٤) .

(٥) سورة النور ، الآية (٤١) .

مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ ... هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُواْ ... ﴾ [1] .

وثانيهما : قرب تشريف وتعريف ، بفضل وإنعام ، وعقل وإلهام ، وذلك يختص به من اصطفاه من أهل الإيمان ، وارتضاه فرقى فى مراتب الإيقان ، كما قال تعالى : ﴿ ... **وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** ﴾ [2] ، وكما قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ [3] ، وكما قال : ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ** ... ﴾ [4] ، وكما قال : ﴿ ... **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ [5] ، وكما ورد فى الحديث : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » [6] . فالقرب من العبد للرب لأنه المفتقر إليه وهو الغنى عنه كما ورد فى الحديث : « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ » [7] على قدر تمام القرب ، يكون إقبال الرب وتوجد طهارة القلب ، ويظهر شرف العبادة ، وتزكو الأعمال وإن كانت قليلة ، وفضيلة الأعمال بعضها على بعض إنما هو بحسب ما تشتمل عليه من الفوائد ، ويتصل بها من المشاق أو حسن المقاصد ، وإذا كانت فضائلها مترتبة على قدر فوائدها فأعظمها فائدة ، وأقومها عائدة ، ما هو أساس كل عبادة وقاعدتها ، وهو شرط فى صحتها ابتداءً ودواماً ، وهو الإيمان بالله والمعرفة به ، فالكافر لا يُقْبَل عمله لأنه مقيم على عمل لا يرضى

---

(1) سورة المجادلة ، الآية (٧) .
(2) سورة مريم ، الآية (٥٢) .
(3) سورة الواقعة (٨٨) .
(4) سورة الواقعة ، الآية (٨٥) .
(5) سورة العلق ، الآية (١٩) .
(6) (صحيح) تقدم تخريجه .
(7) (صحيح) أخرجه البخارى (٦٥٠٢) ، وأحمد (٢٥٦/٦) ، والبيهقى (٣٤٦/٣) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة به .

وقال ابن حجر فى الفتح (٣٥١/١١) : « ظاهره أنَّ محبة الله تعالى للعبد تقع بملازمة العبد التقرب بالنَّوافل ، وقد اسْتُشْكِلَ بما تقدم أولًا أن الفرائض أحب العبادات المُتَقَرَّب بها إلى الله ، فكيف لا تنتج المحبة ؟! والجواب : أنَّ المراد من النَّوافل ما كانت حاوية للفرائض مشتملة عليها ومكمِّلة لها » اهـ .

به الله ، قال تعالى : ﴿ ... وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ... ﴾ [1] وسخط الله عليه ولعنته له دائمة قائمة ، قال تعالى : ﴿ ... أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [2] ومع وجود السخط فلا قرب ، وقد أخبر الله تعالى بذلك ، أى الذين تفرقوا أن يشركوا بالله ويكفروا به وأن يراءوا فى أعمالهم ويقصدوا بها غير وَجْهِ الله الكريم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [3] ، والكسل غالباً يصاحبه الرِّياء لأنه إظهار خلاف ما فى الباطن لأجل مدح الغير له فإن النفس عنه نازحة غير ناشطة فى عمله ، والكسلان لا عزم له على ما شرع فيه من العمل فهو يعمله خشية من اللوم فهو يقصد بعمله وجه الله وكل عمل لا يقصد به وجه الله فهو مردود وصح من حديث أبى ذر [4] (رضى الله عنه) قال : « قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ، والْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ » [5] أخرجه مسلم وسواه . فالإيمان فى العبادات هو أساسها الذى عليه مدارها ، وقياسها الذى به ينتظم قرارها [6] . فلأجل ذلك قال

---

(١) سورة الزمر ، الآية (٧) . (٢) سورة المائدة ، الآية (٨٠) .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٥٤) .

(٤) هو : الصحابى الجليل جُنْدُب بن جُنَادة الغِفَارِىّ ، وقيل : جُنْدب بن سكن بن سفيان ابن عبيد بن حرام بن غَفَار بن مُليل بن ضَمْرَة بن بكر بن مُدلج بن مُرَّة بن عبد مَنَاف بن كنَانة ، كان خامس خمسة فى الإسلام ، تُوفى سنة (٣٢ هـ) .

وانظر : تهذيب التهذيب (٩٠/١٢) ، وتقريب التهذيب (٤٢٠/٢) ، والطبقات الكبرى (١٦١/٤) ، والاستيعاب (٦٦٤/٢) .

(٥) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٢٥١٨) ، ومسلم (٨٤) ، والنسائى (٣١٢٩) ، وأحمد (١٥٠/٥ ، ١٦٣ ، ١٧١) ، وغيرهم من حديث أبى ذرّ به .

(٦) ولذلك كان أول ما يَدعو إليه النبى ﷺ – شهادة ألَّا إله إلَّا الله – ، كما ثبتَ فى الحديث أنَّ النَّبى ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : « إنَّك تأتى قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، فإنْ هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلواتٍ فى كل يوم وليلة ، ... » الحديث .

الله تعالى تنبيهاً على شرفه وذم ضده : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾[1].

ولما انقسمتِ العبادات إلى ما فائدته قاصرة على المكلف[2] كالصَّوم والاعتكاف والحجّ والعُمرة ، وإلى ما هى متعدية[3] كالزكوات والكفارات والصدقات ، كان المتعدى منها أفضل من القاصر ، لما فيه من تكثير الفوائد وزيادة النفع ، مهما ظهر أثر التعدى ظهر وجود الفضل ، فلهذا قلنا : أفضل أعمال الأبدان بعد سبق الإيمان الصلاة إذ فوائدها متعددة من وجوه :

أحدها : الدعاء بالمصالح الدينية والدنيوية وذلك يختص بالمصلِّى .

وثانيها : الاصطفاء والتشريف بالمناجاة كما أخبر ﷺ أن المصلى يناجى ربه .

وثالثها : الثناء على الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ بما فى القوة البشرية للوفاء به من الإقبال والتوجه والذِّكر له والثناء عليه إما بإجمال وتفصيل أو بهما وذلك يقع إمَّا بِإِثْبَاتِ الكمال ، أو نفى النقص المتوهم فى الأذهان فى جميع الأحوال وقد وجد ذلك فى الصلاة واشتملت عليه .

ورابعها : ما يتعلق بالرسول ﷺ من السلام عليه فى التشهد والصلاة عليه وعلى آله وعلى أبيه إبراهيم وآله والبركة له ولهم والشهادة له بالرسالة .

وخامسها : ما يتعلق بجميع المؤمنين فى قوله : السلام علينا وعلى

---

(١) سورة طه ، الآيتان (٧٤ ، ٧٥) .

(٢) أى أن فضلها ونفعها لا يعود إلَّا إلى المكلَّف دون غيره .

(٣) **والـمُتَعَـدِّية** : وهى التى يَنتقل نفعها إلى غير المكلَّف ، **فالزَّكاوات** : يكون نفعها إلى المكلف بالثواب ، وإلى غيره عن طريق الانتفاع من هذا المال ، وكذلك **الكفارات** : وهى تكون بتحرير الرَّقبة وإِطْعام الطَّعام ، وكسوة المساكين ، وهذا فيه نَفْع للمكلَّف عن طريق إسقاط الوِزْر والعقاب عنه ، ونفع للآخرين عن طريق الانتفاع بما تحصل به الكفارات ، وكذلك الحال فى الصَّدقات .

عباد الله الصالحين ، فقد صحّ عن النبى ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِح فى السَّمَاءِ وَالأَرْض »[1].

فقد اشتملت من الفوائد القاصرة والمتعدية على ما يشهد لها بالكمال والحال ، وبه تم الطرف الخامس من المقدمة فى معنى التقربات ،

* * *

القَوْلُ فِى المَطَالِب

وَهِىَ أَرْبَعَةٌ :

المطلب الأَول فى الافتتاح بالتوجه والأَدعية والأَثنية المتعلقة بالصَّلوات ، والاقتراح للاستدعاء من كرم الله تعالى أجزل الصلات ، وفيه ثلاثة فصول :

* * *

(١) (متفق عليه) تقدم تخريجه .

الفَصْل الأوّل

أَذْكَارُ الصَّلَاة وَمَا يَحْضُرُ قَائِلُهَا مِن خُشُوعٍ

إنَّ موضوع الصَّلاة لمن تدبَّر معناها : إقامة ، وظيفة ، خدمة لملك جليل مُطاع ، مُنعم على من خُلَقَهُ وصوَّرهُ من النِّعم بعدة أنواع ، فيجدد العهد به في أوقات معهودة ليستديم إدرار نعمه عليه إذ الأغلب من صفات البشر الغفلة لما جبلوا عليه من الحرص والشهوة ، لوجود التلون فيهم والانتقال من حال إلى حال بحسب ما أُقيم فيهم من الاختلاف في تركيب الأمزجة والطبائع على المصنوع بقهر الصنائع ، فمن مقبل إلى الله بقلب مُنيب ، ومن معرض خائب بعيد من جنابه غير قريب .

وجعل تلك الخدمة على نوعين : مؤقتة بزمن [1] معين كالصلوات الخمس ، والسنن الرواتب [2] ، والعيدين ، والاستسقاء ، وغير مؤقتة كالنوافل [3] .

أما المؤقتة فسيأتي بيان الحكمة في تخصيصها بتلك الأوقات ، وأما المطلقة فإنَّها مشروعة لوجوه :

---

(١) أي بزمن معين ، لا تُقبل بعده ولا قبله إلا لعذر شرعيّ .

(٢) وفي المنهاج (٢٤٤) : « **الرّواتب** : هي السنن القبلية والبعدية مع الفرائض وهي : ركعتان قبل الظهر وبعده ، وركعتان قبل العصر ، وركعتان بعد المغرب ، وركعتان أو أربع بعد العشاء ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « ما بين كل أذانين صلاة » ، وقوله : « رحم الله امرءًا صلّى أربعاً قبل العصر » ، « وكان لا يترك أربعاً قبل الظهر » .

(٣) قال صاحب القاموس الفقهي (٣٥٨) في تعريف **النَّفل** ، **أو النَّافلة** : « هي الزّيادة لغة ، **وفي الشرع** : اسم لما شرع زيادةً على الفرائض ، والواجبات ، وهو المسمّى بالمندوب ، والمستحب ، والتطوع (الجرجاني) ، **واصطلاحاً** : ما فعله النبي ﷺ ، ولم يداوم عليه ، أي يتركه في بعض الأحيان ، ويفعله في بعض الأحيان » .

وعند الشافعية : « هو ما رجّح الشرع فعله ، وجوز تركه » .

أحـدها : رفع الدرجات ، وتكفير السيئات ، وتكثير الحسنات ، وتكميل ما نقص من الفرائض ، كما ورد في الحديث من رواية أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاَتُهُ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْئاً فَإِنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ » (1) أخرجه الترمذي وسواه .

وثانيها : تلذذ بالمناجاة ، وحصول في منزلة المباهاة ، فيمن أُقيم من الملائكة في تلك الحالات ، وشكر للنِّعم المتجددة ، والمواهب المتعددة ، وعِمَارة للقلُوب التي خُلِقَت لِذِكر الله تعالى ، وإحياء ما مات منها بتجديد العهد بخدمته ، وتأكيد الوعد من العبد بتعظيم حرمته .

وثالثها : غيرة منه على عمره أن يخسر في رأس ماله ، وهو حياته ، وأنفة منه على نفسه أن تمضي أنفاسه في غير طاعة الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ وخدمته.

ورابعها : دوام مراعاته بحضوره بين يدي مالكه فلا يشتغل عنه بسواه ، فإنه بده اللازم .

وخامسها : تسهيل عسر الموقف في الحشْر وتخفيف الحساب في دار المآب ، بتكثير الثواب .

وسادسها : محبة الله له كما ورد في الحديث : « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ

---

(1) (صحيح) أخرجه أبو داود (٨٦٤) ، والترمذي (٤١٣) ، والنسائي (٤٦٦) ، وابن ماجه (١٤٢٦) ، وأحمد (٢٩٠/٢ ، ٤٢٥) ، وغيرهم من حديث أبي هريرة به نحوه .

وقال أبو بكر بن العربي في العارضة : « يحتمل أن يكون يكمل له ما نقص من فرض الصلاة وأعدادها بفضل التطوع ، ويحتمل ما نقصه من الخشوع ، والأول عندي أظهر ، لقوله ﷺ : « ثم الزَّكاة كذلك وسائر الأعمال » ، وليس في الزكاة إلا فرض أو فضل » .

يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً » (١) ، وقد تقرر أن محبة الله هى إنعامه عليه ومعاملته له معاملة المحبوب بإيلائه لنعمه ، وصرفه عنه أنواع نقمه ، وليس التقرب بالنَّوافل هى الصلوات فحسب وإنما هى الصلاة وما كان من الأفعال يقتضى ثواباً ، وذلك شعب الإيمان الذى هو بضع وسبعون شعبة ، فإن أصل النافلة الزيادة . قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ... ﴾ (٢) فكأن المعنى لا يزال يتقرب إلى بالزيادة فى طاعته لى من الصلاة وغيرها ، والله أعلم .

الوقُوف فِي الصَّلَاة يَكُون بَيْنَ يَدى اللَّه :

فمن اصطفاه الله تعالى واجتباه ، تولَّاه بحنانه وعطفه فأقامه فى أكثر أوقاته متبتلًا لخدمته ، متوسلًا له بطاعته ، وجعل نصيبه من قيامه بين يديه بصلاته موفوراً ، وقلبه بخشية منه معمُوراً ، فإذا وقف مصلِّياً بين يديه ، مثل بين عينيه كأنه وقف بين يدى ملك جليل مُهيب ، يرجى ثوابه ، ويخشى عقابه ، لا تؤمن سطوته ، ولا تنفد نعمته ، له الجود الممدود ، والمجد الموجود ، فليلزم الأدب عند إقباله عليه ويقبل بقلبه على مواجهته بوجهه ، فإنَّه فى حضرته ، ولأجل ذلك قال ﷺ : « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلَا يَبْصُقْ وَلَا يَلْتَفِتْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قِبَلَ وَجْهِهِ » (٣) ، كما قال تعالى : ﴿ ... فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ... ﴾ (٤) : أى شهود وجوده علماً فى الصدور كما قال تعالى : ﴿ ... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ... ﴾ (٥) فليدم على هذه الحالة حتى يقضى ما عليه من وظيفة تلك الخدمة ، فليأخذ قبل الشروع فيها تطهير باطنه وظاهره . أما باطنه فبالفراغ من شواغل الدنيا وقواطعها قبل الدخول فيها

(١) (صحيح) تقدم تخريجه .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية (٧٢) .
(٣) (صحيح) تقدم تخريجه .
(٤) سورة البقرة ، الآية (١١٥) .
(٥) سورة الحديد ، الآية (٤) .

بجمع همه ، وإقباله على صلاته ، كما أخبر ﷺ عنها بقوله : « إِنَّ فِى الصَّلَاةِ لَشغْلًا »[1]، وكما قال (عليه الصلاة والسلام) : « يُكْتَبُ لِلْمَرْءِ مِنْ صَلَاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا »[2]. وأما ظاهره فبما أمر به من استكمال أعمّ الأشياء نفعاً ، وأسهلها وجوداً ، وألطفها سراية فى إزالة المستقذرات ، وأتمها نفوذاً فى إبعاد الفضلات ، من استعمال الماء فى الثوب والبَدَن وأمكنة الصلاة ، فإذا أحكم ذلك من أمره فليمش إلى مساجد الجماعات ، ليكون قاصداً إلى إجابة نداء الدَّاعى ، بتجشمه بما يجد من المشقَّة فى الحر والبرد ، مقبلًا بصحيح عزمته ، لطلب فضل الله ورحمته فى إقامة عبادته ، بصلاته فى مكان شريف ، مطهر موضوع لتلك العبادة .

الـحِكْمَـةُ مِنْ صَـلَاةِ الـجَمَاعَة وَفَضْلهَـا :

والحكمة فى شروع صلاة الجماعة وجوه :

أحـدها : وجود قيام نظام الأُلفة بين المصلين ولهذه العلة شرعت المساجد فى المحال ليحصل التعاهد باللقاء فى أوقات الصلوات بين الجيران .

وثانيهـا : حصر الأَنفس أن تستقل بهـذه العبادة وحدها فإِنَّها ربما لم تفِ بالقيام بها وحـدها ، فإِذا علمتِ انتظار جماعة توقعها فيها نشطها ذلك على المبادرة إلى فعلها ، فإِنَّ النفوس تحب البطالة وتركن إليها ، فإِذا وجدت محركاً من خارج أذعنت وأجابت .

وثالثهـا : أنَّ الناس بين عالم بأَفعال الصلاة وأحكامها وجاهل بها ، فإِذا حصل إقامتها فى الجماعة تعلَّم الجاهل من العالم فزال جهله .

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (١١٩٩ ، ١٢١٦ ، ٣٨٧٥) ، ومسلم (٥٣٨) ، وأبو داود (٩٢٣) ، وابن ماجه (١٠١٩) ، وأحمد (٣٧٦ ، ٤٠٩) ، وغيرهم من حـديث عبد الله بن مسعود به .

(٢) (معناه وارد) ، وهو من كلام عمار وتقدم الكلام عنه .

ورابعها : أنَّ الدرجات والمثوبات متفاوتة فى العمال لأَجل قبول الأَعمال وإذا كانت الجماعة حصل فيها الكامل والناقص بحسب الحضور والغفلة فيعود من بركة الكامل على الناقص فتكمل صلاته [١] ، ولأَجل هذا صح من حديث ابن عمر [٢] (رضى الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قَالَ : « صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ عَلَى صَلَاةِ الْفَرْدِ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً » [٣] ، ومن حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) بمعناه وقال فيه : « بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا » [٤] .

فإن قيل : هل يقع الفرق بين الدرجة والجزء ؟ قلنا : يحتمل أنهما سواء بدليل أنه قد ورد فى بعض الأحاديث « خمس وعشرون درجة » [٥] ويكون قال هذا فى حين لقومٍ ، وقال ذلك فى حين لآخرين ، فأعلم بما حصل من الأجزاء لكل جهة من الجماعتين ، ويحتمل أنَّ الخمس والعشرين

---

(١) وهذا غير صواب ؛ لأن الصلاة من العبادات التى لا ينتفع بثوابها إلَّا المكلَّف الذى أداها ، فلا تنتقل بركة الكامل على الناقص ، وإنما لكلٍّ أجرٌ بقدر تمامه ونقصانه ، ولقول النبى ﷺ : « إنَّ الرجل لينصرف وما كتبَ له إلَّا عُشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، ... » الحديث ، ولم يخص (بعد ذلك) النبى ﷺ صلاة الجماعة ، وما كان هناك فرق بين الخاشع وغيره ، والله أعلم .

(٢) هو : الصَّحابى الجليل عبد الله بن عُمَر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العُزَّى بن رياح ابن قُرط بن رَزاح بن عَدِىّ بن كعب بن لُؤى بن غالب ، الإمام القدوة أبوعبد الرحمن القُرشى العَدوى المكىّ ، ثم المدنى ، أسلم وهو صغير وهاجر قبل أن يحتلم ، تُوفى سنة (٧٣ هـ) .

وانظر : صفة الصفوة (١/٥٦٣) ، وحلية الأولياء (١/٢٩٢) ، وغاية النهاية (١/٤٣٧) ، تهذيب التهذيب (٥/٣٢٨) ، والتقريب (١/٤٣٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٢٠٣) ، والطبقات الكبرى (٩/١٢٠) ، وأسد الغابة (٣/٣٤٠) ، والاستيعاب (٣/٩٥٠) ، والإصابة (٤/١٨١) .

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٦٤٥ ، ٦٥٠) ، ومسلم (٦٥٠) ، وأحمد (٢/٦٢ ، ١٠٢) ، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمر بلفظ : « تفضل صلاة الفذ ... » ، وأحمد فى الثانية بلفظ : « تفضل صلاة أحدكم ... » .

(٤) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٦٤٨) ، ومسلم (٦٤٩) ، وأحمد (٢/٥٢٠) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة بألفاظ متقاربة .

(٥) وذلك فى بعض طرق حديث أبى هريرة .

أخبر بها أولًا ، ثم زاد فى الفضيلة فأخبر بالسبع والعشرين فى وقتين مختلفين ، ويحتمل عندى ـــ ولم أره مسطوراً ـــ أن الدرجة فى الجنة فكأن المصلى جماعة يرتفع على المصلى وحده سبعاً وعشرين درجة ، والجزء فى الدنيا فإنه قد ورد فى حديث أبى صالح عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « صَلاَةُ الرَّجُلِ فى جَمَاعَةٍ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِى بَيْتِهِ وَفِى سُوقِهِ خَمْساً وَعِشْرِينَ ضِعْفاً »[(١)] فيقع الجزء والضعف فى الدنيا بمعنى أنه يكون بمثابة من صلَّى خمساً وعشرين ، والدرجة فى الآخرة بمعنى أنه يرتفع على المصلى وحده سبعاً وعشرين درجة فى الجنة وبهذا يقع الجمع بين الحديثين ، والله أعلم ، وقيل : الدرجة دون الجزء ، فإذا قسمنا الخمسة وعشرين جزءًا صارت درجات سبعاً وعشرين ، وقيل : يختلف الحال بكثرة الجماعة وحال المصلى ، فإن صلَّى خاشعاً فى جماعة كبيرة فى أول الوقت بإكمال طهارتها وسترتها نال سبعاً وعشرين درجة ، وإنْ كان فى جماعة قليلة وغفلة وتأخير لها عن وقت الفضيلة نال خمساً وعشرين ، والله أعلم[(٢)] .

ثم إذا دخل المسجد فليركع ركعتين[(٣)] إن لم تكن الصلاة أُقيمت[(٤)]

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٦٤٧) ، ومسلم (٦٤٩) ، وأحمد (٢/٢٥٢) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة ، وروى معناه من حديث أبى هريرة السابق .

(٢) قال العلامة ابن حجر :

أولًا : والظاهر أن ذلك من تصرف الرواة ، ويحتمل أن يكون من التفنن فى العبارة .

ثانياً : الحكم فى هذه الأعداد غير محققة المعنى ، ولا يدرك بالرأى ، بل مرجعه إلى علم النبوة التى قصرت علوم الألباء من إدراك حقيقتها كلها كما نقله الطيب عن التوربشتى .

ثالثاً : ما نقل عن بعض العلماء فى الجمع بين رواية الخمس ، والسبع ، والأسباب المقتضية للدرجات المذكورة فيها تكلف واضح وترجيح بلا مرجح صحيح .

فتأمل هذا ولا تجر وراء كل غريب والله المستعان .

انظر : (فتح البارى ٢/١٥٤ - ١٦٠) (المراجع) .

ولقد تكلم ابن حجر فى فتح البارى (٢/١٥٥) .

(٣) لقول النبى ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » .

(٤) لقول النبى ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » .

تعظيماً لتلك البقعة وإشعاراً للنفس بالتأهب للدخول فى الفرض ، وإنْ دخل فى السَّحر وقد ضاق الوقت عن التحية أجزأته ركعتا الفجر عنها ، فإذا افتتح الصلاة بالتكبير فليحضر قلبه حالة نطقه به ما هو عليه سبحانه من الجلال والعظمة والكبرياء والقهر للموجودات حتى يمتلئ صدره من المهابة والجلالة ، فلا يشاهد كبيراً سواه فيطابق لفظه ما قد اعتقده وتصوره .

دُعَاءُ الاسْتِفْتَاح ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِن حِكَم :

وقد اختلف فى أول ما يدعو به عند الاستفتاح بحسب ما نقل عن النبى ﷺ فى ذلك ، فمنهم من اختار : « الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلًا »(1) ، ومنهم من اختار : « سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك »(2) ، ومنهم من اختار : « وجهت وجهى »(3) . فالأول فيه ثناء على الله تعالى بالكبرياء والإنعام ، وتنزيه الله جَلَّ وَعَزَّ عن النقائص ، والثانى فيه تنزيه وثناء وتعظيم ونفى للشريك ، والثالث أوعبها وهو اختيار الشافعى (رضى الله عنه) .

فقوله : « وجهت وجهى » : أى قصدت وأقبلت بوجهى على الله بعد أنْ كنت عنه غافلًا ، لاهياً ، ذاهلًا ، ساهياً فأذكرنى وشغلنى بالقيام بين يديه ، متعرضاً لما أعده من الفضل لديه وهذا هو نفس التوحيد للمعبود ،

---

(1) (صحيح) أخرجه مسلم (٦٠١) ، والترمذى (٣٥٩٢) ، والنسائى (٨٨٥ ، ٨٨٦) ، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمر به .

وأخرجه أبو داود (٧٦٤) ، وابن ماجه (٨٠٧) ، وأحمد (٨٠/٤ ، ٨٥) ، والحاكم (٢٣٥/١) ، وغيرهم من حديث جُبَير بن مطعم (رضى الله عنه) به نحوه .

(2) (صحيح) أخرجه أبو داود (٧٧٥) ، والترمذى (٢٤٢) ، والنسائى (٨٩٩ ، ٩٠٠) ، وابن ماجه (٨٠٤) ، وأحمد (٥٠/٣ ، ٦٩) ، والدارمى (٢٨٢/١) ، والبيهقى (٣٤/٢) ، وغيرهم من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ ، وروى كذلك من حديث عائشة (رضى الله عنها) به .

(3) (صحيح) أخرجه مسلم (٧٧١) ، وأبو داود (٧٦٠) ، والترمذى (٣٤٢١ ، ٣٤٢٢) ، والنسائى (٨٩٧ ، ٨٩٨) وأحمد (٩٤/١) ، وابن حبان (٤٤٥) ، وابن خُزيمة (٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٦٠٧) ، والبيهقى (٣٢/٢ ، ٣٣) ، وغيرهم من حديث على بن أبى طالب (رضى الله عنه) به .

قوله : « لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » أى قصدى مصروف إلى الذى من شأنه أنْ فطر[1] السموات ، أى شقها بالمياه نازلة والأرض ، أى بالنبات متواصلة أو شقها بأن أوجدها بعد أن كانت عدماً ، كما قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ...** ﴾[2] : أى ملتصقتين ففصلنا إحداهما عن الأخرى وإنَّما وجه وجهه لمن هذه صفته لأنَّها أعظم آية تشاهدها الأبصار فلا يتصور أن تجحد للعلم بوجودها ضرورة ، كما قَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...** ﴾[3] ، وفى ذلك من الإنابة والإجابة لقيام صفة التوحيد بالمتوجه للإلٰه الحق الذى لا يقدر على إنشاء السموات والأرض واختراعها سواه أوضح دليل ، وأرشد سبيل . ثم قال : « حَنِيفاً »[4] **الحنف** : لغة أصله الميل ، ومنه أحنف الرجل إذا مال ساقه لما يقابله من الجهة الأخرى ، والمراد هٰهنا الميل عن الدِّين الباطل إلى الدين الحق بمفارقة الأديان المباينة للإيمان المدنى من الملك الدَّيَّان ، فإن الحق سبحانه لما أبرز خلقه من طور العدم إلى طور الوجود ، رقاهم من الكرم والجود فى أطوار الوجود ، حتى عرفهم به ، وأشهدهم عظمة جلاله فى قلوبهم ، كما أخبر عنهم بقوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[5] فكأنهم لما آمنوا به ووحدوه مالوا بالعقل والرسالة عما أخرجهم عليه من النشأة الأولى التى هى الجهل إلى العلم به فوحدوه وكفروا بمن دونه ، فكانوا حينئذ حنفاء ، أى مالوا عن الباطل

---

(١) **فَطَر** : بمعنى خلق ، وصنع ، قال الضَّحَّاك : « كل شىء فى القرآن فاطر السموات فهو خالق السموات » ابن كثير (٤٦٦/٣) .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية (٣٠) . (٣) سورة لقمان ، الآية (٢٥) .

(٤) قال ابن كثير (١٦٤/١) : « أى مستقيماً قاله محمد بن كعب القُرظىّ ، وعيسى بن جارية ، وقال خصيف عن مجاهد : مخلصاً ، ورَوَى على بن أبى طلحة عن ابن عباس : حاجًا » .

(٥) سورة النحل ، الآية (٧٨) .

واستقاموا على الحق ، ثم قال : « مُسْلِماً » لما ذكر الميل وهو العدول عن الشيء أثبت صفة أُخرى تضادها وهى الاستقامة وإنما تحصل بالإسلام وهو الانقياد للأمر والنهى ، قال تعالى : ﴿ ... وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ... ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ... ﴾ (2) ، فإن حصل الانقياد فى الظاهر والباطن ، والسر والجهر ، والعسر ، واليسر ، والنشاط ، والكراهة ، والضيق ، والسعة ، كان الدين الكامل الذى خاطب الله به خلقه وهو الذى سأل إبراهيم (عليه السلام) من ربه قوله : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ ... ﴾ (3) وإن اختلف الحال ظاهراً وباطناً أو اختل شيء من أفعال الظاهر ، كترك الواجبات وارتكاب المنهيات لم يكن كاملًا كما بين الله تعالى ذلك فى قوله : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ... ﴾ (4). فمن انقاد لقضاء الله ورضى به ولأحكام الشريعة وعمل لها كان مسلماً حقًّا كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ... ﴾ (5) فأعلمنا أنَّ من انقاد لأمره ، وأذعن وأطاع بترك نهيه ، وأحسن فى فعله لنفسه ولغيره ، فقد اعتصم عن الهلاك بأوثق العُرَى ، وانتظم سلك نجاته فارتفع قدره بين الورى ، ثم قال : « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » فلم يكتف بالحنيفية والإسلام حتى نفى الشرك عن نفسه إذ من الممكن وجود الشرك مع هاتين الخصلتين فى وقت دون وقت ، فنفى وجوده عنده مع قيام تينك الصفتين ليحقق بذلك تمام توحيده وكمال إيمانه ، إذِ الشرك منافٍ للتوحيد والشرك هو إثبات الشريك والتوحيد إفراد المعبود بالإلهية .

---

(1) سورة آل عمران ، الآية (٨٣) .
(2) سورة آل عمران ، الآية (١٩) .
(3) سورة البقرة ، الآية (١٢٨) .
(4) سورة الحجرات ، الآية (١٤) .
(5) سورة لقمان ، الآية (٢٢) .

التَّوْحِيدُ وَنَفْى الشِّرك :

ثم التوحيد يتعلق بالذات والصفات والعبادات[1]، قال الله تعالى : ﴿ ... أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ... ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ... ﴾[3]، وقال تعالى : ﴿ ... وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[4]. والشرك تختلف مراتبه ، ويتصرف على وجوه وأنواع :

النوع الأول : الشرك فى الإلهية ونفى ذلك بالإقرار بأنَّه لا إلٰه غيره يعينه فى تدبير مملكته فيتبرأ من اعتقد ذلك عن النصرانية فى القول بالتثليث[5]،

---

(١) قال العلامة على بن أبى العز الحنفى فى شرح العقيدة الطحاوية (٨٩) :

ثم التوحيد الذى دعت إليه رسل الله ونزلتْ به كتبه نوعان : توحيد فى الإثبات والمعرفة ، وتوحيد فى الطلب والقصد :

فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الرّب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ، ليس كمثله شيء فى ذلك كلّه ، كما أخبر به عن نفسه ، وكما أخبر رسوله ﷺ ، وقد أفصح القرآن عن هذا كل الإفصاح .

والثانى : هو توحيد الطلب والقصد ، مثل ما تضمّنته سورة ﴿ قل يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .

وهذا باعتبار ما يجب على الموحد ، أما باعْتِبَار متعلّقة فَذَكَرَهُ فى مكان آخر حيث يقول : « فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع :

أحدها : الكلام فى الصفات .

الثانى : توحيد الرُّبوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شيء .

الثالث : توحيد الإلهية ، وهواستحقاق أن يعبد وحده لا شريك له .

(٢) سورة الرعد ، الآية (١٦) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية (١٠٠) .

(٤) سورة الكهف ، الآية (١١٠) .

(٥) **التثليث :** هو اعتقاد إلٰه خالق عظيم ، ويُشْركون معه الابن (عيسى) ، والروح القدس ، وبين الكنائس تفاوت عجيب فى تقرير هذه المفاهيم ، وربط بعضها مع بعض ممَّا يسمُّونه الأَقانيم الثلاثة ، ويفسرونه بأَنَّه وحدانية فى تثليث ، وتثليث فى وحدانية .

انظر الموسوعة الميسرة فى الأديان (٥٠٣) .

وعن الثنوية (1) ، والوثنية (2) فيمن عبد الأصنام ، وقال : ﴿ ... **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ... ﴾ (3) ، وعن المجوسية (4) فى اعتقادها أن للعالم مدبرين نور وظلمة يدبران الخير والشر .

والنوع الثانى : الشرك فى القدم (5) وينفى ذلك بالاعتراف بأنه سبق وجوده الأكوان والأزمان وأن لا قديم معه يشاركه فى علو الشأن . وقد صح عن النبى ﷺ فى حديث عمران بن الحصين (6) (رضى الله عنه) : « كان الله ولا شىء معه » (7) فيخرج بذلك عن القائلين بقدم العالم من الدهرية (8)

---

(1) **الثنوية** : هم أصحاب الاثنين الأزليين ، يزعمون أن النُّور والظُّلمة أزليَّان قديمان ، بخلاف المجوس ؛ فإنَّهم قالوا : بحدوث الظَّلام ، وذكروا سبب حدوثه ، وهؤلاء قالوا بتساويهما فى القدم ، واختلافهما فى الجوهر ، والطبع والعقل والحيز والمكان ، والأجناس ، والأبدان ، والأرواح .

انظر : الملل والنحل (٢٤٤/١) .

(2) **الوثنية** : هم عبدة الأصنام . (3) سورة الزمر ، الآية (٣) .

(4) **المجوس** : أثبتوا أصلين (النُّور والظُّلمة) ، إلا أن المجوس الأصلية زعموا : أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين ، بل النُّور أزلى ، والظُّلمة محدثة ، ثم لهم اختلاف فى سبب حدوثها ، أَمِنَ النُّور حدثت ؟ والنور لا يُحدث شرًّا جزئيًّا ، فكيف يحدث أصل الشر ؟ أم من شىء آخر ؟ ولا شىء يشرك النور فى الإحداث والقدم ؟ وبهذا يظهر ضبط المجوس .

انظر : الملل والنحل (٢٣٣/١) .

(5) وهذا كقوله (جل جلاله) : ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ** ... ﴾ [الحديد : ٣] ، وقول النبى ﷺ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَىْء » ، « كانَ الله وَلَا شَىْء قبله » .

(6) هو الصَّحابى الجليل : أبو نُجيد عمران بن حُصَيْن بن عبيد بن خلف الخُزَاعى ، قاضى الكوفة الكعبىّ ، كان ممن اعتزل الفِتْنَة ، ولم يحاربْ مع علىٍّ ، تُوفى سنة (٥٢ هـ) .

انظر : تهذيب التهذيب (١٢٦/٨) ، وتقريب التهذيب (٨٢/٢) ، والاستيعاب (١٢٠٨/٣) ، وأسد الغابة (٢٨١/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٥٠٨/٢) ، والطبقات الكبرى (١/١) .

(7) (صحيح) أخرجه البخارى (٣١٩١ ، ٧٤١٨) ، والترمذى (٣٩٤٦) ، وأحمد (٤٣١/٤) ، والبيهقى (٢/٩) ، وغيرهم من حديث عمران بن حُصين بألفاظ متقاربة .

وأخرجه بهذا اللفظ : ابن حِبَّان ، والحاكم ، وابن أبى شَيْبَة من حديث بُريدة به .

(8) **الدَّهْرية** : هم القائلون : أنَّه لا إله ولا صانع ، وأنَّ هذه الأشياء كانت بلا مكوّن ، وهؤلاء لما لم يدركوا الصانع بالحس ولم يستعملوا فى معرفته العقل جحدوه » تلبيس إبليس (٥٥) .

والفلاسفة ، وكما ثبت أن لا شريك له فى الإلهية فكذلك فى القدم .

والنوع الثالث : الشرك فى الملك والملك فى التدبير ومعالجة نفيه بالاعتراف بأنه لا مالك يتصرف فى الخلق حقيقة سواه فيتبرأ بذلك عن مقالة النفاة لعلم الله تعالى ، وإثبات الشركاء له كما كانت الجاهلية تعتقد وتقول فى تلبيتها : لبيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

والنوع الرابع : الشرك فى الصفة كالتشبيه(١) والتجسيم(٢) وينتفى ذلك بالإقرار بأنَّه غير قابل للمثلية كما أخبر عن نفسه بقوله : ﴿ ... **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾(٣) فيخرج عن المشبهة من الفرق المذمومة كالكَرَامِيَّة(٤) وغيرهم .

والنوع الخامس : الشرك فى الفعل فلا فاعل فى الوجود سوى الله تعالى على الحقيقة إذْ لو شاركه غيره لافتقر إلى معين أو لو استقل فاعل بالفعل دونه لوقع ما لا يريد ، ومن كان كذلك لا يكون إلهاً ، وكما لا شريك له فى الإلهية والقدم فكذلك لا شريك له فى إيجاد الأفعال

---

(١) **التشبيه** : ينقسم إلى قسمين :

أولاً : تشبيه المخلوق بالخالق كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم بالله ، قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ... ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وكتشبيه اليهود عزيراً بالله ، وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله .

والقسم الثانى : تشبيه الخالق بالمخلوق وذلك كتشبيه المشبهة الذين يقولون : له وجه كوجه المخلوق ، ويد كيد المخلوق ، وسمع كسمع المخلوق ونحو ذلك ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً** ﴾ [الإسراء : ٤٣] . انظر : شرح العقيدة الواسطية .

(٢) **التَّجْسِيم** : هو وضع صفات الله (أو ذاته) فى صورة حسيّة معيّنة .

(٣) سورة الشورى ، الآية (١١) .

(٤) **الكرّاميّة** : هم أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام ، وإنَّما عددناه من الصفاتية ، لأنَّه كان ممَّن يثبت الصفات ؛ إلا أنَّه ينتهى فيها إلى التَّجْسيم والتشبيه ... وهم طوائف بلغ عددهم إلى اثنتى عشرة فرقة ، وأصولها ستة : العابدية ، والتونية ، والزرينية ، والإسحاقية ، والواحدية ، أقربهم الهيصمية ، ولكل واحدة منهم رأى إلّا أنه لما لم يصدر ذلك عن علماء معتبرين ، بل عن سفهاء أغنام جاهلين لم نفردها مذهباً . انظر : الملل والنحل (١٠٨/١) .

فيخرج بذلك عن مذهب الاعتزال [1] والقدر [2]، وهما من أصعب الفكر وأعظم الخطر على البشر .

والنوع السادس : الشرك في العبادة كما نهى الله عنه بقوله : ﴿ ... **وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾ [3]، وكما قال ﷺ حكاية عن ربه : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِى فَلْيَلْتَمِسْ جَزَاءَهُ مِنْهُ » [4] وينفيه باعتقاده أن سواه لا يستحق أن يعبد فيفرده ممَّن عبد سواه واتخذ إلهه هواه وكان ممَّن ذمه الله بقوله : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ** ... ﴾ [5].

والنوع السابع : الشرك في المقاصد وينتفى بالإخلاص المميز بين الصحيح منها والفاسد وهذا هو شرك المسلمين الغالب على قلوب الغافلين

---

(١) **المُعتزلة** : وهم يُسمون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدريَّة ، والعدليَّة ، وهم قد جعلوا لفظ القدريَّة مشتركاً .

والذى يعمهم من الاعتقاد القول بأن الله قديم ، وأن كلام الله محدث ، وأن العبد قادر على خلق الأفعال خيرها وشرها .

واختلفوا فى الإمامة ، والقَوْل فيها نصًّا واختياراً ، وهم فرق كثيرة .

انظر : الملل والنحل (٤٣/١) .

(٢) **القَدَريَّة** : هم القائلون بأنَّه لا قدر ، وأنَّ الله تعالى لم يُقدر الشر ، وأن العبد يخلق فعل نفسه ، وأنَّ الله تعالى لم يشأ ما يقع من العبد ، وبعض هذه الطوائف نفى علم الله السَّابق على وجود الأشياء ، وانظر مجموع الفتاوى (٣٦/١٣) .

(٣) سورة الكهف ، الآية (١١٠) .

(٤) (صحيح) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٣) ، وأحمد (٤٦٦/٣ ، ٢١٥/٤) ، وغيرهم من حديث أبى سعد بن فضالة الأنصارى بألفاظ متقاربة .

وأخرجه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) ، وأحمد (٣٠١/٢ ، ٤٣٥) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة ولم يذكر فيه : « فليلتمس جزاءه منه » .

قال النووى (٣٢٦/١٨) : « قوله تعالى : أنا أغنى الشركاء ... » هكذا وقع فى بعض الأصول وشِرْكِهِ ، وفى بعضها وشَرِيكِهِ ، وفى بعضها وشِرْكَتِهِ ، ومعناه : أنا غنى عن المشاركة وغيرها ، فمن عمل شيئاً لى ولغيرى لم أقبله ، بل أتركه لذلك الغير ، والمراد أنَّ عمل المُرائى باطل لا ثواب فيه ويأثم به .

(٥) سورة الجاثية ، الآية (٢٣) .

المعرضين عن محاسبة أنفسهم فى أنفاسهم وحركاتهم وسكناتهم ممَّن أصمه الله وأعماه واتبع هواه فأرداه وأضله الله بعلمه وما هداه .

وللشرك تنويعات أُخرى سوى ما عينا بحسب الأقوال والأفعال والمقاصد ، فقد أتى على نفى جميعها بقوله : « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » والألف واللام على هذا للاستغراق ويحتمل أنها للعهد ، أى لست من الشرك المعهود الواقع من المعاند لله فى شىء ، بل أنا موحد لله حقًّا ، ثم قال : « إِنَّ صَلَاتِي » بدأ بالصلاة لأنها أخص العبادات المتكررة لله لاشتمالها على أنواع متعددة مجتمعة فيها ، ثم قال : « وَنُسُكِي » تلاها بالنسك ، وهو التعبد ، وقد يكون ذبحاً ويكون صلاة ، قال الله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ... ﴾[1] : أى طريقة يسلكونها موصلة إلى مقصدهم من ضلال كان أو هدى فهذا تأكيد لنفى الشرك عن عبادته ، ثم قال : « وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي » إشعار وإعلام بِأَنَّ المُلْك لله حقيقة فلا مالك يتصرف على الحقيقة غيره ، فهو تأْكيد لنفى الشرك فى الملك يعنى الحياة والممات وهما أمران لازمان لوجود الإنسان لست أملكهما من نفسى مع مصاحبتهما لى ، فكيف أملكهما من غيرى وقد نبه الله على ذلك بقوله الحق : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ... ﴾[2] فأشعرهم بهذه الآية أَنَّ الخلق كله ملك لله ، وأنه يتصرف فيه إيجاداً وإعداماً بالإبقاء والإفناء والتدبير بحسب القهر بالملك بجميع ذلك وأنَّ بداية عقولهم حاكمة عليهم جازمة جزماً أوليًا بِأَنَّ ذلك لله كما أخبر عنهم فى الآية الأُخرى بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾[3] ،

---

(١) سورة الحج ، الآية (٦٧) . (٢) سورة يونس ، الآية (٣١) .

(٣) سورة لقمان ، الآية (٢٥) .

فالآية الأُولى دلت على نفى الشرك فى الذات وَمَنْ خَلَقَ شيئاً ، واخترعه فقد اقتطعه عن غيره واختص به ملكه وسلط سلطنته عليه وحده ، ثم قال : « لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ » . فالرّب يطلق بمعان منها : المالك وهو الأليق منها هٰهنا ، وقد يكون بمعنى السيد المربى عباده بما أسبغ عليهم من نعمه وأجراه فيهم من قسمه ، والمربى أنواع الموجودات بإبرازها من عالم الخفاء إلى عالم الظهور ، وإفراغها فى قالب الكمال على أتم الوضع وغاية التناسب والاعتدال ، والعالمون جمع عالم : وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ويقال : إنَّما يطلق من الموجودات على من كان يعقل فيختص بالجن والإنس والملائكة ، قلت : ولعل القائل الأول ذهب إلى قول من قال : إنَّ بجميع الموجودات خلق فيها إدراك به تطيع وتنطق استدلالًا بظاهر قوله تعالى : ﴿ ... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ﴾ [1] ، وبقوله : ﴿ ... ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [2] ، وأول من منع ذلك أن هذا حكاية أحوالهما فى التكوين والتسخير وإيصال المنافع المعدة فيها بخلق الله تعالى لا أنه نطق يسمع ويفهم ويعبر عنه ، وللعرب فى ذلك مذهب معروف ، فلما أثنى على الله بأنه مالك لمماته ومحياه وذلك يختص به أثنى عليه بأَنَّه كما ملك ذلك منه خصوصاً ، فقد ملك الموجودات بأسرها عموماً ، أو ملك من يعقل من نوعه وجنسه ، فإنَّ ذلك أبلغ فى نهاية التعظيم للملك العظيم ، لاختصاص من يعقل بمزيد التشريف والتكريم ، ثم قال : « لَا شَرِيكَ لَهُ » : أى لا معين ولا مساعد له فى تنفيذ أحكام الربوبية ، بل هو المستحق للعبادة المستقل بإبداع السموات والأرض من غير مشارك له ، وخَصّ السماء بالذِّكر لظهور أمرها للعقول من ترتيبها بالشمس والقمر والكواكب ، وترتيب النُّور والظُّلمة فيها بتعاقب اللَّيل والنهار ونزول

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٤٤) .

(٢) سورة فصلت ، الآية (١١) .

الأمطار ، والأرض بالنَّبات ومعادن الذهب والفضة والحديد .. وغير ذلك وذلك كله مشاهد بالأبصار ، ثم قال : « وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ » : أى بالتوجه إلى الرب ، أى مَنْ شَأْنُه الإبداع والاختراع لها ، ثم قال : « وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » [1] : أى المنقادين لأمر الله فى التوجه له وهذه الجملة وإن كان إبراهيم (صلوات الله وسلامه عليه) قد قالها وقال فيها : وأنا أول المسلمين يريد فى عصره فإنَّه هو الذى سمانا بذلك كما أخبر الله تعالى عنه فى قوله : ﴿ ... سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ... ﴾ [2]، وقد صح من حديث على (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ : « فمن قاله فليقل : وأنا من المسلمين » [3] ، وبهذا الوجه أخذ الشافعى (رضى الله عنه) فى الفرض والنفل [4]، وأخذ أبو حنيفة (رضى الله عنه) بالحديث الذى فيه : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ » ، والأمر فى ذلك واسع [5]، فالتسبيح قد تقدم أنَّه التنزيه عن كل عيب ونقص ، والمعنى :

---

(١) وفى رواية : « وانا أول المسلمين » ، قال النووى فى شرح مسلم (٣٠٧/٦) : « أى من هذه الأمة » ، وللحديث بقية فانظرها فى تخريجه .

(٢) سورة الحج ، الآية (٧٨) .

(٣) (صحيح) تقدم تخريجه .

(٤) قال الشافعى فى الأم (١٢٨/١) بعد ذكر الحديث بطوله من حديث على بن أبى طالب ، وأبى هريرة : « وبهذا كله أقول وآمر وأحب أن يأتى به كما يروى عن رسول الله ﷺ لا يغادر منه شيئاً ويجعل مكان وأنا أول المسلمين وأنا من المسلمين (قال) .. فإن زاد فيه شيئاً أو نقصه كرهته ولا إعادة ولا سجود للسهو عليه عمد ذلك أو نسيه أو جهله » .

(٥) وسأعرض لك خلاصة ما قال ابن قيم الجوزية ، فإن له تحقيقاً جيداً فى هذا الموضوع ، وأشير إلى طرف الحديث إن كان سبق ذكره .

قال : وكان يستفتح تارة بـ « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد ، اللهم نقنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » أخرجه البخارى (١٨٨/٢ ، ١٩١) ، ومسلم (١٤٧) ، (٥٩٨) ، وأبو داود (٧٨١) ، والنسائى (١٢٩/٢) من حديث أبى هريرة .

(هامش زاد المعاد ٢٠٢/١) . =

أنزهك عن النقائص التى أضافها إليك ووصفك بها من جهل قدر عظمتك ، والحمد والثناء بما يستحقه المحمود من ذكر محاسنه وإحسانه ، والبركة الزيادة الثابتة ، والتعالى وجود العلو الكامل ، والجد العظمة ويطلق على الحظ ، أى ارتفع حظك ونفى الإلهية عن سواه لأنهم كانوا يعبدون آلهة كثيرة كل واحد يعبد ما يخطر له ، فنفى ذلك الفعل الواقع منهم عن نفسه وأثبت الإلهية لله وحده فليلاحظ فى كل كلمة ما تقتضيه من المعنى ليحصل له بذلك الحضور فى وقت صلاته ، فهذا ما يتعلق بالتوجه وبه تم الفصل الأول .

* * *

= وتارة يقول : « وجهت وجهى ... » ، قال : ولكن المحفوظ أن هذا الاستفتاح إنما كان يقوله فى قيام الليل .

وتارة يقول : « اللهم رب جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » أخرجه مسلم (٧٧٠) فى صلاة المسافرين ، باب الدعاء فى صلاة الليل من حديث عائشة رضى الله عنها (المرجع السابق) .

قال : وروى عنه أنه كان يستفتح بـ « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » أخرجه مسلم (٣٩٩) ، (٥٢) ، والطحاوى فى معانى الآثار (١١١/١) بتقديم الله أكبر عليه ، قال محقق زاد المعاد : ورجاله ثقات .

وقال الإمام أحمد : أما أنا فأذهب إلى ما روى عن عمر ولو أن رجلًا استفتح ببعض ما روى عن النبى ﷺ من الاستفتاح كان حسناً ، قال ابن القيم : وإنما اختار الإمام أحمد هذا لعشرة أوجه ثم ذكرها ، واختار الشوكانى ما رواه أبو هريرة السابق فليرجع إليه من أراد المزيد .

(زاد المعاد ٢٠٢/١ - ٢٠٦ ، ونيل الأوطار ١٩١/٢ - ١٩٧ ، ط المطبعة العثمانية / أولى سنة ١٣٥٧ هـ) .

الفَصْلُ الثَّانِي

فِى الأَدْعِيَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالصَّلَاةِ وَمَا فِيهَا مِنْ جَلْبِ البَرَكَاتِ وَدَفْعِ الهلكات

اعلموا أنَّ الأدعية هى الأَسلحة العتيدة فى رفع الكربات الشديدة ، والاستقراء فى الوجود شاهد لما قلناه ، ولما كانت الصلاة المقصود الأعظم منها وجود المناجاة كانت الأدعية فيها متوفرة الحالات ، فالأدعية فيها فى مواضع :

الموضع الأَول : القِيَام :

وفيه آمين [1] ، ومعناه : اللَّهُمَّ استجب فإِنَّه لما سبق السؤال فى قوله : ﴿ اهْدِنَا ﴾ أتبعه بالسؤال بإجابة ما دعاه به من الهداية لطريق المنعم عليهم .

الموضع الثَّانى : الدُّعَاءُ فى الجلُوس بين السَّجدتين :

رَوَى سعيد بن جبير [2] (رضى الله عنه) عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنَّ النبى ﷺ كان يقول بين السجدتين : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى وَارْحَمْنِى وَاجْبُرْنِى وَاهْدِنِى وَارْزُقْنِى » [3] أخرجه الترمذى ، وأخرجه أبو داود وقال :

---

(١) وذلك لما صحَّ عن النَّبى ﷺ : « إذا قال الإمام : غير المغضوب عليهم ، ... فقولوا : آمين » .

(٢) هو : أبو محمد ، وقيل : أبو عبد الله سعيد بن جُبَيْر بن هِشام الأسدى ، المُقْرِئ المفسر الإمام الوالىّ مولاهم الكوفىّ ، لم يبايع الحجّاج فغضب ، وأمر به فَضُرِبَتْ عُنُقه .

وانظر : تهذيب الكمال (٤٧٩/١) ، وتهذيب التهذيب (١١/٤) ، وتقريب التهذيب (٢٩٢/١) ، وسير أعلام النبلاء (٣٢١/٤) ، والطبقات الكبرى (٨١/٩) ، والحلية (٢٧٢/٤) .

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود (٨٥٠) ، والترمذى (٢٨٤) ، وابن ماجه (٨٩٨) ، والحاكم (٢٦٢/١ ، ٢٧١) ، والبيهقى (١٢٢/٢) ، وغيرهم من حديث ابن عباس (رضى الله عنهما) به .

بدل واجبرنى وعافنى ، وإنَّما خصت هذه الحالة بالدعاء لأنها متوسطة بين حالات من قيام وركوع وسجود تشتمل على ثناء على الله وعند تقدم الثناء يحسن السؤال كالطالب للحاجة من الملك أو الرفيع القدر من الناس يثنى عليه أولًا ، ثم يسأله حاجته ثانياً ، فالمجموع من الحديثين سؤال ستة أشياء :

أولها : المغْفِرة ، وهى ستر الذنوب والمعاصى بترك المؤاخذة بها فليمثل ذله بين يديه وعز من هو سائله فى الدارين وذلك اعتراف من العبد لله بذل العبودية وعز الربوبية .

وثانيها : الرَّحْمَة ، وهى من الله تعالى قرب إحسانه من العبد ، ومعاملته به معاملة الرَّاحم ، لأنَّ الرَّاحم فى الدنيا يميل بقلبه فيحسن لمن مال إليه لما وقع له فى قلبه من الحنان والعَطْف عليه ، فلمَّا استحال الميل فى حقِّه سبحانه انتفى عنه وبقى ما يليق به من الإنعام والإحسان لمن رحمه فيمثل قرب جوده منه وإحسانه إليه للطفه به وكرمه عليه .

وثالثها : الرِّزق ، لما كان الجسد لا قوام له عن المعاش وحصل سؤال الأعمّ النَّافع فى الدارين تعين سؤال الأخصّ الذى هو الرزق المخصوص به دار الدنيا ، وأصل الرزق العطاء ، قال الله تعالى : ﴿ ... **وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً** ... ﴾[1]، و﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم** ... ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ **مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِزْقٍ** ... ﴾[3]، فليمثل أنه قد رزق فيما مضى ، وأنَّ ما يأتى فمضمون الوفاء به والمراد بهذا السؤال التيسير والإدامة لما كان قد سبق لا الإنشاء لما لم يسبق ولم يقدر .

ورابعها : الجبر ، ومعنى الجبر الإصلاح ، ومنه جبر العظم ، أى إصلاحه وإزالة كسره فليمثل أن كسره قد جبر بإيمانه وعبادته .

وخامسها : العافية ، وهى فى الدنيا صِحَّة الجسم وسلامته عن الآفات ،

---

(١) سورة النحل ، الآية (٧٥) . (٢) سورة سبأ ، الآية (٢٤) .

(٣) سورة الذاريات ، الآية (٥٧) .

وفى الأخرى السلامة عن الأهوال والعقوبات ، فليمثل أنه أنعم بها ابتداءً ، وأمد بدوامها عليه انتهاء ، وأن ما من زمن يمضى بلا مرض إلَّا وهو من الله نعمة فى حقه إذ صرف عنه الآلام والأسقام المنهكة للأجساد .

وسادسها : الهِدَايَة ، وأصل الهُدَى البيان للشىء ومنه قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ** ... ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ** ... ﴾ (٢) ، وضده الضلال والعمى فكأَنَّ من تبين له الشىء اتبعه ، ومن خفى عليه ضَلّ عنه وعمى عن اتباعه ، فليمثل ما مَنَّ الله به عليه من الهدى عن الضلال ومجانبة الكُفر وليعلم أنها نِعْمَة من الله له مهداة ، يتعين عليه شكره فيما له منها قد أولاه .

الموضع الثَّالث : الدُّعَاءُ فى التَّشَهُّد الأَخِير :

ورد من حديث محمد بن أبى عائشة عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُم مِنَ التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنْ أَرْبَعٍ : مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ » (٣) صحيح أخرجه مسلم وسواه .

ولما كان التشهد الأخير منتهى العبادة المفتتحة بالثناء على الله تعالى ناسب ذلك الدُّعاء بهذه الكلمات لأنه لما أثنى على الله تعالى وسأله الهداية والجبر لكسره فى صلاته استعاذه من الشرور والإعاذة من هذه تجمع البعد عن الشَّر كله ، فإنَّ من أُجير من عذاب جهنم فقد استعمل بالطاعة أو عفى عنه من الجناية ، ومن وقى عذاب القبر فقد ثبت عند السؤال وأمن إقامة

---

(١) سورة السجدة ، الآية (٢٦) .

(٢) سورة فصلت ، الآية (١٧) .

(٣) (صحيح) أخرجه مسلم (٥٨٨) ، وأبو داود (٩٨٣) ، والنسائى (١٣١٠) ، وابن ماجه (٩٠٩) ، وأحمد (٢٣٧/٢ ، ٤٧٧) ، والدارمى (٣١٠/١) ، وأبو عوانة (٢٣٥/٢) ، والبيهقى (٢٢٠/٢) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) به .

الحجة ، ومن حمى عن فتنة المحيا فقد أُجير من المخالفات والأهوية المؤدية إلى الهلكات ، ومن كفى فتنة الممات ، فقد انقلب عن العطب إلى السلامة من الآفات ، ومن أمن فتنة المسيح الدجال ، فقد ثبت الإيمان فى قلبه ولم يخف من تلك الأهوال ، ولما كان وقت مجيئه مجهولًا كقيام الساعة تعين الاستعاذة منه فى جميع الأحوال .

وقد وردت أدعية أُخَرُ بعد التَّشَهُّد وقبل التَّسْليم وتتبعها يطول ، ومن أرادها تتبعها من مظانها ، وتدبر معناها بما يليق بها ، وهذا منبه عليها ، والمقصود أن يكون العبد حاضراً فى أقواله وأفعاله غير مهمل لفكرته فى معاده والله تعالى أعلم .

الموضع الرَّابع : الدُّعَاءُ فى القُنُوت (1) :

وقد اختلف العلماء فى القنوت وفى محله وفى لفظه وفيما يقنت فيه من الصلاة ، فقال الشَّافعىّ وأصحابه (رضى الله عنهم) : يقنت فى الصبح بعد الركوع بالكلمات التى فى حديث الحسن بن على (رضى الله عنهما) ، وفى الوتر فى النصف الأخير من شهر رمضان ويدعى على الكفرة ، وقال

---

(1) **القُنُوت** : « أى الدعاء فى الصلاة فى محل مخصوص من القيام » .
انظر : القاموس الفقهى (ص ٣٠٩) .

* والقُنُوت فى صلاة الصبح غير مشروع إلَّا فى النَّوازل ، ففيها يَقْنُت فى الصبح وفى سائر الصلوات ، وعن أبى مالك الأشجعىّ قال : « كان أبى قد صلَّى خلف رسول الله ﷺ وهو ابن ست عشرة سنة ، وأبى بكر وعمر وعثمان ، فقلتُ : أكانوا يَقْنتون ؟ قال : لا ! أى بُنىَّ مُحدث » رواه أحمد ، والنسائى ، والترمذى ، وابن ماجه وصححه ، وعن أنس : « أن النَّبى ﷺ كان لَا يَقْنُت فى صلاة الصبح إلَّا إذا دعا لقوم أو دعا على قوم » رواه ابن حِبَّان ، وابن خُزيمة .

وهو مذهب الحنفية والحنابلة وابن المبارك ، وغيرهم ومذهب الشَّافعيَّة القُنُوت فى صلاة الصبح بعد الركوع واستدلوا بما رواه أحمد والحاكم والبزَّار والدَّارقُطنى : « ما زَال رسول الله ﷺ يَقْنُت فى الفجر حتى فارق الدُّنيا » ، وفيه أبو جعفر الرازى ، وليس من المعقول أن يقنت النبى ﷺ طوال حياته ثم يترك الخلفاء من بعده ، وانظر فقه السنة (١٩٨/١) .

* أما القُنُوت فى الوتر فهو مشروع فى جميع السنة ، لما رواه أحمد وأهل السنن وغيرهم =

مالك : يقنت فيها وهو مخير قبل الركوع أو بعده ولم يعين تلك الكلمات ، واختيار أصحابه قبل الركوع ، وقال أبو حنيفة ، والإمام أحمد (رضى الله عنهما) : لا قنوت فى الصبح بحال ، ويقنت فى الوتر فى جميع السنة . قلت : واختار جمع من أصحاب الشافعى القنوت فى الوتر مطلقاً ، وهو اختيار الإمام أبى المحاسن الرُّوْيَانى [1] وغيره وأنا أختاره وأفعله [2].

* * *

= من حديث الحسن بن على عَلَّمَنِى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر : « اللَّهُمَّ اهدنى فيمن هديت ... » ، وذهب الشَّافعيَّة إلى أنَّه لا يَقْنُتُ فى الوتر إلَّا فى النِّصف الأخير من رمضان ، لما رواه (أبو داود) : « أنَّ عمر بن الخطاب جمع الناس على أُبى بن كعب ، وكان يصلى لهم عشرين ليلة ولا يَقْنت إلَّا فى النِّصف الباقى من رمضان » ، وما رواه محمد بن نصر : « بعث عمر ابن الخطاب جيشاً فتورطوا خاف عليهم ، فلما كان النصف الآخر من رمضان قنت يدعو لهم » .

وانظر : الفقه على المذاهب الأربعة (١/٣٣٥) .

(١) هو : الإمام أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الرُّوْيَانى الطَّبرى الفقيه الشَّافعىّ المولود سنة (٤١٥ هـ) ، وكان حافظاً للمذهب ، وكان يقول : « لو احترقتْ كتبُ الشَّافعى لأمْليتها من قلبى » .

وانظر : شذرات الذهب (٤/٤) ، والأنساب (٢٦٣) ، والبداية والنهاية (١٢/١٧٠) ، والنجوم الزاهرة (٥/١٩٧) ، ووفيات الأعيان (٢/٣٦٩) ، واللباب (١/٤٨٢) .

(٢) ولم يذكر القول القائل : بأن القنوت مختص بالنوازل فقط ولا يختص بالوتر ، ولا الفجر ، ولا بصلاة بعينها إنما يكون فى سائر الصلوات .

قال ابن القيم : « وأهل الحديث يقنتون حيث قنت رسول الله ﷺ ، ويتركون حيث تركه ، فيقتدون به فى فعله وتركه ويقولون : فعله سنة ، وتركه سنة ، ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه ، ولا يكرهون فعله ، ولا يرونه بدعة ، ولا فاعله مخالفاً للسنة ، كما لا ينكرون على من أنكره عند النوازل ، ولا يرون تركه بدعة ، ولا تاركه مخالفاً للسنة ، بل من قنت فقد أحسن ، ومن تركه فقد أحسن » . هذا خلاصة ما ذكره وأورده وإلَّا فله فيه بحث نفيس يرجع إليه من أراد المزيد .

(زاد المعاد ١/٢٧١ - ٢٧٥) (المراجع) .

أَسْرَار مِنْ حَدِيث الحَسَن فِي القُنُوت

وحديث الحسن بن على (رضى الله عنهما) فيه : « عَلَّمَنِى رَسُول الله ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولهُنَّ فى قُنُوت الوتر »(1) وبه احتج الشافعى وأصحابه فى تعيين الكلمات حتى لو تركها لسجد للسَّهو ، فإذا كانت متعينة فيما لم ترد فيه نصًّا فبالطريق الأولى تعينها فيما وردت فيه وقد جمعت الكلمات الواردة فيه خير الدارين فإن الدُّعاء طلب بتذلل وخضوع ، والطلب إما لجلب منفعة أو دفع مَضَرَّةٍ ، إما عاجلًا ، أو آجلًا . وقد وجد ذلك فى القنوت فقوله : اللَّهُمَّ اهْدِنى فِيمَنْ هَدَيْتَ » سؤال للهداية مع الاعتراف بوجود قوم مهتدين وهذا طلب نفع فى الدين وقدمه لأنَّه الأصل الذى عليه بناء صحة الأعمال وقبولها وثمرته هى الغاية المطلوبة للعبد وإنما يحيا فى الآخرة فكان أحق بالتقديم لشرفه قوله : « وَعَافِنِى فِيمَنْ عَافَيْتَ » طلب العافية مأمور به ، وكان النبى ﷺ يكثر الدعاء به ، فلما سأل الهدى وذلك راجع إلى الأديان سأل العافية بعده فى الأبدان ليظفر من الحسنيين فى تحصيل السعادة بمجموع الأمرين ، قوله : « وَتَوَلَّنِى فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ » ، الولاية : هى الإعانة بالعناية ، وهى شاملة لدفع ما يخشى ، وتحصيل ما يرجى ، لأن من تولاه الله كفاه ، وآتاه مارجاه ، وحماه ما يخشاه ، قوله : « وَبَارِكْ لى فِيمَا أَعْطَيْتَ » أصل البركة الزيادة من عطاء الله له فى ذلك لتكون النعمة دائمة مستقرة ، قوله : « وَقِنِى شَرَّ مَا قَضَيْتَ » لما طلب الزيادة منه فيما أنعم به عليه من العطاء سأل منه الوقاية من المكروه فقد يحصل النفع ويعقبه الضرر فكأنَّه

---

(1) (صحيح) أخرجه أبو داود (١٤٢٥) ، والنسائى (١٧٤٥ ، ١٧٤٦) ، وابن ماجه (١١٧٨) ، وأحمد (١٩٩/١ ، ٢٠٠) ، والحاكم (١٧٢/٣) ، والبيهقى (٢٩/٢) ، وغيرهم من حديث الحسن بن على (رضى الله عنهما) به .

سأل منه السلامة المدامة فى الدارين ، والبركة الكاملة فى الحالين ، فلما تم سؤاله لنفسه أثنى على الله تعالى بما يستحقه مقابلًا للأوصاف السابقة بأضدادها فقال : « إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ » : أى إن لك القَهْر للخلق بالقضاء السابق ، الجارى على وفق العلم إلى الأجل المعلوم ، ولا أحد يقدر أن يقضى عليك بتغيير علمك ، قوله : « وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ » ، لما سأل الولاية ابتداء أخبر أن من والاه الله لا يذل ، أى لا يخضع ولا يقهر ، قوله : « تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ » : أى دام خيرك وقام علاؤك ، قوله : « وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ »[1] لما تقدم دعاء سابق ، وثناء لاحق ، عقبه بذكر الصلاة على النبى ﷺ لما فى ذلك من المناسبة كما فى التشهد ، وقد ذكر النسائى فى بعض طرق حديث القنوت الصلاة على النبى ﷺ وذلك زائد والأخذ بالزيادة أولى ومنع من إثباتها متأخرى أصحاب الشافعى والأظهر خلافه والله الموفق .

الموضع الخامس : الصَّلَاة عَلَى النَّبِى ﷺ :

أمَّا فى التَّشَهُّد الأول ، فهل يُسن ؟ فيه قولان[2] ، وأما فى الأخير فواجب قولًا واحداً على مذهب الشافعى وأصحابه ولم يوافقه على ذلك جمهور العلماء[3] ، قوله : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ

---

(١) وَرَدَتْ هذه الزِّيادة فى بعض طرق الحديث عند النَّسائىّ (٣/٢٤٨) ، وقال الألبانى فى صفة الصلاة (١٦٠) : وإسنادها ضعيف وقد ضعفها الحافظ بن حَجَر والقَسْطلانى والزُّرقانى وغيرهم ... وقال العز بن عبد السلام فى الفتاوى (١/٦٦) : ولم تصح الصلاة على رسول الله ﷺ فى القُنوت .

(٢) والصواب : أنَّه يجوز ذكر الصلاة فى التشهد الأول لما رواه أبو عَوَانَة فى صحيحه والنسائى : « كان ﷺ يصلى على نفسه فى التشهد الأول وغيره » ، وانظر صفة صلاة النبى ﷺ (١٤٥) .

(٣) قال النَّوَوِىّ فى شرح مسلم (٤/٣٦٦) : « اعلم أنَّ العلماء اختلفوا فى وجوب الصلاة على النبى ﷺ عقب التشهد الأخير فى الصلاة ، فذهب أبو حنيفة ومالك (رحمهما الله تعالى) ، والجماهير إلى أنَّها سنة لو تركتْ صحت الصلاة ، وذهب الشَّافعىّ وأحمد (رحمهما الله تعالى) =

مُحَمَّدٍ » [(١)] ، أصل الصلاة فى اللغة الدعاء ومنه قوله تعالى : ﴿ ... وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ... ﴾ [(٢)] : أى ادع لهم ، وهى من الله تعالى الرحمة لخلقه وصلتهم بخيره بعد انقطاعهم عن نيله ، وقد اشتهر حتى صار شعاراً لمنصب النبوة المحمدية تميزت به فلا يطلق على سواها استقلالاً ، أدباً معها وجائز إطلاقه على سبيل التبعية كما أمر به فى قوله : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ » ، ولما اختص بذلك كان له أن يصلى بنفسه على من شاء مستقلاً كقوله : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِى أَوْفَى » [(٣)] ، وقد قال الله تعالى فى حقه : ﴿ ... إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ... ﴾ [(٤)] فمن كانت صلاته سكناً كان له أن يصلى بنفسه وذلك معلوم من جهة الرسول ﷺ لوجود الخبر به عن الله تعالى ومجهول حال غيره فى ذلك فاختص به ، هذا هو المنقول عن أصحاب الشافعى (رضى الله عنه وعنهم) ، وجوز سواهم ذلك وله فى النظر وجه ظاهر ، وإذا تقرر أن الصلاة منصبه وحقه كان له التصرف فيه على ما يؤثره هو ويختاره وليس لآحاد أُمته الجرأة على منصبه فيتعرض له بأنَّ يضعه فى غير موضعه ، قوله : « كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ » فإنْ قُلْتَ المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة من المشبه وأشرف نسبة ، ولما أمرنا أن

= إلى أنَّها واجبة لو تركت لم تصحَّ الصلاة وهو مَرْوِىّ عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله (رضى الله عنهما) وهو قول الشَّعبى » انتهى .

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٣٣٧٠ ، ٤٧٩٤ ، ٦٣٥٨) ، ومسلم (٤٠٦) ، وأبو داود (٩٧٦) ، والترمذى (٤٨٣) ، والنسائى (١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ١٢٨٩) ، وابن ماجه (٩٠٤) ، وأحمد (٢٤١/٤) ، والحاكم (١٤٨/٣) ، والبيهقى (١٤٨/٢) ، وغيرهم من حديث كعب بن عُجْرَة به .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١٠٣) .

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخارى (١٤٩٧ ، ٤١٦٦ ، ٦٣٣٢ ، ٦٣٥٩) ، ومسلم (١٠٧٨) ، وأبو داود (١٥٩٠) ، والنسائى (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (١٧٩٦) ، وغيرهم من حديث عبد الله بن أبى أوفى به .

(٤) سورة التوبة ، الآية (١٠٣) .

نسأل له صلاة مثل صلاة إبراهيم (صلوات الله عليه وسلامه) اقتضى أن تكون تلك الصلاة أكثر . ومن كانت الصلاة عليه أكثر كان أفضل ، قلتُ للعلماء عليه جوابان :

أولهما : أنه شبه الصلاة بالصلاة على الآل وآل إبراهيم أنبياء والأنبياء أشرف من غيرهم وهذا على رواية من قال : « كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ » ولم يذكر آل إبراهيم .

وثانيهما : أنه شبه المجموع من النبى ﷺ والآل بالمجموع من إبراهيم والآل ، فيحصل للمصطفى محمد ﷺ ولآله ممَّا سأل لهم من الصلاة ما يقارب الصلاة الحاصلة على إبراهيم وآله إذ منهم أنبياء ، بل هم معظم الأنبياء ، ثم يتوفر نصيب محمد ﷺ من القسم الذى حصل له ولآله فلا يحصل لآله إلَّا مثل ما حصل لآل إبراهيم إذ لا يبلغون مراتب الأنبياء ، وإذا توفر نصيبه من ذلك زادت الرحمة فى حقه على إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) فظهر بذلك فضله ﷺ .

قُلت : قد ظهر لى ووقع عندى أن التشبيه إنَّما وقع فى العطاء ولا يلزم من سؤال زيد أن يعطى كما أعطى عمرو أَنْ يكون عمرو أفضل من زيد إنَّما سأل لسبقه بالزمن ، فسؤال المصطفى ﷺ لذلك إنَّما وقع لسبق إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) بالزمن : أى إنَّك قد صليت عليهم فى زمن تقادم عن وجودى فى الصورة صلاة كاملة بالمزيد ، كافلة ، وأوصلتهم رحمة عامة وبركة شاملة ، إذ نشرت ذريته ، وأظهرت كلمته ، وأهلكت أعداءه وجعلت النبيين (عليهم الصلاة والسلام) من ذريته ، فكمل الصلاة علىَّ وعلى الآل الذين هم إما الأقارب الذين حرمت عليهم الصَّدَقة أو الأُمة على الاختلاف فى ذلك كما كملت ذلك على أُولئك ، فلا يلزم من ذلك كثرة ولا أفضلية للمشبه به وإنَّما يلزم له الكمال والسائل سأل مثل ذلك الكمال مضافاً إلى ما اختص به ويعضد هذا أنه (عليه الصلاة والسلام) لما حرم

المدينة قال : « اللَّهُمَّ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّى أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا »[1] فذكر تحريم مكة لسبقها عليها ، فإنْ قلتَ : مكة أفضل من المدينة ، قلتُ : هذه مسألة اختلف العلماءُ فيها وإنْ كنَّا نعتقد أَنَّ مكة أفضل لكن الحديث لا دلالة فيه على تفضيل إحداهما على الأُخرى فلا حجة فيه وإنَّما مقتضاه إثبات حرمة سابقة وإثبات حرمة لاحقة ، قوله : « إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » فعيل بمعنى مفعول وهو أبلغ منه فلذلك عدل عنه : أى إنَّك المستحق لما تنوع من الحمد والمجد : أى إنَّك محمود ممجد ، والمجد والشرف والرفعة ومنه قول العرب : « فى كل شجر نار واستمجد المزج والعقار » ، أى علا وزاد ناره ، والمعنى : إنَّك لما كملت صفاتك من أنواع المجد ، أى الشرف والعظمة كنت محتوياً على ضروب الحمد مستحقًّا له بغير شريك لك فى ذلك ، وبه تم الفصل الثانى فى الأدعية .

* * *

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٢١٢٩) ، ومسلم (١٣٦٠) ، وأحمد (٤٠/٤) . والبيهقى (١٩٧/٥) ، وغيرهم من حديث عبد الله بن زيد به نحوه ، وروى ذلك من حديث جابر ، سعد بن مالك ، ورافع بن خديج .

الفصل الثالث

أَذْكَارُ الثَّنَاء عَلَى اللَّـه ، وَمَا فِيهَا مِنْ عِبَر

وهى وجـوه :

الْوَجْهُ الأَوَّلُ : التَّكبير :

وهو تفعيل من الكبَر بفتح الباء ، أى جعله كبيراً ، أى عظيماً ، ومعناه : أكبر من تكبيرنا له ، ومن واصف به له أو أكبر من كل كبير يعتقد أنه كبير .

ولما كان المقصود من الصَّلوات ذِكر المعْبُود اقتضتِ الحكمة الإلٰهية أَنْ يأمر بالابتداء بتعظيمه لأنَّه أدعى إلى لزوم الأَدب فى الوقوف بين يديه فكان التكبير له دالًّا على كبريائه وعلائه يستشعر قلب المصلى هيبة وعظمة فى صدره يخضع فيها قلبه ، وتخشع جوارحه ، وتلين بشرته ويجتمع خاطره ويقبل بكليته على صلاته ويفرغ قلبه عن الشواغل ويحميه عن امتداد الفكر المستولية عليه ، حتى لا يدرى هل هو فى صلاته أم لا فيكثر منه بفكرته فيها السهو ، وهذا هو المعنى المشار إليه فى قوله (عليه الصلاة والسلام) : « يُكْتَبُ لِلْمَرْءِ مِنْ صَلَاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا »(١) : أى ما كان فيه منها حاضراً كتب له ، ومعناه ما حضر فيه كتب له به صلاة كاملة تامة بحضوره وخشوعه فيها وما لم يكن فيها حضور ناقصة فى ثوابها عن تلك ، وقد أشار (عليه الصلاة والسلام) إلى تعظيم المعبود بقوله فى حديث عمر (رضى الله عنه) وسؤال جبريل (صلوات الله عليه وسلامه) قال : « مَا الْإِحْسَانُ ؟

---

(١) وهو من كلام عمار ، وقد تقدم تخريجه والكلام عليه .

قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »[1] ، ومن عبد الله على هـذه الحالة لم يبق فى قلبه ما يسع سواه ، بل يستغرق فى جلال الهيبة ويتقلب فى السؤال بالرغبة والرهبة ، ويبقى مفرغاً عن الشـواغل ، مشغولًا به عن المقـاطع له والمواصل ، وهـذه الحـالة لعسرها ، لا يتأتى لأكثر الخلق حصولها على الدوام وقد تحصل أحياناً لبعض الخواص ، وأما أرباب التوجهات والمعاملات ، فأقل أحـوالهـم استعمـالًا صـلاتهم وقرباتهم وهـذا هـو الحكمـة فى تكبيرات الانتقالات ، فإنَّ المصلِّى عند تكبيرة الافتتاح يشاهد بقلبه عظمة معبوده ، مستحضراً له فى معلومه ، ثم ينتقل إلى الاشتغال بالتوجه والتلاوة بلسانه ويتفكَّر قلبه فى تدبر معـانى ذلك فقد انتقل عن حالته الأُولى وربمـا تخرجه الفكرة إلى غفلة ، بحسب ما يغلب على قلبه منها ، فإذا انتهتِ القراءة انتقل إلى الركوع فكبَّر ، وتَذَكَّر ما كان أوَّلًا قد تصور ؛ فتجدد عنده ما كان تقدم فى ذهنه من التعظيم ، وكذلك فى أطوار تكبيرات الانتقالات التى فى الصلاة ينبغى له أن يُجدِّد فى كل تكبيرة ما سبق من استحضار تعظيمه ، حتى يكون ملاحظاً لرِدَاء الكبرياء والعَظَمَة ، الدَّالة على جلالة قدره وعُلو شَأنه وقهره ، فليشعر قلبه حالة نُطقه بتكبيرة الافتتاح وباقى التكبيرات أن لا كبير سواه يستحق الكبرياء والعظمة ، وأن من سـواه فهو حقير عـاجز فيستفيد بذلك قطع أمل قلبه عن التعلق بغير ربه .

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٥٠) ، ومسلم (٩) ، وابن ماجه (٦٤) ، وأحمد (٤٢٦/٢) ، وغيرهم من حـديث أبى هريرة به ، وروى من حديث عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وأبى ذر .

وقال الإمام النَّووى فى شرح مسلم (٢٧٢/١) : « هذا من جوامع الكلم التى أوتيها ﷺ ، لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام فى عبادة وهو يعاين ربه (سبحانه وتعالى) لم يتركْ شيئاً ممَّا يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السَّمْت ، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلَّا أَتى به ، فقال ﷺ : اعبد الله فى جميع أحوالك كعبادتك فى حال العَيان » انتهى .

الوَجْـهُ الثَّـانى : التَّسْـبِيح فِى الرُّكُوع وَالسُّـجُود :

وقد علم ممَّا تقدم أنَّ التسبيح موضوعه التنزيه ونفى النقائص وإثبات خصائص الكمال للمعبود فليلاحظ عنده كماله فيما وصف به نفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى وليستقر فى ذهنه من حضره من ذلك .

الوَجْـهُ الثَّـالِثُ : الثَّنَـاءُ بَعْـد الرَّفْـع مِنَ الرُّكُوعِ وَمِنَ السُّجُودِ :

فليلاحظ فيه ما أنعم الله به عليه من تسوية صورته وتحسينها وتأهيله لخدمته ، وإمتاعه بصحته ، وأَن لا مانع ولا معطى سواه ، فيقوى بذلك يقينه ، ويزداد من قربه من الله تمكينه .

الوَجْـهُ الرَّابِـع : التَّشَـــهُّد :

وقد اشتمل من الثناء على الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ وعلى رسوله ﷺ وعلى جميع الصالحين الماضين والآتين من المؤمنين بالسلام عليهم ما يأتى بيانه فى المطلب الثانى ، وبه تم المطلب الأول .

* * *

الْمَطْلَبُ الثَّانِى
فى تَنَوُّعِ الحَرَكَات فِى الصَّلَاة
وَاخْتِصَاص كُلّ نَوْع بِذِكْرٍ مِنَ الأَذْكَارِ المَشْرُوعَات

اعلموا (وفَّقنا الله وإيَّاكم) أَنَّ الصَّلاة مُناجاة من العبد للمَوْلَى ، ومباهاة للملأ الأَعلى ، وتذكير للعباد بوظائف الخدم المتنوعة بالهيئات ، وآثار الطاعات ، اللسان بالنُّطق ، والقَلْب بالفكرة ، والجوارح بالحركات ، وليس من شيء من العبادات خارج عن هذه الجهات ، وعلى الجملة فالمدار على القلب الذى هو ممد للبدن والجوارح بنور الهداية والعناية ، فموضوع الصلاة مخالفة العادات بقطع الإرادات ، والتأهب للمثول بين يدى الملك المطاع ، بهيئة مخصوصة الأوضاع سابقاً ولاحقاً ، أما سابقاً : فالطهارة فى الظاهر فى البدن والثوب ، والمكان ، والحكمة فى ذلك إلزام النفس المشقَّة بالخروج عما ألفته من الغفلة ، بمصاحبة العادة ، حتى تتأهب للوقوف فى الخدمة على أكمل حالة .

أَسْرَار الوُضُوء وَحِكَمُهُ :

ولننبه على شيء من أسرار الوضوء : فالأمر بالسّواك لتطهير ما بقى من فضلات الأغذية فى الفم ، أو الرائحة الكريهة ، والأمر بِغسل الكفَّين قبل الشروع فيه ثلاثاً : تأَهب للتنظيف التام قبل إيصال اليد بالفم للمضمضة بأنَّه فى الوجه والوجه أشرف عضو فى الإنسان لكماله بما اشتمل عليه من الحواس الأربع التى هى : السّمع والبَصَر والشَّم والذّوق ، والخامسة اللمس ومحلها الكَفّ ، ولذلك أمر بتطهيره قبل الشروع فى غسل الوجه ، ويتمضمض ليطهر فمه ممَّا صدر منه فى وقت الغفلة من الكلام الخبيث ،

ويكون ذلك تنبه وينظفه من آثار ما تعلَّق به من فضلات أغذية ورائحة كريهة ، ويستنشق ويستنثر ليزيل ما فى الأنف من بقايا الفضلات وليطهر مجارى أنفاس الغفلة منه حتى يدخل فى الصلاة نقيًّا من الحالين فيقصد بتمضمضه تطهير فمه ممَّا سبق إليه لسانه وجرى عليه من اللَّغو واللَّهو ، والعَمد والسَّهو ، فكأنَّه فى معنى النجاسة العينية التى يطهر المحل منها وباستنشاقه تطهير الخياشيم ممَّا كان جارياً فيها من أنفاس الأفكار المذمومة والغفلات المعلومة ؛ فإنَّها كانت على جارى عادتها مقيمة فليغيرها عن تلك العادة بهذه العبادة ، ثم يغسل وجهه فيطهر أشرف ما فيه ، فإنَّ بصره قد شاهد زهرة الحياة الدنيا وزينتها وهو السبب فى ميل القلب إليها وطرفه بما امتد إلى ما أمر بالغض عنه فغلب عليه هواه ، فأهواه فى المخالفة وأرداه .

فالماء مطهر لظاهره ، والإقلاع بالندم مطهر لباطنه ، ثم يغسل يديه لأنَّ بهما قوته وبطشه ومعونته فى حركته عند مشيته ، وهما منه كالجناح من الطائر فى الإعانة فيقصد تطهيرهما ممَّا لابستاه ممَّا لم يؤذن فى فعله ، ثم يمسح رأسه ويقصد به تطهيره عن الكبر فإنَّه إذا استوقد نار الجبرُوت فى النَّفس تصاعد دخانه إلى الدّماغ فأمال خَدّه فى مشيته وخطر بيده متمايلًا متبختراً مختالًا مُتَكَبِّراً ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ (١) ، ثم يمسح أُذنيه ويقصد بهما تطهيرهما ممَّا سمعتاه ممَّا لم يؤذن فى استماعه ، ثم يمسح رقبته عند بعض العلماء وهو اختيار بعض الشافعية لحديث ورد لا يثبت مثله وليس به بأس ، فإنَّ الرقبة حاملة للرأس معينة له على ميله عن الصواب فكأنَّ المسح إشارة إلى البراءة من الإعانة على الفعل المذموم (٢) ،

(١) سورة لقمان ، الآية (١٨) .

(٢) قال النَّوَوِىّ فى روضة الطالبين (١/١٧٢) : « وذهب كثيرون من أصحابنا إلى أنَّها لا تمسح لأنَّه لم يثبت فيها شيء أصلًا ، ولهذا لم يذكرهُ الشَّافعىّ ومتقدمو الأصحاب ، وهذا هو الصواب والله أعلم .
=

فإنْ قُلتَ : لِمَ خَصّ الرأس والأُذن بالمسح ؟ قُلْتُ : لأنَّه ليس فيه إدراك فخفف عنه بخلاف الوجه فإنَّ البَصَر فيه وإدراك العلم يحصل بالمشاهدة ، واليد باللَّمس فهما أقوى من إدراك السَّمع ، وأما الرأس والعُنُق فلا إدراك لهما وعلى قدرة الإدراك تحصل اللذة ، وعلى قدرة قوة اللذة تكون العقوبة والزجر ، أو المثوبة والشكر ، ولأجل ذلك أمر بغسل الذَّكر فى المذى ، وبغسل جميع البَدَن فى الجنابة ، فإنَّ اللذة قد عمته عند قيام الشَّهوة بالنَّفس الحيوانية ، ثم يغسل رجليه ويقصد بغسلهما تطهيرهما ممَّا مشتا فيه ممَّا لم يأْذن فيه الشرع .

وفائدة ما أفدته : أنَّ كل عضو ممسوح أو مغسول ينبغى أن يستحضر عنده ما قدمناه ، وأنْ يقرن ذلك بالتوبة ممَّا يصح نسبته إلى ذلك العضو ولأجل ذلك قرن الله التوبة بالطهارة فى قوله تعالى : ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ (١) الآية وإنْ كانت نزلت على سبب خاص فى قوم مخصوصين فإنَّ اللفظ صالح للعموم فى تطهير الظاهر والباطن ، والنجاسة الصورية والمعنوية ، فإنَّ المخالفات الباطنة من : الحسد ، والكِبْر ، والرِّياء ، والشِّرك كلها نجاسات معنوية مأمور باجتنابها ، كما أمر باجتناب النجاسات الصورية من البول والدم وغيرهما والله أعلم .

أَذْكَارُ الوُضُـوءِ وَحِكَمُهَـا :

ثم يدعو فيقول ما رواه عمر (٢) (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ :

= وفى القِنْدِيل (٢٤٩) : « وأمَّا مسح الرقبة فلم يصح فيه حديث لهذا لا يجوز مسحها » .

قُلْتُ : « لا بأس بمسح الرّقبة على سبيل التَّنظيف والتَّطهير ، لا على أنَّها من سنن الوضوء ، ولا سيما إذا كان ذلك بعد الفراغ من الوضوء والله أعلم » .

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٢٢) .

(٢) هو : الخليفة العادل أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العزى بن رباح ابن عبد الله بن قرط بن لُؤى ، القُرشى ، إمام الزّهد والورع والعدل ، خطب الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رُقْعة ، تُوفى سنة (٢٣ هـ) . =

« أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ » [1] ، وروينا من طريق أنس [2] (رضى الله عنه) وقال فيه ثلاث مرات : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ » [3] ، ويقول أيضاً : « اللَّهُمَّ اجْعَلْنِى مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِى مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ وَاجْعَلْنِى مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » [4] ، والمراد : اجعلنى ممَّن أحببته لما تاب وتطهر ، أو ممَّن يكون فى المستقبل على مثل هذه الحالة من التوبة والطهارة .

صَلَاةُ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الوُضُوءِ :

ثم ليركع ركعتين قبل الشروع فى السنن [5] الرواتب وينوى بهما شكر الله تعالى على ما أقامه فيه من إتمامه ليحصل طهارة ظاهره وباطنه ، فإذا فعل ذلك فقد أكمل طهارته ، وأقبل على عمل الفرض وقد أصلح حالته .

= انظر : تهذيب التهذيب (٤٣٨/٧) ، وتقريب التهذيب (٥٤/٢) ، وأسد الغابة (١٤٥/٤) ، والاستيعاب (١١٤٤/٣) ، والإصابة (٥٨٨/٤) ، والطبقات الكبرى (١٤١/٩) .

(١) (صحيح) أخرجه مسلم (٢٣٤) ، وأبو داود (١٦٩) ، والترمذى (٥٥) ، وابن ماجه (٤٧٠) ، وأحمد (١٩/١) ، والبيهقى (٧٨/١) ، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب به .

(٢) هو : الصَّحابى الجليل أبو حَمْزَة الأنْصارى ، أنس بن مالك بن النَّضْر بن ضمضم بن زيد ابن حرام بن جُندب بن عدى بن النجار ، المفتى المدنى ، خادم رسول الله ﷺ ، وآخر أصحابه موتاً ، ولم يقاتل فى بدر ، تُوفى سنة ٩٥ ، وقيل : ٩١ ، وقيل : ٩٢ هـ .

انظر : تهذيب الكمال (١٢٢/١) ، وتهذيب التهذيب (٣٧٦/١) ، وتقريب التهذيب (٨٤/١) ، وأسد الغابة (١٥٧/١) ، والاستيعاب (١٠٩/١) ، والإصابة (١٢٦/١) .

(٣) (إسناده ضعيف) أخرجه ابن ماجه (٤٦٩) ، وأحمد (٢٦٦/٣) ، وفى سنده زيد العَمِّى فيه ضعف كما قال الذهبى فى الكاشف (٣٣٨/١) ، وقال السندى : « قلت لكن أصل الحديث صحيح من حديث عمر بن الخطاب » .

(٤) (صحيح) أخرجه الترمذى (٥٥) ، والبيهقى (٧٨/١) ، دون قوله : « واجعلنى من عبادك الصالحين » .

(٥) وذلك لقول النبى ﷺ : « من تَوَضَّأ مثل وُضُوئى هذا ، ثم أتى المسجد ، فركع ركعتين ، ثم جلس ، غُفِرَ له ما تقدم من ذَنْبه » .

الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بالرَّوَاتِب وَفَضْلِهَا :

فيتقدم ويصلّى السنن الرّواتب إذ لابد أنْ تبقى بقايا فى النفوس ممَّا كان سلطان الفِكر قد أثَّر فيها فيزيل ذلك فعل تلك السنن ، فيصلى قبل الظهر أربعاً وبعدها أربعاً ، والحكمة فى ذلك أن المعاش والمصالح أكثرها من الصبح إلى الزوال فتكون الخواطر بها معمورة ، والأفكار بها مشغولة ، فإذا شرع فى الصلاة وهو على تلك الحال انسحب حكم ما كان فى ضميره على صلاته فلم يحصل له كمالها بالحضور فيها ، فإذا مرّن نفسه قبلها بالنوافل حصلت له يقظة فدخل فى الصلاة متفرغ البال من الأشغال ، فكانت النافلة أربعاً قبل الظهر بقدر مقدار الفريضة وأربعاً بعدها لتجبر ما كان فيها من خلل ، ولطول مدة الغفلة وكثرة عمارة الخاطر بالأشغال السابقة ، ولأنَّ أكثر المتهجدين ينامون بين الصلاتين فكانت الأُربع جبراً لما يحصل من الغفلة بالنوم فى ذلك الوقت وأربعاً قبل العصر لتمرين النَّفس ولجبر النقص الحاصل فى فعلها .

وأما من العصر إلى الغُروب فإنَّه وقت الراحة من التَّعب المتقدم فى البدن والفِكر وهو وقت نهى عن الصلاة فيه لما كانت الكفار تعانيه فيه من تعظيم وقت الغروب والسجود للشمس ، وكذلك عَبَدَة الشمس منهم ، فإذا تحقق غروب الشمس بادر إلى المغرب من غير سنة قبلها ، وكذلك العشاء فإنَّها تدخل والناس متأهبون لقرب ما بين الوقتين ، بل أكثر المتوجهين يواصل ما بين العشاءين بالصلاة فكانت سنتهما بعدهما جبراً لما يقع فى الصلاتين من غفلة وتفويت حضور مع الله سبحانه وما أشرنا إليه فإنَّه أمر واقع يجده الإنسان من نفسه بالاستقراء فى الوجود فحينئذ يفتتح الصلاة المفروضة بقلب وذهن حاضر ، وخشوع قائم ، وأدب ملازم .

* * *

الهَيئَات الَّتِي تَشْتَمِل عَلَيْهَا الصَّلَاة وَحِكَمُهَا :

والهيئات التى تشتمل عليها الصلاة متنوعة إلى قيام ، وركوع ، وسجود ، وجلوس :

النَّوعُ الأَوَّل
القِيَامُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ أَذْكَار وَحِكَم

وموضوعه للتعظيم والاحترام والاهتمام بالإكرام وهو شاهد فى موضوع العوائد لمن يقام فى خدمته بالمكانة والجلالة ، ولهذا نهي النبى ﷺ عن القيام فقال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »(١) ، وقال (عليه الصلاة والسلام) : « لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ عَلَى رُءُوس مُلُوكِهَا »(٢) ، ثم خص الشارع هذه الهيئة من التعظيم بالكلام القديم لما اشتمل عليه من الثناء على المعبود ، والدعاء المقصود ، والقيام أوائل هيئة التعظيم ، ومبادئ رتبة التكريم ، ولهذا المعنى تكررت القراءة بالفاتحة فى ركعات الصلاة لاشتمالها على معانٍ لا يفى غيرها بها ، ولا يقوم سواها مقامها وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى فى الطرف الثالث .

---

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩) ، والترمذى (٢٧٥٥) ، وأحمد (٤/٩٣ ، ١٠٠) ، والطبرانى فى الكبير (١٩/٣٥١، ٣٥٢) ، وغيرهم من حديث معاوية به نحوه .

(٢) (إسناده ضعيف) أخرجه أبو داود (٥٢٣٠) ، وابن ماجه (٢/٤٣١) ، وأحمد (٥/٢٥٣ ، ٢٥٦) ، والرُّوْيَانى فى مسنده (٣٠/٢٢٥/٢) ، وغيرهم من حديث أبى أمامة ، والحديث فيه ثلاث علل :

الأولى : الاضطراب ، قال الألبانى فى الضعيفة (١/٣٥٢) : « وهذا اضطراب شديد يكفى وحده فى تضعيف الحديث » .

والثانية : لين أبى مَرْزُوق وضعفه .

والثالثة : جَهَالة أبى العبيس ، وبهذا أَعلَّه العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٢/١٨١) ، وَرُوِيَ معناه فى أحاديث صحيحة .

ثم الإتيان بما تيسر من القرآن بعدها لأنَّه كلام الله ووحيه المنزل على رسوله ﷺ وهو أشرف الكلام ، فاختص بأَشرف القرب وأدعاها إلى تعظيم المعبود وهو القيام ولم يعين منه شيئاً ليتخير المكلف من ذلك ما لاق بصدره وحسن وقعه فى خاطره ودعاه إليه ما يقوم من الخضوع والخشوع بفكره ، والصلوات تختلف القراءة فيها بحسب طولها وقصرها كالصبح ، والعشاء ، والظهر ، والعصر سرًّا وجهراً .

الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاة الصُّبح :

والحكمة فى طول القراءة فى الصبح والجهر فيها واختصاصها بركعتين : أنَّ المصلى لها ينتقل من نوم ليل طويل وغفلة كبيرة فكانت القراءة طويلة تتكرر على السَّمع وتستقر فى الذّهن فيترقى فهمه للتلاوة ويكثر تدبره لما يسمع منها أولًا فأولًا وحتى يدرك الصلاة من قصدها من بعد لما سبق من استقرار الناس ليلًا فى بيوتهم ، ولترتفع الملائكة المتعاقبة إلى السماء بعمل زكى فيه على النفوس مشقة

وأما الجهر ، فلأنَّ اللسان قد سكن عند النوم والفكرة قد اتصلت بما كان عليها مستولياً ، ولذلك أُمر بالذِّكر والقراءة عند النوم ، وقد جالت الروح فى عالم الملكوت بما غلب ، فاقتضت الحكمة أن يخالف بين الفعلين وخصت هذه الصلاة بالجهر ليكون السِّر تابعاً للجهر والجهر شاغلًا عن الفكر ناقلًا عن السكون إلى الحركة ، ولأنَّ الأفعال المحسوسة تدرك ، إما بالسمع أو بالبصر والبصر يتعلق بالنهار والسمع بالليل وهى بصلاة الليل أَشبه لاتصالها بآخره ، فاقتضت الحكمة أنْ يكون لحكمة تابعة .

وأما اختصاصها بركعتين فلأنَّه لما سبق الوتر لصلاة الليل وحصل ختم الصلاة به كالطابع عليه وقع البداية بالشفع وهو مثلًا الوتر ليقع الختم بالوتر لصلاة النهار بالمغرب فجعل الشارع للصلوات الخمس وترين ، المغرب لصلاة النهار والوتر لصلاة الليل ، فقد خرج النسائى من حديث ابن عمر

(رضى الله عنهما) عن النبى ﷺ قال : « صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَتْرُ صَلَاةِ النَّهَارِ فَأَوْتِرُوا صَلَاةَ اللَّيْلِ »[1] ، ومن هٰهنا ذهب أبو حنيفة (رضى الله عنه) إلى إيجاب الوتر فإنَّه يقول : لا يوتر الشيء إلَّا ما كان من نوعه واجباً قياساً على المغرب ، والشافعى ومن قال قوله : رأى أنَّ المغرب هى وتر صلاة الفرض ولأجل ذلك كانت المغرب متوسطة حتى توتر المجموع وليس من شرط الوترية التأخر ، بل من شرطها الوجود فى الجملة . والوتر إنما يوتر صلاة الليل النفلية ولأجل ذلك قال (عليه الصلاة والسلام) : « أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ »[2] وإنما خصَّهم بالذِّكر تشريفاً لهم وحضًّا لهم على قيام الليل والتلاوة للقرآن فى الليل .

الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاةِ الظُّهْرِ :

وأما الظهر فإنَّها أول صلاة ظهرت فسُمِّيت بذلك ، أو لأنَّها ظهر بفعلها جبريل (عليه السلام) للنبى ﷺ ، أو لأنَّها تفعل وقت الظهيرة ، وهى شدَّة الحر وظهوره فكانت سرًّا لأنَّ النهار يقتضى الحركة والبطش ، والنفس فيه متيقظة ساعية فى طلب معاشها ، فأمرت أن تصرف بعض ما هى فيه من يقظتها إلى سرها وتعميره بالتلاوة والتدبر وحصر الحركات على هيئة واحدة فى المناجاة ، واختصت بالحصر بأربع ليتعرف الناظر مراتب الأعداد من ذلك ويترقى إلى فهمها فإنَّ مراتب الأعداد أربع : الآحاد والعشرات والمئين والألوف ، ومنشؤها من الواحد والاثنين بناء على أن العدد فى مصطلح الحساب ما هو ولأجل ذلك أقْسَم الله بالشَّفع والوتر

---

(١) (صحيح) أخرجه النَّسائى فى الكبرى (١/٥٨٦) ، وأحمد (٢/٣٠) ، وغيرهما من حديث ابن عمر به .

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود (١٤١٦) ، والترمذى (٤٥٧) ، والنسائى (١٦٧٥) ، وابن ماجه (١١٦٩) ، وأحمد (١/١١٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨) ، والحاكم (١/٣٠٠) ، وغيرهم من حديث على بن أبى طالب به .

فى كتابه العزيز ليتدبر المعترف بنعمه معنى خطابه فقال : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ (١) فقد جمعت الصلوات الخمس مراتب الأعداد ليتوفى كل واحد من المراتب حقه ، وكانت القراءة فيها طويلة لأنَّها تقام فى وقت الاشتغال بطلب المعايش والألفة لها فطولت القراءة فيها حتى يحصل التكفير لما مضى والأسف على ما فات من البطالة والاشتغال بغير ذكر الله تعالى ، ولأنَّ المشركين بمكة كانوا يسبون القرآن عند سماعه فكانت الظهر والعصر سرًّا حتى لا يسمع المشركون ما يتلى فيهما والنهار هو مظنة اجتماعهم وقد ورد فى الحديث : « صَلَاةُ النَّهَارِ عَجْمَاءُ » (٢) .

الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاةِ العَصْرِ :

وأما صلاة العصر فكانت القراءة فيها أقل من الظهر لقرب العهد بالصلاة فيما بين الوقتين ، واختلف فى سنتها ، فقيل : ليس لها سنة ، وقيل : بل سنتها أربع قبلها ليتنبه فيها من الغفلة السابقة ويحضر فى صلاته .

الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاةِ المَغْرِبِ :

وأما المغرب فكانت ثلاثاً والقراءة فيها قصيرة وبعضها سر وبعضها جهر ، لأنَّها إما وتر فرض الخمس أو وتر الصلاة النهارية والأَولى أنها وتر المجموع من فرض الليل والنهار ولأجل ذلك كانت فى الوسط حتى توتر السابق واللاحق وجمع فيها بين السر والجهر حتى تضرب مع كل منها بنصيب ، وافتتحت بالجهر شعاراً ودلالة على دخول الليل ، وختمت بالسر ليقع الوتر لما تقدم من فرض النهار بنوعه .

---

(١) سورة الفجر ، الآيات (١ ، ٢ ، ٣) .

(٢) (باطل) قال العَجْلونى فى كَشْفِ الخفاء (١/٣٦) : « قال النَّووى فى شرح المهذب فى الكلام على الجهر بالقراءة : (إنَّه باطل لا أصل له) ، وقال الدَّارقُطنى : (لم يُرْوَ عن النبى ﷺ ، وإنَّما هو من قول بعض الفقهاء) ، وحكاه الرُّوْيانى فى بَحْره ، وقال : (المراد أن معظم الصلوات النَّهارية لا جهر فيها) ، وذكره غيره أنَّه من كلام الحسن البصرى ، وقال القارى : (وهو وإنْ كان باطلًا لكنَّه صحيح المعنى) » اهـ .

الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاة العِشَاء :

وأما العشاء فكانت أربعاً والقراءة فيها متوسطة ونصفها المتقدم جهراً والآخر سرًّا لتكون من نوع صلاة النهار الرُّباعية فى الليل ، ويتميز الأَول بالجهر للدلالة على أنها ليلية والسر فيها تبع والتابع فيها يتأخر عن المتبوع والزمن لليل فكان الجهر أسبق .

سَبَبُ اختصَاص الصَّلَوَات الخَمْس بِهَذِهِ الأَوْقَات :

فإن قُلْتَ : ما وجه اختصاص الخمس الصلوات بهذه الأَوقات ؟! قُلت : كان مقتضى التَّعَبُّد بشكر المُنْعِم أن يكون الوقت كله معموراً بالخدمة لله وحده لكنَّه لما علم ضعف البشرية عن الوفاء بالقيام بحقوق العبودية لواجب الربوبية عين فى النهار واليل أوقاتاً معينة لعمل معين على مكلف بتكرر الليالى والأَيام ، وجعل ذلك العمل يشتمل على أعمال جامعة لقرب متنوعة متعددة ، منها متقدمة عليه كالطهارة بالماء فى الحدث والنجس واستقبال القبلة ، ومنها مندرجة فيها كذكر الله بأنواع من الأَذكار فى هيئات مختلفة شاملة لأعداد أنواع التعظيم المعلوم فى العادات الجارية بين البشر ليتخصص بالتعظيم الذى لا يشاركه فيه غيره ، ولهذا قال (عليه الصلاة والسلام) : « لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا » [1] لما فى السجود لغير الله من الإخلال بواجب الأدب مع الله ، ففرض على العباد بعد الزوال صلاة الظهر ، لأن العادة مع بنى آدم جارية بالسعى فيما يقيم به مصالحها من المعايش المالية كالتجارة ، والبدنية

---

(١) (صحيح) أخرجه الترمذى (١١٥٩) ، وغيره من حديث أبى هريرة به ، وقال الترمذى : « وفى الباب عن معاذ بن جبل ، وسراقة بن مالك بن جعشم ، وعائشة ، وابن عباس ، وعبد الله ابن أبى أوفى ، ... » .

كالصناعة من البناء والنجارة ولأجل ذلك قال (عليه الصلاة والسلام) : « بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا »(١) فلا تزال النفس لاهية بما هى فيه ، حتى يلحقها الضجر والسآمة ، فتطلب راحتها وذلك عند شدَّة الحر وقيام الظَّهيرة ، فأمرت باستدراك ما فرط منها بالتَّوجه والشُّكر بما أَنْعَم به عليها مولاها من خلقها فى أحسن تقويم ورزقها ما تستغنى به عن الاحتياج لغيره من صحة لبدنه فى عمل صناعة أو خدمة أو مال يتصرف فيه أو سلطان يدبره فكأن لسان الحال يعبر بأن يقول : كما كنت تدأب فى مصالحك لأجل دنياك فادأب لأجل أُخراك واستعد لأداء وظيفة الخدمة وتجديد العهد باليقظة عن الغفلة فإنَّ ذلك وقت الدعة والقيلولة وطلب النفس الراحة ، والحكمة فى الإسرار بها أنَّ النهار وقت حركة وتشتت خواطر ولغط وصخب ولذلك ورد فى الحديث : « صَلَاةُ النَّهَارِ عَجْمَاءُ »(٢) فلو جهر بالقراءة فيها لوقع التبدد فى فكر القارئ والمستمع ، فإنَّ الصلاة تارة تقع فى موضع حال ، وتارة تقام فى مقام أهل الاعتبار بالأغلب لا بالأقل ، ويقال : إنَّ الصلاة كانت جهراً فى الظهر والعصر بمكة ، فكان المشركون يؤذون النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين ، فلما قَدِمَ المدينة أمن منهم فأقرها ليتأسى بذلك من اتبعه فى الإسرار وجعل لهم الجُمُعَة عوضاً عمَّا فات من صلاة النهار الجهرية فى كل أُسبوع مرة ، وخصصها بشروط تنبيهاً على شرفها ليذكرهم بما ينفعهم ، ويبصرهم بما يرفعهم .

* * *

---

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود (٢٦٠٦) ، والترمذى (١٢١٢) ، وابن ماجه (٢٢٣٦) ، وأحمد (٣٨٤/٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١) ، وغيرهم من حديث صَخْر الغامدى بلفظ : « اللَّهُمَّ بَارك لأُمَّتى فى بكورها » .

(٢) (باطل لا أصل له) ، وتقدم الكلام عليه .

الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ ببعض الصَّلَوَات :

● وإذا آل الكلام بنا إلى هذا المقام فلنذكر الحكمة فى الجمعة ، والعيدين ، وصلاة الكسوف ، والاستسقاء ، والخوف ، وصلاة الجنازة فنقول :

أوَّلًا : الحِكَمُ المُتَعلِّقَة بِصَلَاة الجُمُعَة :

● أما صلاة الجمعة فاختصت بالجهر وركعتين لتباين ظهر كل يوم فى العدد وفى صفة القراءة ، ولما كان الخلق لاستيلاء الغفلة عليهم لابد لهم من مذكر جعل التذكير فى كل أُسبوع واشترط فى ذلك العدد ليتذكر من حضر هول المحشر ، واجتماعٓ الخلق فيه لفصل القضاء ، فكان ذلك جامعاً لأهل البلدة الواحدة وما قرب منها ، وكانت القراءة جهراً لأنَّ القصد بذلك الوعظ فحصل بالخطبة ، وسماع القرآن ، وتقدمت الخطبة ليتوطأ ذهن المستمع لها لاستماع كلام الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ فى الصلاة بخشوع وحضور قلب ، وكان لا يمكن ذلك بمكة لكثرة الأعداء ، فلما قَدِمَ (عليه الصلاة والسلام) المدينة أمن فدعاهم وذكرهم وهداهم وبصرهم ، واختصت الأُولى بقراءة سورة الجمعة (١) لمناسبتها إيجاب السَّعى لها وذم اليهود ، وتركهم لما تحملوه من أحكام التوراة وإلزامهم الحجَّة بتمنى الموت وامتناعهم عنه وتحريض المسلمين على ترك اللَّهو والتجارة عند الأفعال المقربة من الله تعالى ، واختصت الثانية بالمنافقين ، لأنَّ الأُولى لما ذكرت ما عليه من حيث الجهر بحيث المعاداة (٢) تعرض فى الثانية لحال المنافقين وإسرارهم لعداوة الدِّين فذمهم وحذَّرَ منهم ، وبين اضطرابهم وعدم ثباتهم فى الدِّين وصرَّح

---

(١) والقراءة فى صلاة الحمعة متنوعة ، فقد ورد عن النبى ﷺ : « أنه كان يقرأ الجمعة ، والمنافقون » رواه مسلم وأبو داود ، وتارة يقرأ : « سبح اسم ربك الأعلى » ، وفى الثانية : « هل أتاك ... » رواه مسلم وأبو داود ، وتارة يقرأ : « الجمعة والغاشية » رواه مسلم وأبو داود .

(٢) كذا بالأصل .

بالتحذير منهم لتقع المجانبة لهم فناسب ذلك قراءة السورتين ليحصل التأدب لسامعها بما اشتملتا عليه . وسُنَّة الجمعة كسنة الظهر على ما هو المختار عند الأئمة من أصحاب الشافعي (رضى الله عنهم) ، قُلْتُ : ولما كانت الجمعة إما بدل الظهر أو صلاة مستقلة كان الأَولى أن تكون لها سنة مثل الصلاة التى أُقيمت هى فى وقتها جبراً لنقصها وقد ورد فى الحديث : « مَنْ كَانَ مُصَلِّياً بَعْدَ الْجُمُعَةِ فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعاً »[1] فهذا ما يتعلق بالجمعة .

ثانياً : الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاةِ العِيدَيْنِ :

وأما صلاة العيدين فإنَّما تقدمت الصلاة مع حصول التذكير بنداء الصلاة جامعة ليخالف ما سبق من الجمعة ، ولو تقدمت الخطبة لأشبهت الجمعة فناسب تقديم الصلاة والجهر فيها والتكبير فى أول كل واحدة من الركعتين وافتتح بها اليوم ليتفرغ الناس فى باقى النهار لأشغالهم ، وشرع فيهما قراءة سورة ﴿ قٓ ﴾ ، ﴿ وَاقْتَرَبَ ﴾[2] ، أما الأُولى فَلِمَا فيها من ذكر تعجب الكفار من المنذر لهم وهو الرسول (عليه الصلاة والسلام) بالرجعة والتكذيب بها وبيان النِّعم المتعددة من : خلق السموات والأرض ، وإنزال الماء ، وإنبات الزرع والأشجار والنخيل لمعايش العباد ، ثم الوَعْظ بمجيء سَكْرَة الموت ، والنفخ فى الصور بحشر الأجساد للمعاد ، وأمر الجنَّة والنار ، والإرث للأرض ومن عليها ، والإحياء والإماتة والإهلاك لمن تعاطى العزَّة والجبروت ، فاشتملت على شكر المنعم والحذر من عقوبته والعلم بعظمته وعِزَّة شأنه وقهره للموجودات وإبدائها وإعادتها ، وذلك كله مما

---

(١) (صحيح) أخرجه مسلم (٨٨١) ، وأبو داود (١١٣١) ، والترمذى (٥٢٣) ، والنَّسائى (١٤٢٦) ، وابن ماجه (١١٣٢) ، وأحمد (٢/٢٤٩ ، ٤٤٢ ، ٤٩٩) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة به نحوه ، واللفظ للترمذى .

(٢) وكان ﷺ يقرأ فى صلاة العيد أيضاً فى الأولى : « سبح اسم رَبِّكَ الأَعْلَى » ، وفى الأُخرى : « هَلْ أَتَاكَ ... » رواه مسلم وأبو داود .

يقلق النفوس ويخوفها ويزعجها عن الإخلاد إلى حضيض شهواتها وعريض مشتهاتها ، وأما فى الثانية فَلِمَا فيها من اقتراب الساعة وحال الأمم المكذبة من قوم عاد وثمود وقوم لوط ، وأمر المجرمين والمتقين من مآلهم إلى العذاب الأليم والنعيم المقيم ، وإحصاء الأعمال من صغير وكبير ، فاشتملت على الزجر عن ارتكاب هذه الخلال ، والعلم بما إليه مآل تلك الأحوال ، تحذيراً لمن سمعها من المكذبين أن يناله ما نال من سبق من المعذبين ، ولما كان القصد بهما الاجتماع لأهل البلد وما والاها من القرى المصافية له والمضافة إليه لأجل تألف القلوب واجتماع الكلمة تأخَّرت الخطبة لأنَّ مِنَ الناس من له أشغال فيها ضرورات ، فإذا قضوا وظيفة الصلاة كانوا بالخيار فى الاستماع والترك ، وقد اعتبرنا مقاصد الشرع فى الاجتماع فوجدناها تدور على قيام الألفة وتمام المحبَّة فلأجل ذلك شرع الجماعة فى الصَّلوات الخَمْس فى مساجد أهل الحارات كل يوم ، ثم فى الجُمُعَة مرة لأهل البلد المحتوى عليه السور وربضه ومن سَمِع النِّداء ، ثم فى العِيد لمن بَعُد عن البلد من أهل القرى ، ثم فى العام مرة فى مكان مخصوص كالحجّ لأهل الآفاق فهذا ما يتعلق بالعيدين .

ثالثاً : الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاة الكُسُوف :

وأَمَّا صلاة الكسوف فلتعظيم المعبود بإدامة الخوف وإقامة الحذر إذ كان هذا المخلوق الأعظم يطرقه ما أزال بهجته ونوره ، وحصل له التناثر والتغير فما ظَنك بغيره من المخلوقات الضعيفة ، وأمَّا اختصاص صلاتها بقيامين وركوعين مخالفة لباقى الصلوات لأن وقت التجلّى غير معلوم فكأنه (عليه الصلاة والسلام) قد ركع وأطال أولًا ثم رفع فعلم بقاء الكسوف فأطال فى القيام الثانى ثم كذلك ولذلك نقل عنه الاختلاف فى عدد ركعاته فى صلاة الكسوف [1] .

---

(١) اتفق العلماءُ على أن صلاة الكُسوف سُنَّة مُؤكدة فى حق الرِّجال ، والنِّساء ، ... ، =

رابعاً : الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاة الاسْتِسْقَاء :

وأَمَّا صلاة الاستسقاء فللتضرع والخضوع للمعبود فى كشف ما نزل من الضّر أو حصل من الأسر، وقد نبَّه اللَّهُ على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا** ﴾[1] فهى طلب السقيا بالتذلل والتبذل طمعاً فى فضل الله ورحمته

خامساً : الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاة الخَوْف :

وأَمَّا صلاة الخوف فرفقاً بالمكلفين وصيانة لهم عن الوقوع فى الخطر باستعمال الحذر ، والتأهب لما يخشى من هجوم الضرر .

سادساً : الحِكَمُ المُتَعَلِّقَةُ بِصَلَاة الجِنَازَة :

وأَمَّا صلاة الجنازة فشفاعة فى الميت ، وثناء على المعبود ، وتذكراً للموت ، وتأهباً لنزوله . وأَمَّا تغسيله فتنظيف لما على بدنه من الأوساخ والنجاسات إنْ كانت تقع الصلاة على جسد طاهر والشفاعة له فليقدر المصلى عليها فى خاطره أنه عبد مسرف على نفسه، وأنه لابد من مثل هذا المصرع برواحه أو بعدانه ، وأنه لم يستعد له فليكثر الأسف والتلهف على ما فات من تفريطه وليعتبر بحال هذا الهول وفظاعته ، فيسأل الله تعالى الإعانة على ما يتوقع منه ، فهذا وظيفة المصلى على الجنازة ، وإنما أسقط

= والجمهور على أنَّها ركعتان فى كل ركعة ركوعان ، لما صح عن عائشة وابن عباس (رضى الله عنهما) .

وقال ابن عبد البر : « هذان الحديثان (حديث عائشة وابن عباس) من أصح ما رُوِىَ فى هذا الباب » ، وقال ابن القيم : « السنة الصحيحة الصريحة المحكمة فى صلاة الكسوف تكرار الركوع فى كل ركعة ، ... » .

وهذا مذهب مالك ، والشَّافِعِىّ ، وأحمد ، وذهب أبو حنيفة إلى أن صلاة الكسوف ركعتان على هيئة صلاة العيد والجمعة لحديث النُّعْمان بن بشير ، وقال الألبانى فى تمام المنة (٢٦٢) على مذهب أبى حنيفة : « قلت : هذا مذهب غير صحيح ؛ لأنَّ الحديث (أى حديث النُّعْمان) غير صحيح فإنَّهُ مُضطرب ، ... مخالف للسنة الصحيحة » .

(١) سورة الأنعام ، الآية (٤٣) .

منها الركوع والسجود لأَنَّها خصصت بالشفاعة إلى الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ والدُّعاء للميت وهو المقصود الأعظم منها ولو وقع فيها ركوع وسجود لأشبهت ما يقصد به التقرب لله وحده من الصلوات ولتوهم من لا تعقل له أن الفعل للميت المواجه به ، وقد كان (عليه الصلاة والسلام) ينهاهم عن السجود للأحياء فما ظنك بالأموات فاندفع هذا الوهم ، وجعل الشارع فيها وجود القيام محصلًا للمرام من التضرع لخالق الأنام مستجلباً للرحمة منه على من يخشى عليه من سيء عمله قيام الانتقام .

الحِكَمُ من تَخْصِيص الصَّلَوات بِالأَوْقَاتِ الخَمْس :

رجعنا إلى تخصيص الصلوات بالأوقات الخمس ، فإذا قضى وظيفة الظهر اشتغل بنوم أو راحة أو بما يبقى له من المصالح وتلك غفلة متجددة إلى وقت العصر فأمر بفعل العصر تكفيراً لتلك الغفلة وهو مثل نصف ما بين الصبح والظهر تقريباً لقلة الشغل فيه بالنسبة إلى الوقت الأول ، ثم أقبل الاشتغال بمصالحه فعاد إلى الغفلة إلى الغروب فكان الوقت مثل ما بين الظهر والعصر تقريباً فأمر بتجديد العهد للخدمة بفعل صلاة المغرب ، ثم الاشتغال بعدها فى جارى العادة ، إما بالحديث ، وإما بالعشاء ، وإما بالإحياء بالصلاة وإنَّما يقع ذلك من آحاد الناس وجعل فيها كنصف ما بين الظهر والعصر تقريباً بالاستيلاء النوم على الخلق لكثرة اشتغالهم فى نهارهم بمعايشهم فأُقيمت صلاة العشاء إيقاظاً للغافلين وإذكاراً للناسين ، وكان وقت الاختيار ممتدًّا إلى ثلث الليل وذلك بمثابة ما بين العصر والمغرب تقريباً شفقة على الخلق وتوسعة على أرباب الأشغال والأعذار ورحمة بهم وحناناً عليهم ، وامتد وقت الجواز إلى طلوع الفجر الثانى (١) وهو بمثابة ما بين وقت الصبح

(١) والحق فى ذلك أنَّ صلاة العشاء تمتد إلى نصف الليل الأوسط ، لما أخرجه مسلم وغيره من قول النبى ﷺ : « وقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط ... » ، ويؤيده ما كَتَب به عمر ابن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى « ... وأَنْ صَلِّ العشاء ما بينك وبين ثلث الليل ، وإنْ أخرتَ فإلى شَطر الليل ، ولا تكنْ من الغافلين » ، وانظر تمام المنّة للألبانى (١٤٠) .

والظهر تقريباً فقد تعرض الأشغال فى بعض الأَحوال لأقوام فطولت المدة رفقاً بمن يحتاج لذلك ، ثم يدخل وقت الصبح والنوم قد كحل بإثمده الأجفان ، والغفلة قد انتشر عملها فملأ الأكوان فأمر بالصلاة فى تلك الحال لتفارق ما ألفته النفس واستلذت طعمه بفعل تلك الصلاة ، وكانت جهرية لأنَّ سلطان الليل باق ما لم تطلع الشمس ، وطولت القراءة فيها لوجهين :

أحدهما : أَنَّ النفس أول شروعها فيها ليست بناشطة فى العمل لقربها من الغفلة والكسل ، فإذا طالت القراءة انتقلت عن ذلك بترتيب وتدريج وزيادة حضور .

وثانيهما : رفقاً بالمصلِّين حتى يدركوا ، فإن هذه الصلاة تفعل فى وقت نوم ولأجل ذلك خصّت بجواز تقديم الأذان على الوقت ليتأهب الناس لها والناس تختلف مراتبهم فى السرعة إلى الإجابة والإبطاء فمن تأَخَّر عن التأهب قبل فعلها أدرك عند تطويلها ، ووقع الاقتصاد على ركعتين لأنها ختام صلاة ليل ومفتتح صلاة نهار فكان لها تعلق بالطرفين فضربت بنصيب من الزمنين ، وغلب حكم الليل فيها لأنَّ أثره باق من النجوم والظلمة والقمر ، وسلطانه قائم ظاهر الأثر ، بخلاف سلطان النهار فإنَّه للشمس وهى مستترة خافية فكان الأظهر فى الحكم أقوى وليقع الجمع بين الشفع من الصلاة والوتر فى مفتتح الليل ومفتتح النهار بالصبح والمغرب ، وقدم الوتر لأنَّ الليل تابع النهار ، ولأَنَّ الوتر أصل الأَعداد ومنه تركيبها ، وخصّت بالقُنوت [1] إمَّا لأنَّها الصلاة الوسطى [2] على ما هو مذهب الشافعى

---

(١) ولقد تقدم الكلام عن القُنوت فى صلاة الصبح ، والصواب أنَّه لا يجوز إلَّا لنازلة ، ويكون ذلك فى جميع الصلوات الخمس .

(٢) قال ابن كثير (٢٥٢/١) : « وقيل إنَّها صلاة العصر ، قال الترمذى والبغوى (رحمهما الله) : وهو قول أكثر علماء الصحابة ، وغيرهم ، وقال القاضى الماوَرْدِىّ : هو قول جمهور التابعين ، وقال الحافظ أبو عمرو بن عبد البَرّ : هو قول أكثر أهل الأثر » وهذا الذى نميل إليه لما فى الأحاديث ما يؤيده والله أعلم » .

وقال ابن كثير (٢٥٢/١) : « وقيل إنَّها صلاة الظهر » .

ومالك (رضى الله عنهما) فجعل ذلك علماً عليها ، وإمّا لأنّها مفتتح صلاة اليوم وما بعدها فى حكم التبعية لها فتميزت بالدُّعاء لأجل السبق حتى يشمل بركة الدعاء العمل الذى يأتى بعدها فى ذلك اليوم فيرزق ما سأله فى صبيحة يومه من الهداية والولاية والبركة إلى غير ذلك ، وإمّا لشهود الملائكة لها وتعاقبهم فيها وارتفاعهم بأعمال العباد فترفع تلك الصلاة بعمل زائد كما قال تعالى : ﴿ ... وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ (١) ، والعصر وإن كانت شاركت فى التعاقب إلّا أَنَّ هذه فاقت بالسبق فى الأولية فكانت لها على غيرها المزية ، والمعنى بالسبق وجودها فى أول اليوم ولا نعنى أنّها أول الصلوات عند الفرض فعلًا ولا يلزمنا على هذا أن تكون العصر هى الوسطى لأنا قد اعترفنا بالسبقية للصبح لأنا لانعتبر الوسطى من حيث ابتداء الزمن وانتهاؤه ، وإنما نعتبرها من حيث الكمال والشرف من زيادة المشقّة وكثرة الكلفة ومجانبة ما استولى من الغفلة . والصبح أزيد مشقة وأعظم كلفة ولاسيما فى زمن البرد وشدته ، وغلبة النوم فى قصر الليل وطيب هجعته عند سحريته ، ولا كذلك العصر فإنّها تأتى والناس فى يقظة ، وضرر الحر والبرد قد انكسر ، وأمّا قوله (عليه الصلاة والسلام) : « شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ » (٢) فيحتمل أنه سماها وسطى بالنسبة لما قد فاته لأنّه نقل أنه فاته ثلاث صلوات أُولاهن الظهر فالعصر وسطى لفوائته ، لا أنّها وسطى للصلوات الخمس ، ومن روى من الناقلين أن الفوائت فى الخندق أربع صلوات فهو من باب التجوز فإنّ العشاء ما فات وقتها لأنّه يمتد إلى طلوع الفجر (٣) بخلاف ما قبلها

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٧٨) .

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٢٩٣١ ، ٤١١١ ، ٦٣٩٦) ، ومسلم (٢٢٦ ، ٦٢٧) ، وأبو داود (٤٠٩) ، والترمذى (٢٩٨٤) ، والنسائى (٤٧٣) ، وابن ماجه (٦٨٤) ، وأحمد (٨٢/١ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ... وغيرهم من حديث عليّ (رضى الله عنه) به .

(٣) سبق الكلام عن وقت العشاء ، وأنّه ممتد إلى نصف الليل .

فتخصصت الصبح بما قدمناه فكانت الوسطى ، ولما وجد الأمر بالقنوت ذكر الصلاة الوسطى وهو إما طول قيام أو السكون عن الحركة أو السكون عن الكلام أو إطالة الدعاء إلى غير ذلك ممَّا نقل فى القنوت احتمل أن يتعلق بالصلاة الوسطى والتقدير قوموا قانتين فى الوسطى ، فإنْ قيل : هى لا تعلم فكيف يؤمر بالقنوت فيها ؟ قلنا : من قام له دليل على أن الصلاة وسطى كان المخاطب بذلك وحمل بعض أئمتنا الآية على القنوت فى الصبح ولا دلالة فيها عليه ويحتمل أنه كلام مستقل لا تعلق له بالوسطى وإنَّما يتعلق بالصلوات التى تقام وهذا هو الأظهر . والمراد بالقنوت الطاعة كما قال تعالى : ﴿... كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (١)، وقد يطلق القنوت على الخشوع من حيث أنه لازم للطاعة فيكون المعنى وقوموا لله خاشعين كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (٢)، وله وجه ظاهر فإنَّ الصلاة الخشوع فيها مطلوب ومهما حصل الخشوع وجد السكون عن الحركة والسكون عن الكلام وإطالة الدعاء والقيام كما قال (عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام) : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَسَكَنَتْ جَوَارِحُهُ » (٣).

الخِلَافُ الوَارِد فى الصَّلَاة الوُسْطَى :

قُلْتُ : وإذا وقع التعرض لذكر الصلاة الوسطى فلنذكر الخلاف فيها مختصراً ، فنقول : قال قوم : إنها صلاة من الصلوات الخمس مبهمة ، وقال قوم : بتعيين صلاة من الخمس أنَّها الوسطى للخمس ، وقال قوم : الجمعة

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١١٦) ، والروم ، الآية (٢٦) .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية (٢) .

(٣) (موضوع) أخرجه الحكيم التِّرمِذِىّ فى « نوادر الأصول » ، كما ذكره المناوى فى فيض القدير (٣١٩/٥) ، وفى سنده أبو داود النَّخَعِىّ (سليمان بن عمرو) ، قال ابن عدى : « أجمعوا على أنه كان يضع الحديث » ، وقال ابن حبان : « كان يضع الحديث وضعاً » ، وقال أحمد : « كذَّاب » ، وانظر الميزان (٤٠٦/٢) ، ورواه ابن أبى شيبة فى مُصنفه (١/٥١/٢) موقوفاً على سعيد بن المسيب بسند ضعيف لجهالة أحد رجال الإسناد .

واختاره بعض المحققين العارفين ، ولعله هو المذهب المترجح لمن رزق البصيرة فى فهم المعانى فإنَّها تخصصت بمعانٍ زائدة على باق الخمس ، وفيها أقوال غير ذلك أضربنا عن ذكرها وظاهر الأحاديث يقتضى أنها العصر وهو اختيار بعض الشافعية ونقل عن على (رضى الله عنه) وغيره . والصواب أن يقال : إنَّ الصلاة الوسطى مبهمة معلومة لله مجهولة للمكلف حتى يحافظ على مُسمَّى الصلاة من الخمس وغيرها والإبهام ثمرة تجتنى من حيث إن المحافظة تقع على ما يدخل تحت اسم الصلاة فيصادف المكلف الوسطى منها فيظفر بالمقصود من الامتثال كما أبهمت ساعة الجمعة وليلة القدر ولا يعترض علينا بالخلاف الواقع فيهما لامتناع التعيين فيهما عند القائل بخلافه فيقع التنازع فيقع بالإبهام التعيين وبما ذكرناه تم النوع الأول من القيام .

النَّــوعُ الثَّـانى
الرُّكُوع وَمَا يَتَـعَلَّقُ بِـهِ مِن أَذْكَار وَحِكَم

لما ابتدأ بالتعظيم بالقيام انتقل إلى ما هو أبلغ منه وهو الركوع طمعاً فى القرب من المعبود وتحصيل الرضا منه على المتعبد بزيادة الذل والخضوع ، وتخصص من الذِّكر فيه بقوله : « سُبْحَانَ رَبِّى الْعَظِيمِ »[(١)] لأنه لما أثنى على الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ فى القيام بالكمال وسؤال الهداية زاد لما انتقل إلى خضوع أتم فعلًا بالركوع وقولًا بالتنزيه له عن النقائص والاعتراف بالعظمة له فى تلك الحال من الذلة والخضوع ، وبقوله : « اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْت » : أى خضعت « وَلَكَ أَسْلَمْتُ » : أى انقدت لأمرك ونهيك وقضائك « وَبِكَ آمَنْتُ » : أى صدقت « أَنْتَ رَبِّى » : أى سيدى المربى لى بنعمه ، « خَشَعَ سَمْعِى » : أى أطاع وسكن « وَبَصَرِى » كذلك « وَعِظَامِى وَشَعَرِى

---

(١) (صحيح) أخرجه مسلم (٧٧٢) ، وأبو داود (٨٧١) ، والترمذى (٢٦٢) ، والبيهقى (٨٥/١) ، وغيرهم من حديث حذيفة (رضى الله عنه) به .

وَبَشَرِى وَمَا اسْتَقَلَّ بِهِ قَدَمِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[1]، والمراد انقياد جملته وتفصيله لعظمة الله وجلاله .

الأَذْكَارُ عِنـدَ الرَّفْعِ مِنَ الرُّكُوعِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا من حِكَم :

ثم يرفع رأسه قائلًا : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ »[2] لأنه قد سبق منه الافتتاح بالحمد فى أول صلاته ، ثم فى كل ركعة فيكون هذا جواباً لما سبق ، والمعنى : الله تعالى يستجيب حمد حامده ، وله الحمد استحقاقاً لجلالته واستغراقاً لضروبه وإن تعددت محالها ، ثم وصفه بقوله : « حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ »[3]، فالكثير السالم عن القِلَّة والطَّيب عن الخبيث وهو المردود بالغَفْلة والسَّهو على فاعله والمبارك هو الزائد الثابت خيره ونموه ، ثم قال : « أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ »[4]: أى إنك أهل أن يثنى عليك لوجود صفة الكمال الثابتة لك « حَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ » : أى ثابت مستقر ما وصفتك به من وجود الكمال وعدم النقص لك فلا يتحول ولا يتبدل « كُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ » الضمير يعود إلى من يعقل فيحتمل أن يعود إلى العبد المصلِّى وتكون الألف واللام للعهد ، أى القائل من المصلين للحمد هو صادق فيه ، ويجوز أن تكون للاستغراق والمعنى ثابت ما قال العبد المطلق عليه اسم العبودية من الحمد ويعود الضمير إلى كل حامد مصليًا كان وغير

---

(١) (صحيح) تقدم من حديث على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) .

(٢) ، (٣) (صحيح) أخرجه البخارى (٧٩٩) ، والنسائى (١٠٦٢) ، ومالك فى الموطأ (١/٢١١ ، ٢١٢) ، وأحمد (٤/٣٤٠) ، والبيهقى (٢/٩٥) ، وغيرهم من حديث رفاعة ابن رافع (رضى الله عنه) به .

وقال ابن حَجَر فى الفتح (٢/٣٣٥) : « واسْتُدِلَّ به على جواز إحداث ذكر فى الصلاة غير مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور ، وعلى جواز رفع الصوت بالذكر ما لم يُشوِّش على من معه » .

(٤) (صحيح) أخرجه مسلم (٤٧٧) ، والبيهقى (٢/٩٥) ، وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) به .

مصلٍّ ، فإنَّها كلمة صدق كما قال تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً ﴾ (١) : أى خاضعاً ذليلًا ، وأصل التعبد التذلل ، ومنه قولهم : بعير معبد ، أى مذلل بالركوب والمهنة ، والعبد ضد الحر لاستيلاء سلطان الملك عليه بالمنع من التصرف فى نفسه أين أراد فهو ذليل بذلك ، ثم أثنى على الله بكمال قدرته فى عمومها ونفوذ إرادته فى خصوصها بإيجاد بعض المقدورات بقوله : « لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ » : أى لا يقدر أحد على المنع لسبق ما وقع من الهداية بالإيمان الذى الصلاة من ثمرته ونتيجته فكأنه قال : لا مانع لما مننت به من إعطاء الهدى والإيمان أو من الإيجاد بعد العدم أو من الأرزاق عند الحاجة إليها « وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ » من التوفيق أو من الأرزاق ، ثم قال : « وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ » المراد به سلب المنفعة عنه تحقيقاً لعجزه ، أى لا قدرة نافعة مؤثرة لمن له جد فى هذه الدار على جلب محبوب أو دفع مكروه لا عن نفسه ولا عن غيره « مِنْكَ الْجَدُّ » منك الحظ والعظمة والشرف والرفعة النافعة للعبد إن أنلت ذلك له حالًا ومآلًا ، وفى هذا دفع للخيال المتوهم فى الأنفس من ربط الأحكام بالأسباب وإنَّما ذلك معهود لمن هو كثيف الحجاب ، مأسور فى قيد غفلته عن قرع الباب ، ومن كان واقفاً مع عوائد نفسه ، لم تشرق عليه من مولاه أنوار قدسه ، وأخلق بمن صدق فى توجهه إلى الله أن يخرق له العوائد ، ويجزل لديه الفوائد ، وبه تم النوع الثانى من الركوع .

* * *

(١) سورة مريم ، الآية (٩٣) .

النَّـوعُ الثَّالِثُ

السُّـجُودُ وَمَا يَتَعَـلَّقُ بِـهِ من أَذْكَار وَحِكَم

لما كانت مراتب التعظيم ثلاثة : الابتداء ، والوسط ، والنهاية ، مضى اثنان منهما وهما القيام والركوع وبقى الثالث وهو السجود فانتقل إليه بعد القيام من الركوع ليخر لله على وجهه من قيام كما قال تعالى : ﴿ ... **يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً** ﴾[1] وهذا من نهاية المبالغة فى التعظيم وعلامة الزيادة فى شكر المنعم إذ أهله لأن أقامه فى الخدمة وفضله بأن شمله برحمته ، وكانت العجم تعتمد الركوع والسجود فى خدمتها لملوكها ورؤسائها لأنه أبلغ فى الذل وأدعى إلى انقياد النفس لأنَّ الوجه أشرف شيء فى الجسد ، وكانت العرب لما جبلت عليه أنفسها من الإباء تأنف من ذلك وتشمخ بآنافها عنه ولا ترضى لأنفسها بذلك فإنه عندها خطة خسف ولذلك ورد فى الحديث « لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا »[2] ، وصح فى الحديث « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ »[3] وذلك لأن العزيز بقدر التذلل له بالمطاوعة والانقياد لأوامره والمسارعة إلى محابه والتعبد له بتعظيم جنابه يقع نيل القرب منه بقرع بابه ويقول : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى »[4] لأنه لما تلبس بفعل غاية الخضوع والخشوع من تعفير وجهه وإلصاق أشرف ما فيه بما كان يطؤه برجله من التراب ، قابل ما هو عليه من الذل والانحطاط بالثناء على الله بالعلو الذى يستحقه لذاته وأتى بلفظة أفعل المقتضية للمبالغة ، أى أعلا من كل عالٍ يعتقد فيه شيئاً من العلو وكل علوّ سوى علوه فإنَّه وهم ومن علوه يستفاد كل علو .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (١٠٩) .
(٢) (صحيح) تقدم تخريجه .
(٣) (صحيح) تقدم تخريجه .
(٤) (صحيح) تقدم تخريجه .

الْأَذْكَارُ عِنـدَ الرَّفْعِ مِنَ السُّجُود وَمَا يَتعَلَّقُ بهَا من حِكَم :

ثم يرفع رأسه جالساً ويذكر ما تقدم ذكره من الدعاء وقد صَحّ فى الحديث أنه يقول : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ثَلَاثاً » [1] وهو قول الإمام أحمد وأوجبه للحديث ، والحكمة فيه : أنَّه لما أثنى على الله بالعلو وعلم ما عليه نفسه من العجز والمخالفة سأل المغفرة لما قارفه ، ثم يسجد ثانياً على ما تقدم ، وقوله فى السُّجود : « سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِى خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ » [2] لما كان الوجه أشرف شيء فى الجسد من الأعضاء لاشتماله على النُّطق وأنواع الإدراكات وأسباب الحياة من النفس وتناول الغذاء حسن مدح خالقه بما خصَّه به من ضروب الكمال ، وقد نَبَّه الله تعالى على ذلك بقوله الحق : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [3] ، وقال تعالى : ﴿ **الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ** ﴾ [4] ، وقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ...** ﴾ [5] ، وقوله : ﴿ ... **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [6] . فالخلق ، هو : تقدير الشيء على هيئة خاصة ، والبركة : الزيادة ، فالمعنى : زادت عظمة الخالق لصورة الإنسان فإنَّها اشتملت من المعانى الجميلة على ما لم يجتمع فى شيء من الحيوانات وجعله أحسن الخالقين ، يعنى بالنسبة إلى ما قام فى الأذهان من الأوهام أن ثم خالق حقيقة وليس كما زعمت ، بل لا خالق على الحقيقة سواه ، وإنْ خلق سواه شيئاً من صور الحيوان فإنَّه يحكى ما رأى لا حقيقة لخلقه ولأجل ذلك قال : « وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ » :

---

(١) (صحيح) أخرجه مسلم (٧٧٢) ، وأبو داود (٨٧٤) ، والترمذى (٢٧٠) ، والنسائى (١٠٦٩) ، وابن ماجه (٨٩٧) ، وأحمد (٣٩٧/٥ ، ٣٩٨) ، والبيهقى (١٢١/٢ ، ١٢٢) ، وغيرهم من حديث حذيفة بلفظ : « رب اغفر لى ، رب اغفر لى » .

(٢) (صحيح) تقدم تخريجه .

(٣) سورة التين ، الآية (٤) .

(٤) سورة الانفطار ، الآية (٧) .

(٥) سورة آل عمران ، الآية (٦) .

(٦) سورة المؤمنون ، الآية (١٤) .

أى خلق فيهما إدراكاً ولا قادر على خلقه سواه فكان أحسن الخالقين من حيث خلق الإدراك فى تصوير وسواه وإن صور محاكياً لصوره فلا قدرة له على خلق الإدراك وليس فيه إدراك فأشبه الجماد ، فقد جمعت الركعة بين قيامين وسجودين وقعودين عند من يرى جلسة الاستراحة وهو قول جمع من العلماء وأظهر قولى الشافعى لحديث مالك بن الحُوَيْرث (١) ليحصل التعبد من أنواع الحركات العادية فى طاعة الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ بمبادئ الخضوع :

---

(١) **جِلْسَة الاسْتِرَاحة** : هى جلسة خفيفة يجلسها المصلى عند القيام للركعة الثانية والرابعة ، وهى ثابتة بقول مالك بن الحُوَيْرث : « ... فإذا رفع رأسه من السجدة الثانية فى أول ركعة استوى قاعداً ... » رواه الشَّافعى فى الأم ، والنّسائى ، وابن أَبى شَيْبة ، وقوله : « ... وإذا رفع رأسه عن السجدة الثانية جلس ، واعتمد على الأرض ثم قام » رواه البخارى .

وقد قال بمشروعيتها الإمام الشافعى ، وأحمد كما فى « تحقيق ابن الجوزى » (١١١/١) ، وأما ما ذهب إليه الحنفية إلى أنَّها لا تشرع إلا للحاجة فهو باطل ، ولا دليل عليه ومخالف للسنة الصحيحة الثابتة ، وانظر إرواء الغليل (٨٢/٢ ، ٨٣) ، قال ابن القيم : « ذكر عنه عن النبى ﷺ مالك بن الحويرث أنه كان لا ينهض حتى يستوى جالساً ، وهذه هى التى تسمى جلسة الاستراحة .

واختلف الفقهاء فيها ، هل هى سنة من سنن الصلاة فيستحب لكل أحد أن يفعلها ، أو ليست من السنن ، وإنما يفعلها من احتاج إليها ، على قولين هما روايتان عن أحمد رحمه الله .

قال الخلال : رجع أحمد إلى حديث مالك بن الحويرث فى جلسة الاستراحة ...

وقد روى عن عدة من أصحاب النبى ﷺ وسائر من وصف صلاته ﷺ لم يذكر هذه الجلسة ، وإنما ذكرت فى حديث أبى حميد ، ومالك بن الحويرث ، ولو كان هديه ﷺ فعلها دائماً ، لذكرها كل من وصف صلاته ﷺ ، ومجرد فعله لها لا يدل على أنها من سنن الصلاة إلا إذا علم أنه فعلها على أنها سنة يقتدى به فيها ، وأما إذا قدر أنه فعلها للحاجة لم يدل على كونها سنة من سنن الصلاة ، فهذا من تحقيق المناط فى هذه المسألة » اهـ .

وممن قال بعدم استحبابها ابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبى الزناد ، ومالك ، والثورى ، وأصحاب الرأى ، وأحمد ، وإسحاق فيما حكاه ابن المنذر .

ويقولون : إذا رفع رأسه من السجود نهض ، قال النعمان بن عياش : أدركت غير واحد من أصحاب النبى ﷺ يفعل هذا ، وقال أحمد : أكثر الأحاديث على هذا ، واحتج لهم بحديث المسيىء صلاته ، ولا ذكر لها فيه ، قال النووى : مذهبنا الصحيح المشهور أنها مستحبة .

انظر : (زاد المعاد ٢٤٠/١ ، ٢٤١ ، والمجموع للنووى ٤٤٣/٣) .

وهو القيام وأوسطه ، وهو الركوع ونهايته ، وهو السجود وذلك غاية المرام في تعظيم مولى الأنام ، ويقابل القيام الأول الطويل بأقصر منه فى القيام الثانى بعد الرفع من الركوع لأن الأول مراد لنفسه والثانى مراد للانتقال من القيام إلى السجود ، وقابل الركوع سجودين لتمكن الساجد وتزلزل الراكع ولكونه أبلغ فى التعظيم والقرب فيكرر دونه ، فإذا جلس بين السجدتين قابل ذلك الجلوس التشهد عند من لا يرى جلسة الاستراحة كالقيام المقابل للقيام ، وطال الجلوس فى التشهد لما تخصص به تعيين الكلمات وعند من يراها قابل الجلوس فى التشهد جلسة الاستراحة وطالت جلسة التشهد لأنها آخر الصلاة كما طال القيام الأول لأنه أول الصلاة .

فائدة ومصلحة عائدة : ينبغي للمصلى أن يلاحظ من الفكرة فى تلاوته ما يشهد لقلبه بوجود مخافته ، وفى ركوعه ما يشهد بخضوعه وإنابته ، وفى سجوده ما يشهد نفسه عليه من غاية الحقارة والذلة والفقر والمسكنة فى تلك الحالة حتى يقمعها بذلك عما تسمو إليه من الكبر والعظمة واعتقاد الاستغناء عن إمداد الله بفضله وإحسانه ويشهد لله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ بما عليه من العلاء والاستغناء عن خلقه بعظمة شأنه وعزة سلطانه .

* * *

النَّـوْعُ الرَّابـع
الـجُلُوس للتَّشَـهُّد وَمَا يَتَعَـلَّقُ بـه مِن حِكَم

لما وقع الافتتاح للصلاة بالقيام والثناء والسؤال قابل ذلك الافتتاح الجلوس فى انقضائها بالتشهد المشتمل على ثناء وسؤال لنفسه وللرسول ﷺ وللمؤمنين ؛ فجلسة التشهد حالة استئناس لأنَّها تقع بعد أَداءِ وظيفة كل الخدمة أو بعضها كما فى الجلسة الوسطى بعد الإتيان بأنواع من هيئات الخدمة مختلفة قوله : « التَّحِيَّات »[1] استحب بعض الشافعية أنْ يفتتح بقوله : بسم الله لحديث ورد فيه عن جابر[2] (رضى الله عنه) ، وكما افتتح القيام بذلك عند من يرى البسملة فكذلك يفتتح بها فى الجلوس جمع واحدة تحية ، وروى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وابن مسعود أن معناه : العظمة لله ، وقيل : البقاء ، وقيل : الملك وأنشدوا لزهير :

من كُل ما نَالَ الفَتَى قَد نِلتـهُ . . . . إلَّا التَّحِيَّة

وقيل : تحيات الخلق ، أى سلام بعضهم على بعض كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ** ... ﴾[3] ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ** ... ﴾[4] ، أى يقول ذلك بعضهم لبعض ، أى سلمتم من العذاب وفزتم بالثواب ، أو تحيتهم من الله سلام منه عليهم كما قال تعالى :

---

(١) (صحيح) تقدم تخريجه .

(٢) والصواب : أنَّه لا يُستَفتح بالبَسْملة عند قراءة التحيات ؛ لأَنَّهُ مخالف للسنة الصحيحة ، وما ذهب إليه بعض الشافعية من الاستحباب لا دليل عليه ؛ وقال النووى فى روضة الطالبين (٣٦٩/١) : « وقال جماعة من أصحابنا (أى الشافعية) : يُستحب أن يقول قبل التحيات : بسم الله ، وبالله ، التحيات لله ، ويروى بسم الله خير الأسماء ، والصحيح الذى عليه جماهيرهم (أى الشافعية) : أنه لا يُقدم التسمية » .

(٣) سورة النساء ، الآية (٨٦) . (٤) سورة الأحزاب ، الآية (٤٤) .

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾(١) . فمن قال : العظمة ، فمعناه أنَّ أنواع التحيات المرادات لتعظيم المحيى بها وإنْ تعدَّدت أنواعها فإنَّها كلها لله تعالى وتكون الألف واللام للاستغراق المستوعب لأنواع العظمة وجهاتها وأسبابها ووجوهها ، وكذلك البقاء ، أى كل بقاء وإنْ تنوع فأجمعه لله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ إمَّا من حيث أنه ملكه يتصرف فيه ويهب منه ما شاء لمن شاء ، وإمَّا من حيث البقاء السرمدى له لا لأحد سواه يشاركه فيه ، وكذلك المُلْك ، أى الملك لا يزول ولا يحول ولا ينتقل إنما هو لله الواحد القديم ، وقوله : « الْمُبَارَكَاتُ » جمع بركة ، وهى الزيادة فى الخير مع الثبات والاستقرار ، ومنه قوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾(٢) : أى زاد خيره على خلقه وثبت ، وقوله : « الصَّلَوَاتُ » جمع صلاة : أى جملة الصلوات المشروعة فرضها ونفلها ، وقيل : الخمس لأن الأصل المشروعية فيها . قُلْتُ : ويحتمل أن يكون المراد بها صلوات أجناس الخلائق من الملائكة والجن والإنس كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾(٣) لما فى ذلك من كمال التعظيم للمعبود واللفظ عام فحمله عليه أولى لما فيه من زيادة الفائدة وإنَّما أضاف الصلاة إليه لاشتمالها على أعمال القلوب بالنِّيات ، وعلى أعمال الألسن بما عين فيها من الكلمات ، وعلى أعمال الأعضاء بما نوع فيها من الحركات ، وقوله : « الطَّيِّبَاتُ » جمع طيبة ، وهى كل كلمة حسنة ، قال الله تعالى : ﴿ ... مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴾(٤) والطيب وإن أطلق حقيقة على ما له طعم يذوقه اللِّسان فإنَّه يطلق على ما يسمع من كلام المحبوب الحسن ، كما يطلق الذوق على الخوف والجوع كما فى قوله تعالى : ﴿ ... فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ

(١) سورة يسٓ ، الآية (٥٨) . (٢) سورة الْمُلك ، الآية (١) .
(٣) سورة الروم ، الآية (٢٦) . (٤) سورة إبراهيم ، الآية (٢٤) .

﴿ الْـجُوعِ وَالْـخَوْفِ ... ﴾[1] ولا لباس ولا ذوق وإِنَّما المراد الاستعارة لوقوع العذاب بهم ومنازلته لهم عموماً كما يَعُمّ اللباس الجسد ووجود ألمه كما يجد الذَّائق طعم المرّ فى فمه وهذا من باب المجاز البديع ، والمعنى : كل كلام طيب استوعب ثناءً ومدحاً وتعظيماً فإِنَّ الله هو المستحق له دون غيره إذ يطلق عليه حقيقة وعلى غيره مجازاً وقد قال الله تعالى : ﴿ ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ... ﴾[2] يعنى من الثناء عليه والتوحيد له والتعظيم لجلاله ، وقد يحتمل أن يراد بالطَّيِّبات الباقيات الصالحات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إِله إِلَّا الله ، والله أكبر ؛ وسُمِّيت طيبات لأنَّ من تدنس بالعثرات والزلات إذا قالها طاب قلبه من سورة الحسرات وأمن من المؤاخذة بالتبعات ، والحمل على العموم لها ولكل ما عمل عملها أولى ، فمعنى الجملة : أنَّ ما سبق ذكره من تعداد الأَوصاف الجميلة جميع ذلك مضاف إِلى الله إضافة ملك واستحقاق ثابت له دواماً واستمراراً ليس له فيه منازع ولا عنه مدافع فلأجل الاهتمام بشأنه فى الجلوس وقع الافتتاح بذلك ، كما وقع افتتاح القيام بالفاتحة ، فلما تم الثناء على الله ثنى بعده بذكر رسوله ﷺ فقال : « السَّلَامُ عَلَيْـكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ » ، كما قرن ذكره فى الأذان والإِقامة ليجزل حظنّا من تكرار اسمه فى أسماعنا لنحضره فى أذهاننا ويكون بالنا معموراً به فى حركاتنا وسكناتنا ، فالسلام اسم من أسماء الله تعالى لأنه يسلم من أوجده وخلقه من الآفات والعوارض ، أو لأنه سلمه من الجهل به واستمرار العدم وحباه فى تركيبه فى أحسن تقويم فحماه من الإِكباب على الوجه أو المشى على البطن ، أو لأنَّه يسلمه فى الدنيا من المخالفات وفى الآخرة من العقوبات فكأنَّه قال : السلام يحوطك

---

(١) سورة النحل ، الآية (١١٢) .

(٢) سورة فاطر ، الآية (١٠) .

ويكفيك ، وإمَّا أَنْ يكون من السلامة فهو مصدر سلم يسلم سلاماً ، أو جمع سلامة كملامة وملام كأنه قال : السلامة مصاحبة لك ، وقوله : « أَيُّهَا النَّبِيُّ » إشارة إلى حاضر موجود موصوف بهذه الصِّفة حياة وموتاً ، وقوله : « وَرَحْمَةُ اللَّهِ » الرحمة : هي تأهيل العبد للإنعام عليه أو معاملته بالرِّفق كما يعامل المرحوم ، والبركة الزيادة من النِّعم الثابتة ، فلما ثنى بذكره ثلث بالمصلى فى قوله : « السَّلَامُ عَلَيْنَا » فيحتمل أن يكون الضمير للمصلى وحده « وَعلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ » لجميع المؤمنين من الملائكة والجن والإنس أجمعين لقوله (عليه الصلاة والسلام) : « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ » [(١)] وأُمته هم عياله فى الهداية إلى الله تعالى فبدأ بالسلام على نفسه خصوصاً ثم عموماً على أُمته من المصلين الحاضرين ويندرج معهم لأنه من جملة الحاضرين فيتوفر نصيبه ونصيب أُمته بمشاركته لهم ، ثم على جميع الصالحين من أهل السموات وأهل الأرضين ، ومثال البداءة بالنفس قول إبراهيم (صلوات الله عليه وسلامه) : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** ﴾ [(٢)]، وقول نوح (صلوات الله عليه وسلامه) : ﴿ **رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...** ﴾ [(٣)] فبدأ بالأهم فالأهم من نفسه ، ثم أبويه ، ثم من عرفه وآمن به ، ثم بسائر المؤمنين ، ويحتمل أَنْ يعود إلى نفسه وصحابته وجميع أُمته لأَنَّ غيره ﷺ فى الموقف يقول : نَفْسِى نَفْسِى وهو (عليه الصلاة والسلام) يقول : « أُمَّتِى أُمَّتِى » [(٤)] ، فاللائق باعتنائه بأمر أُمته أن

---

(١) (صحيح) أخرجه مسلم (٩٩٧) ، والنسائى (٢٥٤٦ ، ٤٦٥٣) ، والبيهقى (١٧٨/٤) ، وغيرهم من حديث جابر بمعناه .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية (٤١) .

(٣) سورة نوح ، الآية (٢٨) .

(٤) (إسناده ضعيف) أخرجه أحمد (٢٨١/١ ، ٢٩٥) وأبو يَعْلى فى مسنده (٢٣٢٨) ، والطَّيالسى « منحة المعبود » (٢٢٦/٢) ، وغيرهم من حديث ابن عباس ، وفيه على بن زيد ، =

لا يفرد نفسه عنهم وهو وإن كان قد تميز عنهم بما سبق من الرحمة والبركة فإنَّ لأُمته منه الشرف الأوفر فإنَّ التابع يشرف بشرف المتبوع فيختص الرسول ﷺ بالأول وهو وأُمته بقوله : « عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ » ، ويحتمل أَنْ يعود للحاضرين معه ولمن لحق بهم من الأُمة المتبعين لهم وله دونه وبتخصيص المصطفى (صلى الله تعالى عليه وسلم) بالأول وأُمته بالثانى ومن سواهم بالثالث ، وقد صح من حديث شقيق عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنهما) قال : « كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَا : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ قَبْلَ عِبَادِهِ السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ يَعْنُونَ الْمَلَائِكَةَ ، فَسَمِعَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ فَإِذَا جَلَسْتُمْ فَقُولُوا : التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »[(١)] . قُلْتُ : وتخصيص الأول : به ، والثانى : بالحاضرين والتابعين لهم وعباد الله الصالحين بمن فى السموات والأرض أولى لوجوه :

أحدها : أنَّه صرح بذكر نفسه فلا ضرورة تدعو إلى إضماره .

وثانيها : أنَّه قرن اسمه بذكر الرحمة والبركة دون الثانى فكان أكمل وأتم لأجل الزيادة .

وثالثها : لأنَّ أُمته تندرج من جملة الصالحين وتتخصص بالإضافة إليه وهو أولى من أن يندرج اسمها مع غيره وسؤال إبراهيم ونوح (عليهما

= وهو ابن جُدْعان وفى الميزان (٤/٤٧) ، قال البخارى ، وأبو حاتم : « لا يحتج به » ، وفى التقريب (٤٠١) : « ضعيف » .

قُلت : وللحديث شواهد من حديث أبى بكر ، وأنس ، وأبى هريرة (رضى الله عنهم) .

(١) (متفق عليه) تقدم .

السلام) شاهد لما ذكرناه ، فلما تم ما قصد من الثناء على الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ بالصّفات الحميدة وملكه لها وثنى بالرسول ﷺ وثلث بالصالحين أمر بتحديد عقد توحيده بمعبوده وتعظيمه لرسوله بالإقرار بنبوته ﷺ حتى يكمل عقد إيمانه فقال : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ » [1] ويشير بالمسبحة [2] عند همزة لا إلٰهَ نفياً ، وعند إلَّا الله ليجتمع النطق باللسان والفعل باليد جمعاً بين الظاهر والباطن . وخصت المسبحة لقوة عصبها وخفة حركتها ولانفرادها عن باقى الأصابع بالتوسط والانفصال عن

---

(١) (صحيح) تقدم تخريجه .

(٢) تجدر الإشارة إلى أقوال العلماء فى ذلك وكيفيته :

قال المالكية : « يندب فى حالة الجلوس للتشهد أن يعقد ما عدا السبابة والإبهام وتحريكها ، أى السبابة دائماً يميناً وشمالاً تحريكاً وسطاً » . (فتح الرحيم على فقه الإمام مالك بالأدلة للشنقيطى ص ٦٩ ، والفقه على المذاهب الأربعة ١/٢٣٥) .

وقال الحنفية : « يشير بالسبابة من يده اليمنى فقط بحيث يرفع سبابته عند نفى الألوهية عما سوى الله بقوله : لا إله إلَّا الله ، ويضعها عند إثبات الألوهية لله وحده بقوله : إلَّا الله فيكون الرفع إشارة إلى النفى والوضع إلى الإثبات » .

وقال الشافعية : يقبض جميع أصابع يده اليمنى فى تشهده إلا السبابة وهى التى تلى الإبهام ويشير بها عند قوله : إلَّا الله ، ويديم رفعها بلا تحريك إلى القيام فى التشهد الأول ، والسلام فى التشهد الأخير ناظراً إلى السبابة فى جميع ذلك ، والأفضل قبض الإبهام بجنبها وأن يضعها على طرف راحته » .

وقال الحنابلة : « يعقد الخنصر والبنصر من يده ، ويحلق بإبهامه مع الوسطى ويحلق بإبهامه مع الوسطى ، ويشير بسبابته فى تشهده ودعائه عند ذكر لفظ الجلالة ولا يحركها .

(الفقه على المذاهب الأربعة ١/٢٣٥) .

وإذا أردت معرفة بقية الهيئات بأدلتها فانظر (نيل الأوطار ٢/٢٨٢ - ٢٨٤ ، وزاد المعاد ١/٢٥٥ ، ٢٥٦) .

والثابت فى ذلك : الإشارة بالسّبابة فى الصلاة مع التّحريك هو الثابت ، لما رواه أبو داود ، والنّسائى ، وابن الجارُود ، وابن حِبّان : « كان إذا رفع إصبعه يحركها يدعو بها » ، وفيه دليل على أن التحريك يستمر إلى السلام لأنَّ الدعاء قبله ، وهو مذهب مالك وغيره .

وأما حديث : « أنَّه كان لا يُحرِّكُها » ، فإسناده ضعيف ، وسُئِل الإمام أحمد : هل يُشير الرجل بإصبعه فى الصَّلاة ؟ قال : « نعم شديداً » . مسائل ابن هانى (١/٨٠) .

الإبهام والوسطى ، ولأنَّها كانت تستعمل فى السباب فنقلت عن تلك العادة الذميمة وبدلت بما فيه توحيد الله وتنزيهه عن النقائص لتكون تلك الحركة كفارة لما وقع من تلك الحركات المخالفة فى بعض الأحايين والأوقات فاعترف بأن لَا إِلٰهَ يستحق العبادة سواه ونفى كل شريك معه وأقر بنبوة رسوله محمد ﷺ ورسالته فإنَّها دعامة إسلامه ، ثم صلى على النبى وآله ، وقد تقدم الكلام فى معنى الصلاة عليه وما تتضمن فأغنى عن الإعادة ، وبذلك تم المطلب الثانى .

* * *

المَطْلَبُ الثَّالث

فَاتِحَةُ الكِتَاب وَمَا تَضَمَّنَتْهُ من مَعَانِى

اعلموا أَنَّ من رَزقَهُ الله فهماً يتصور به ما اشتملت عليه الفاتحة من المعانى فإنه يجد فيها ما يشهد به وفاؤها لما تضمنه كثير من مقصود الكتاب العزيز من : أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، والوفاء بالمجد والثناء ، وملكه ليوم الجزاء وفصل الحساب ، والقضاء والإفراد بالعبادة ، وسؤال الإعانة على الأفعال ، وطلب الهداية عن الضلال ، وبيان شرف المُنْعم عليهم عند ذى القدرة والجلال ، وهذه هى أُصول التوحيد المقصود الانقياد إليها بالبعثة والإرسال ، وهى الإقرار بالله — عَزَّ وَجَلَّ — وبالرسل (عليهم الصلاة والسلام) واليوم الآخر وعليها مدار التوحيد وبها ينتفى وجود التشكيك فيه والترديد ويتبرج من تعلمها وقام بفهمها عن التقليد ، فإن قُلْت : لم يجر للإقرار بالنبوة فى الفاتحة ذكر ؟ قُلت : تلاوتها اعتراف بصِحَّة نبوة محمد ﷺ ، وقوله : ﴿ ... أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... ﴾ [1] يتضمن الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) وجميع المنعم عليهم ، فقد وقع الاعتراف بها فيها ضمناً ، فلمَّا كانت بهذه المثابة من الصِّفات كانت متكررة فى ركعات جميع الصَّلوات وكان تركها مخلًّا بالصِّحَّة عند جمع من العُلماء الأثبات ، وبه قال الشافعى (رضى الله عنه) ومالك ، والإمام أحمد وأكثر الأئمة (رضى الله عنهم) فمن وفقه الله لفهم معانى ما اشتملت عليه من الكلمات كان ذلك به من جملة الغايات وأتم الرعايات ولما كانت الصلاة مناجاة لمولاه وتجديد عهد منه بخدمته ومراسلة بينه وبينه باستعطاف على عبد شارد عن باب سيد عالم بحاله فأذن عليه فحسن مع إساءته إليه [2] حسن الابتداء فى

(١) سورة الفاتحة ، الآية (٧) .

(٢) كذا بالأصل وهو كما ترى .

هذه الحالة بالبسملة قبل الحمدله لما فيها من الابتداء باسمه العلى والثناء عليه بصفة الرحمة قبل ذكر شكر النعمة ، فإنَّ الحمد ثناء على الله بما أظهر من أثر نعمه فى الوجود ولأجل ذلك أوجبها الشافعى وعدها آية من الفاتحة واستحبها قوم وكرهها آخرون ولكل حجة من السنة يعتمدها .

ومن رأى التَّسمية تأَسى بنبى الله سُليمان بن داود (عليهما السلام) فى ابتداء كتابه بها إلى بَلْقِيس ، فإنَّه لما دَعَاها إلى الله تعالى افتتح باسمه ، وكذلك العبد يدعو نفسه إلى إجلال الله وتعظيمه والتزام ما رسمه له على لسان رسوله ﷺ لينقاد ويجيب ويذعن وينيب بذكر الله الرَّقيب القَريب ، وأحق من يقع التأسى به الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّـهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ... ﴾ [1]، والسُّنَّة أن يفتتح أول صلاته بالتعوذ [2] قبل البسملة لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّـهِ ... ﴾ [3]، ولأنه يتذكر بها كيد الشيطان فيحترز منه فى صلاته ويلجأ إلى الله فى دفعه عنه وحمايته منه فإنَّه بالمرصاد له ، فقوله : ﴿ بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [4] معناه : أبدأ أو أبتدىء بها ، أو بسم الله أبتدىء ، أو أبدأ إذ كان اسم الله مفتاح كل مهم من الأُمور ولا شىء أهم من الوقوف للخدمة بالباب فالصَّلَاة هى الباب المدخول للمناجاة والمباهاة ؛ فالواجب الابتداء بذكر اسم الله المخدوم ، ثم وصفه بالرحمانية والرحيمية وهما صفتا فعل ناشئتان عن صفة الجلال والجمال لإِعدام الموجودات وإيجاد المخترعات

---

(١) سورة هود ، الآية (٤١) .

(٢) والتَّعَوّذ يكون بعد دعاء الاستفتاح ودليله ما ثبتَ عن النبى ﷺ أنّه كان يقول : « أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم من همزه ونَفْخه ونفثه » رواه أبو داود ، وابن ماجه ، والدَّارقُطنى ، والحاكم وصححه وغيرهم ، وكان أحياناً يزيد فيه فيقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان ... » الحديث رواه أبو داود ، والترمذى ، وبه قال أحمد فى مسائل ابن هانى (١/٥٠) .

(٣) سورة النحل ، الآية (٩٨) .

(٤) أى أن النَّبى ﷺ كان يقرأ البسملة بعد دعاء الاستفتاح والتعوذ من الشَّيطان ، وذلك لما روى عن النبى ﷺ : « ثم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ولا يجْهرُ بها » متفق عليه .

وإعادة المعدومات وإبداء المخفيات فناسب ذكرهما ليظهر أثرهما فى الوجود بنوعى القهر بالإعدام بصِفَة الرحمانية واللُّطف بالإيجاد بصفة الرَّحيمية ، فليلاحظ فى البسملة معنى عظمة الله وجلاله وقهره ولطفه بالإعدام والإيجاد ، ولما افتتح باسمه العظيم أثنى على الله الكريم بما يستحق من حمده على خلقه لما شملهم به من نعمه فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ... ﴾ (١) ، والألف واللام إما للاستغراق للحمد ، أى الحمد كله وإن تنوعت ضروبه فهو لله تعالى لاشىء منه يخرج عنه لأن أسباب الحمد منه منشؤها وعليه مدارها أو للعهد ، أى الحمد المعهود منكم والجارى على ألسنتكم شكراً للنِّعم المتجدِّدَة كله لله فلا مشارك له فى شىء منه . ولما ذكر استحقاقه للحمد أثنى على عظمته بقوله : ﴿ ... رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : أى مربيهم بنعمه وقد تقدم الكلام عليها فى التوجه ، فليلاحظ فى ذلك استحقاقه للثناء بالحمد إذ شمل خلقه بنعمه ورباهم بها ويلاحظ فى قوله : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ المبالغة فيما أنعم به عليهم من الرحمانية والرحيمية فى الدَّارين وهما للمبالغة كندمان ونديم ، فقيل : هما سواء ، وقيل : فعلان أبلغ من فعيل وليس ذلك بتكرار لما سبق فى البسملة لأن هذا بيان لرحمته تعالى للعالمين ، فهو متعلق بهم ومخصوص بنوعهم ، فلما أثنى عليه بهذه الصِّفات وصفهُ بقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ : أى من استوعب هذه الصفات من معانى الكمال كان له الملك التام وذلك بالتصرف فى الخلق والقهر لهم فى يوم الدِّين ، أى الجزاء للخلائق ، ونَصْب مَوَازِين العَدل والفَضْل لفصل القضاء وكفّ البوائق ، فلما ذكر ما يليق بالمعبود من الكمال

---

(١) ثم يَبدأ بعد ذلك فى قراءة الفاتحة آية آية ، لما ثبت عنه (عليه الصلاة والسلام) « ثم يقرأ (الفاتحة) ويُقَطِّعها آية آية ، ... » رواه أبو داود ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبى .

وكان تارة يقرؤها « مَلِكِ يوم الدين ... » رواه أبو نُعيم فى (أخبار أصْبَهان) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ، وهى قراءة مشهورة كـ « مالك يوم الدين ... » .

للملك ونفوذ التصرف بالملك فى الدَّارين بكونه مالكاً للعالمين فى الدنيا ، فاصلًا بينهم فى الآخرة أمر العباد بالاعتراف لمن هذه صفته بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : أى نطيع بالتوحْيد وسؤال الإعانة على العبادة والقيام بوظائفها وعلى الثبات بقوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فليلاحظ فيها صفة الاختصاص بأَنْ لا قادر على أَنْ يقبل ذلك المسئول إِلَّا الإِله الذى له الفضل الموصول ، فلما سأل منه العناية بالإِعانة ، سأل الهداية إِلى طريق العبادة بقوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ : أى بيِّن لنَا ودلنا وأَرشدنا إلى الطريق الواضح ، السالم عن الانحراف والميل الفاضح ، فليلاحظ فى الهُدَى معنى الإِرشاد والإِمداد بإرسال نُور المعرفة إلى مظلم قلبه ، وخلقها فيه ، وفى قلوب المهتدين حتى يتحقق ويتخلّق به قالبه وقلبه ، وفى الصِّراط تمام التوحيد وقيام شعار الإِسلام ظاهراً فى جوارحه وباطناً فى قلبه فبه يكون مستقيماً ، أى آخذاً فى خط الاستواء لا اعوجاج فيه ، ثم بين حال الصراط بقوله : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ : أى أعطيتهم ابتداء من غير سؤال ونسأل ما أوقعت فى قلوبهم من التوفيق والهداية لما قدموا به عند القدوم عليك من الأَعمال ، وأوفوا به من صالح الأحوال ، وهؤلاء هم المنعم عليهم بحميد الخلال المذكور فى قوله تعالى : ﴿ ... فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ (١) : أى وفقنا لأَنْ نسلك طريقهم حتى ندرك فريقهم فليحضر أحوال هؤلاء المنعم عليهم بقلبه ويسأل الله أن يلحقه بدرجتهم ، ثم نفى عن المنعم عليهم ذميمتين بقوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ : أى غير من أسخطك بمخالفتك فغضبت عليه وأبعدته عن رحمتك ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ : أى غير الذاهبين عن طريق الصواب والاستقامة على سبيل الهدى فكانوا فى الحيرة يخبطون وفى الفكرة يعمهون ، فلا إلى الصواب يهتدون ولا عن

---

(١) سورة النساء ، الآية (٦٩) .

الخطأ يقصرون ، فليلاحظ معنى نعمة الله بالهداية إلى سبيل الرشاد والوقاية له عن الفساد المبعد عن السداد ، واختلف فى المعنى بذلك فقيل : أراد بالمغضوب عليهم اليهود وبالضالين النصارى وغيرهم والضلال المبتدعة ، قُلت : وحمله على ما قدمنا من عموم المخالفة أولى لأنَّها أكثر فائدة لأن الغضب من الحق المراد به استحقاق العذاب ، والضلال هو الذهاب عن الصواب فكل مخالف متعرض للعقوبة ضال عن سبيل الاستقامة غير أن الكفار والمبتدعة مخالفتهما أعظم ، وكذا عصاة المسلمين مراتبهم متفاوتة فى المخالفة والله أعلم .

وقد صح من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِى وَنِصْفُهَا لِعَبْدِى ولِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : اقْرَءُوا ، يَقُولُ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ، يَقُولُ اللَّهُ : حَمِدَنِى عَبْدِى ، وَيَقُولُ الْعَبْدُ : الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، يَقُولُ اللَّهُ : أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى ، وَيَقُولُ العَبْدُ : مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَجَّدَنِى عَبْدِى ، وَيَقُولُ الْعَبْدُ : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، فَهَذِهِ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، يَقُولُ الْعَبْدُ : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فَهؤُلَاءِ لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ »(1). فقد وضح من هذا الحديث فضل الصلاة وشرفها وأنها

---

(1) (صحيح) أخرجه مسلم (٣٩٥)، وأبو داود (٨٢١) واللفظ له ،والترمذى (٢٩٥٣) ، والنسائى (٩٠٩) ، وابن ماجه (٣٧٨٤) ، ومالك فى الموطأ (٣٩) ، وأحمد (٢٤١/٢ ، ٢٨٥ ، ٤٦٠) ، والبيهقى (٣٨/٢ ، ٣٩ ، ١٦٧) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة (رضي الله عنه) به .

وقال النووى (رحمه الله) (٣٤٦/٤) : (قال العلماء : المراد بالصلاة هنا الفاتحة ، وسُمِّيت بذلك لأنَّها لا تصح إلا بها ، كقوله ﷺ : « الحج عرفة » ففيه دليل على وجوبها بعينها فى الصلاة ، قال العلماء : والمراد قسمتها من جهة المعنى ، لأنَّ نصفها الأول تحميد لله تعالى ، وتمجيد ، وثناء عليه ، وتفويض إليه ، والنِّصف الثانى سُؤال وطلب ، وتضرّع ، وافتقار » انتهى .

مشتملة على الأنواع المطلوبة من العبادات الجارية على المكلفين من عبادة الألسن بالقراءة والذكر ، والجوارح بالحركة فى الانتقالات والسكون بعدها فى الهيئات ، والقلوب بالحضور فيها واجتناب الغفلات ، فقد اشتملت على ما لم يشتمل عليه غيرها من العبادات فى مخالفة العادات ، وجعلت مواقيتها متقاربة ليكون العبد بفعلها مجدداً لعهده بقربه من مناجاته لربه فتذكره بأنواع من الأذكار الجالية لظلام الأسرار الجالبة لتمام المسار ، قال الله تعالى : ﴿ ... **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ (2) ، وقال تعالى : ﴿ **إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾ (3) : أى ملازمون لأدائها فى أوقاتها المشروعة لها فرضاً كانت الصلاة أو نفلًا ، ووصفها بالديمومة لتكون المحافظة عليها فى الأوقات المعهودة المنصوبة لفعلها . هذا من حيث ظاهر اللفظ المشعر به عند علماء الظاهر ، وأما عند علماء الباطن فالمراد بديمومة الصلاة : مراعاة الأنفاس والخطرات بصون النفس عن اتباع الشهوات ، وامتداد الرغبات إلى اتباع اللذات ، ومباعدة التبعات ، ومقاربة القربات ، ومنافرة الأهوية فى جميع الحالات ، لأنَّ الصلاة إمَّا من التصلية وهى تقويم العود المعوج بالنار ، وأمَّا مِنَ الوصلة لصلتها بالقرب من الرب بعد البعد عنه ، فمن لم يقم على تقويم نفسه باجتهاده فى صلتها بمولاها وانقطاعها له لم يكن مديماً لصلاته ولا مقيماً بما يسعى فيه من طلب نجاته وسياق الكلام يشير إلى انتساق هذا النظام لأن أول الكلام ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً** ﴾ (4) ، والمراد بالإنسان الجنس ، أى هذا من شأن ابن آدم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ... **إِنَّ الْإِنسَانَ**

---

(1) سورة طه ، الآية (٤) .
(2) سورة المعارج ، الآية (٣٤) .
(3) سورة المعارج ، الآيتان (٢٢ ، ٢٣) .
(4) سورة المعارج ، الآية (١٩) .

لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [1] والمعنى : لا ثبات له ولا استقرار على حالة واحدة فهو هلوع ، أى سريع التنقل من حالة إلى أُخرى من قولهم : ناقة هلوع إذا أسرعت فى سيرها ، ثم فسر الهلوع بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ﴾ [2] : أى كثير الجزع عند وقوع ما يكره من الفقر والمرض وخلاف ما يؤثره ويختاره ، فهو لا صبر له على المكروه ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ... ﴾ [3] : أى المال ، ﴿ مَنُوعاً ﴾ : أى كثير المنع لما ينبغى بذله من الأموال عند الغنى وهذا كقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [4] ، ثم قال : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ [5] : أى الذين باينوا ما عليه جُبِلَ أكثر الخلق من الملابسة للوصف الذَّميم ، فقاموا بوظائف الخدمة وفارقوهم بالديمومة فى إقامة قلوبهم على إقامة الاستقامة بتطهيرها عن أنجاس الأفكار المدامة فيما يقضى عليها بإلزام الملامة ، فأنسوا بقربه واستوحشوا من عتبه وكانوا ناظرين له فى مظاهر مبدعاته فتجلَّى لهم منه ما شغلهم عن الهلع عند تغير الأحوال وتكرر الحوادث والأهوال ، إذا كانوا له مراقبين ولسواه مباينين فبان لهم من أنواره ما كانوا به حامدين له على جميل آثاره ، وهذا متوجه من حيث المعنى متمكن من حيث المبنى فإنَّ حمل اللفظ على حقيقته فى الديمومية هٰهنا حاصل وثم فى وقت الصلاة وما لا يتقيد بزمن أولى ممَّا يتقيد بزمن فإنَّه أكثر فائدة ، فالمعنى على هذا طلب المحافظة على مراعاة آثار أقضية الله فى خلقه والسكون إلى مجارى أقداره فى نفسه وفيهم بحيث لا يظهر فيه مذموم صفة الهلع ، بل ينظر إلى تصرف الله تعالى فى الخلق ويقيم له الأعذار ، ويديم بقرع بابه الافتقار ، روينا عن ثابت البنانى [6] عن أنس قال :

---

(١) سورة العلق ، الآيتان (٦ ، ٧) .　　(٢) ، (٣) سورة المعارج ، الآيتان (٢٠ ، ٢١) .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية (٣٧) .　　(٥) سورة المعارج ، الآية (٢٢) .

(٦) هو : الإمام القُدوة الزَّاهد العابد ، أبو محمد ثابت البُنانيّ القُرشيّ مولاهم البصرى ، ولد فى خلافة معاوية ، واشتهر بالزُّهد والورع ، توفى سنة (١٢٧ هـ) . =

« خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ وَاللَّهِ مَا قَالَ لِىَ لِشَىْءٍ : لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا »(١) أخرجه مسلم واللفظ له(٢) ، قُلْتُ : هذا القدر إنَّما تحلَّى به (عليه الصلاة والسلام) وتَخَلَّق به لما تجلَّى فيه من أنوار الجمال على سره فنظر إلى مقدور الله وتدبيره لخلقه وأعرض عن تحصيله لمقاصد نفسه بعلمه بحسن اختيار الله تعالى له فى مصادر أُموره وموارِدها ، وأنه لا يفوت منها ما قسم له أن يناله وهذا وإن كان معترضاً فيما قصدناه إلَّا أنه متمم لما رسمناه فلنرجع لما ذكرناه ونقول :

اشْتِمَالُ الصَّلَاة عَلَى أَفْعَال القُلُوب :

اشتملت الصلاة من أفعال القلوب على فرض وندب :

أمَّا الفَرْض : فالنيَّة ليتميز بها عن فعل التلاعب والإخلاص لتتخصص إضافتها لله وحده ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ... ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ... ﴾(٤) والإيمان لأنَّه الأساس الذى عليه ثبت صِحَّة الأعمال والقطب الذى عليه مدارها .

وأمَّا النَّدب : فالمحافظة على التذلل لله بالتضرع والخشوع والملاحظة لتدبر معانى التلاوة والأذكار الشاهدة للقلب بالإقبال والخضوع ، وقد اجتمع فى الصلاة حقوق مشتركة ومتميزة منها واجب ومنها مستحب ، أمَّا المتميز

= انظر : تهذيب الكمال (١٧٠/١) ، وتهذيب التهذيب (٢/٢) ، وتقريب التهذيب (١١٥/١) ، وتذكرة الحفاظ (١٢٥) ، والحلية (٣١٨/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢٢٠/٥) .

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٦٠٣٨) ، ومسلم (٢٣٠٩) ، وأبو داود (٤٧٧٤) ، والترمذى (٢٠١٥) ، وأحمد (١٠٠/٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٦٥) .

(٢) وهذا اللفظ لمسلم مع زيادة : « ما قال لى أُفًّا قطّ ، ولا قال لى لشىء : لِمَ فَعَلْتَ ... » .

(٣) سورة الزمر ، الآية (٣) .

(٤) سورة البينة ، الآية (٥) .

فالشطر الأول من الفاتحة حق الله تعالى لما اشتمل عليه من الثناء ، والثانى حق المصلى لما فيه من سؤال الهداية ، والمشترك العبادة والإعانة إذ التوفيق منه مبدأه والقبول إليه منتهاه والقوة منه مددها ، فهذان حقان أوجبهما الله لعباده على نفسه كرامة لهم وتشريفاً والأحاديث لذلك شاهدة .

وأمّا التكبير والتسبيح والتلاوة والثناء على الله سبحانه فمختص بالرّب سبحانه .

وأمّا الدُّعاء فى الجلسة بين السجدتين فبالعبد يختص لأنّه يجنى ثمرته وإنْ تضمن بسؤاله اعترافاً لعظمة الله سبحانه وافتقار العبد بذلته لعزته ولا واجب من الأذكار والتكبير سوى تكبيرة الإحرام .

وأمّا التشهد ، فأوله مفتتح بالثناء على الله تعالى وذلك حقه ، ثم بحق الرسول ﷺ ، ثم بحق المصلى وجميع الصالحين بالسلام ، ثم الجمع بين حق الله تعالى وحق الرسول ﷺ بالشهادتين ، ثم الدعاء لنفسه وللمؤمنين ، ثم الختم بالتسليم الذى به يقع حل عقدة الصلاة وفيه إشارة إلى حصول السلامة من الله فى الدنيا بالأمن من الشرور والآفات ، والرحمة فى الآخرة بالأمن من العذاب والهلكات ، فتأمل أيها المكلف المشرف بعبادة مولاه ما اشتملت عليه أعداد ركعات الصلاة من الفوائد ، وانتظمت به فى السجدات والجلسات من جميل المقاصد ، وكيف ابتدأ أولها بالتكبير ، ثم بطلب الإعانة والهداية التى هى أعظم المهمات ، ثم ختم بالتحيات التى هى ثناء على رب البريات ، ثم تلاها بالأهم وهو الرسول ﷺ ، ثم بالمصلى ، ثم بسائر الصالحين ، ثم ختم ذلك بالسلام (الذى هو تحليل) المقتضى للسلامة من الآفات والشرور فى نفسه ومن حشره من المصلين ، ومن غاب عنه من الموحدين المطيعين ، لاشتراك الجميع فى إقامة دعوى الدين ، وفعله ذلك إشارة إلى أنه قد سلم من الآثام وتقدم ناجياً إلى دار السلام .

* * *

فَائِدَةٌ وَارِدَةٌ ، بِنَجْح المَقَاصِد وَافِدَة

اعلم أنَّ من كانت له فطرة سليمة فإنَّها تنبعث إلى تدبير المعانى المتطور على خلق الله تعالى بواسطة إمداده لنعمه عليهم إذ جعل الصلاة مفتتحة باسمه الموصوف بالمبالغة فى الكبر فهو إشارة إلى الانقطاع إلى كبره عن كل كبير فى الوجود ومختتمة باسمه السلام إشارة إلى سلامة المنقطع إليه عن الذكر فى الصَّدر(1) والورود(2)، ولما تنوعت الأذكار بين فاتحة الصلاة وخاتمتها ، حصل من الاستقراء اشتمالها على الباقيات الصالحات ، التى هى أحب الكلام إلى الله تعالى فى جميع الحالات وهى وافية بالمقصود من توحيد رب البريَّات ، فافتتح القيام بالتكبير والدَّال على العَظَمة المستغرقة لوجوه أنواع الجلال ، ثم ثنى فيه بالحمد المحتوى على شكر المنْعِم المفيد لقيام صِفَات الكمال ، ثم ثلث فى الركوع والسُّجود بالتَّسبيح وقرنهما بالحمد المحتوى على سلب النقائص ، إثبات تمام الجمال ، ثم ربع بالشهادتين المشتملتين على كلمة التوحيد « لَا إِلٰهَ إِلَّا الله » نفياً للشركاء فى جميع الأحوال وهذا من التوحيد المشتمل على عقود العقائد وقواعدها المحكم أُصولها ، إذ المعبود يتعين كماله وكماله يقع بعظمته وكبريائه فافتتح به

---

(1) ، (2) **الصَّدَر** : بفتح الصاد المشددة ، والدال المفتوحة أصله : الانصراف عن الماء ، ويقال أيضاً : للانصراف عن غيره ، **ويوم الصدر** : اليوم الرابع من أيام النحر ، لأن الناس يصدرون فيه عن مكة إلى أماكنهم . (المعجم الوسيط مادة [صدر] ١/٥٢٩) .

(**ورد**) الورود قد يكون بمعنى الدخول فى المورود ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل .

قال الكفوى : صدر عن المكان رجع ، ومنه طواف الصدر وإليه : جاء ، والصادر المصرف ، والوارد الجائى (الكليات ص ٥٦٥) .

والمعنى : فى كل حال فى الذهاب والإياب ، والمدخل والمخرج ، والبداية والنهاية ، والله أعلم (المراجع) .

العبد عند القيام لخدمته فقال : الله أكبر من كل عظيم تتوهم الأنفس عظمته ، أو أكبر من تكبير من يكبره من خلقه ، فإنَّه مستغن عن تعظيم خلقه له ويقع كماله أيضاً بإنعامه وإنعامه يستحق الثناء فوقع الافتتاح بالحمد فإنَّه أبلغ ما جرت به العادة فى الثناء على المنعم لشموله لجميع أنواع الثناء ، ثم فى الركوع والسجود بالتسبيح والحمد ليجمع بين إثبات الكمال ونفى النقص ، ثم فى حالة التشهد بإثبات الإلٰهية لله وحده ونفى ما سواه فينشأ من ذلك استقلاله بالتصرف فى ملكه بواسطة ملكه واستغنائه عن المشارك والمعين ، وهذا من الأمر الواضح المبين ، فجعل خاتمة الهيئات فى الصلاة التوحيد الذى مال إليه مآل الأعمال الصالحة فكان كالطابع عليها والعلم المنشور فيها ، فإذا تأمل المصلى ذلك واعتبره حصل من غاية التوحيد على نهاية المزيد ، وهذه هى الصلاة الكاملة التى وصفها الله تعالى بقوله الحق : ﴿ ... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْـمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّـهِ أَكْبَرُ ... ﴾ (١) ، وقد ورد فى الحديث : « مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْداً » (٢) والفحشاء ما ظهر قبحه فاجتنب فعله كما قال تعالى : ﴿ ... إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ... ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ ... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... ﴾ (٤) والمنكر ما وجد الإنكار عليه فعلًا كان أو تركاً كترك الصلاة والصوم أو فعل

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية (٤٥) .

(٢) (إسناد ضعيف) أخرجه القُضَاعى فى مسند الشهاب (٥٠٨) مرسلًا ، فيه المقدام بن داود وهو ضعيف ، قال العراقى : رواه على بن معبد فى كتاب « الطَّاعة والمعصية » من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح .

وأخرجه الطَّبرانى فى الكبير (٥٤/١١) ، والقُضَاعى فى مسند الشهاب (٥٠٩) من طريق اللّيث عن طاوُوس عن ابن عباس به ، واللَّيث هو : ابن أبى سليم وهو ضعيف ، قال ابن حَجر فى التقريب (٤٦٤) : « صدوق اختلط جدًّا ولم يتميز حديثه فتُرك » .

(٣) سورة النساء ، الآية (٢٢) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (٨٠) .

الزنا وأكل مال اليتيم وهو ضد المعروف ، ثم ذلك يختلف فينقسم إِلى ظاهر وباطن ، أمّا الظاهر فما زجر الشرع عن فعله وتوعد عليه بالعذاب الشديد ، كالكبائر ، وأمّا الباطن فكل نيّة مذمومة وعقد قبيح كالحَسَد ، والكِبر ، والرِّياء ، وثمرة ذلك وإِنْ كانت ظاهرة مؤثرة فى الخارج متعدية إِلى الغير إِلّا أَنَّ أصلها مستقر فى القلب ثابت وعنه ينشأ ، فهذا ما يتعلق بها من حيث الظاهر ، وأمّا الفحشاء عند المحققين من أرباب الإِشارات ، فهى رؤية الأعمال والاعتداد بها والاعتماد عليها ، والمنكر طلب ثوابها والعوض عنها فإِنَّ ذلك خروج عن حد العبودية لواجب الربوبية لأنَّ وظيفة العبد القيام بوظائف الخدمة دون طلب الجزاء ، وهذا قد ينكره كثيرٌ ممَّن لم يَصِل إِليه فهمه ، ومعذور من كذب بما لم يحط به علمه .

فعليك أيُّها المكلَّف إِنْ كنت تراعى حق الله عليك وخلاص نفسك أن تكلِّف نفسك الخروج عن عوائدها بأن تقطع حالة الوقوف بين يدى الله ما كنت فيه مستمرًا وعليه متمادياً من الغفلة التى هى مثار ضرب المسكنة على العبد والذلة حتى تتلذذ عند مفاتحته ومناجاته بتلاوة كتابه وفهم خطابه ، وتحضر قلبك عند ثنائه وتسبيحه ودعائه وتأنس بالأنس به ، فيعيذك من الوحشة منه ويكتب لك صلاة كاملة ، وتلك لك نعمة شاملة ، ومن الله نسأل التوفيق للإِعانة على القيام بما يجب من حقوق الإِله المعبود فهو المبدىء المعيد لما يخفيه فينا ويظهره من الكرم والجود فتنبه .

* * *

خَاتِمَةٌ لِمَا نَحْنُ فِيهِ

السبعُ المَثَانِى وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا من حِكَم وَمَعَانٍ

روى الترمذى فى فضائل القرآن عن أبى هريرة (رضى الله عنه) : «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَى أُبَىِّ بْنِ كَعْبٍ فَقَالَ : يَا أُبَىّ وَهُوَ يُصَلِّى فَالْتَفَتَ أُبَىٌّ فَلَمْ يُجِبْهُ فَصَلَّى أُبَىٌّ فَخَفَّفَ ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ ، مَا مَنَعَكَ يَا أُبَىُّ أَنْ تُجِيبَنِى إِذْ دَعَوْتُكَ ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله إِنِّى كُنْتُ فِى الصَّلَاةِ ، قَالَ : أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَىَّ أَنِ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ؟ قَالَ : بَلَى وَلَا أَعُودُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، قَالَ : أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِى التَّوْرَاةِ وَلَا فِى الإِنْجِيلِ وَلَا فِى الزَّبُورِ وَلَا فِى الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا ، قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : كَيْفَ تَقْرَأُ فِى الصَّلَاةِ ؟ قَالَ : فَقَرَأَ أُمَّ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِى التَّوْرَاةِ وَلَا فِى الإِنْجِيلِ وَلَا فِى الزَّبُورِ وَلَا فِى الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِى أُعْطِيتُ»[1] وقال فيه : هذا الحديث حسن صحيح ، وأخرجه النسائي ، واختلف من تسميتها بالسبع المثانى ، فقيل : لأن الله تعالى استثناها لأمة محمد ﷺ ولم يعطها أُمّة من الأمم قبلهم وهو معنى قول[2] (رضى الله عنهما) ، وقيل : لأنها

---

(١) (صحيح) أخرجه الترمذى (٢٨٧٥) ، واللفظ له ، والنسائى (٩١٤) ، وأحمد (١١٤/٥) ، وابن خزيمة (٥٠٠) ، وابن حبان (١٧/٤) ، والحاكم (٢٥٨/٢) ، وغيرهم من حديث أبى هريرة عن أبى بن كعب به نحوه ، ورُوى ذلك من حديث أنس ، وابن عباس ، وأبى سعيد بن المعلّى .

(٢) بياض بالأصل .

تثنى فى كل ركعة وفى كل صلاة بمعنى تعاد ، وقيل : المراد القرآن كله لأن القصص تثنى فيه ، أى تكرر ولأنَّه يشتمل على محكم ومتشابه وله ظهر وبطن وحد ومطلع ، فهذه المعانى تثنى فيه ، أى تكرر ، وقد ورد فى رواية أُخرى : « هِيَ أُمُّ القُرْآنِ وَأُمُّ الكِتَابِ وَهِيَ السبْعُ الْمَثَانِي » [١] فكانت أُم القرآن من فاتحته إلى خاتمته يؤم ما فيها ، أى يقصد ما اشتملت عليه من المعانى المودعة فيها ممَّا نبين ذكره إن شاء الله ، أو لأن الله تعالى فتح بها من خزائن الغيب على رسوله ﷺ فنال بها لذة مناجاته وجميل مصافاته ، وكانت أم الكتاب يعنى اللوح المحفوظ ، لأنَّه يؤم المقاصد التى قامت بها بكتبها فيه إذ الحمد المعرف يستغرق أنواع الحمد المعهود لله جملة وتفصيلًا ، والله اسم جامع لجميع الأسماء الذاتية والصفاتية ، واللوح المحفوظ اشتمل على الوقائع الجارية فى الوجود ، قال الله تعالى :﴿ ... **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ [٢] ، وصح من حديث عمران بن حصين (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ : « كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ شَيْءٌ » [٣] ، وفى رواية أُخرى : « وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ » [٤] ، وكانت السبع المثانى إمَّا لأنَّ قراءتها تثنى فى كل صلاة وأقل الفرض ركعتين ، أو لأنَّها تشتمل على سبعة فصول وسبع آيات وسبعة أسماء ، والفصول هى الإلٰهية ، ثم التوحيد لها ، ثم الربوبية ، ثم النبوة ، ثم التعبد بشريعة النبوة ، ثم الأمانة وتحملها عند أخذ العهد ، ثم الاعتبار فى ذلك فإنَّه مفتاح السعادة ، ومصباح

---

(١) (صحيح) أخرجه الترمذى (٣١٢٤) ، من حديث أبى هريرة بلفظ : « الحمد لله أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثانى » .

قال البَغَوِيّ فى شرح السنة (٤/٤٤٥) : « وأراد بأُمِّ القرآن : فاتحة الكتاب ، وسُمِّيت بأُمِّ القرآن ، لأنَّها أصل القرآن ، وأُمُّ كل شيء : أصله ، وسُمِّيتْ مكة : أم القُرى ، كأنَّها أصلها ومعظمها ، وقيل : سُمِّيت أُم القرآن ، لأنَّها تتقدم القرآن ، وكلُّ من تقدم شيئاً فقد أمّه » انتهى .

(٢) يسٓ ، الآية (١٢) .

(٣) ، (٤) (صحيح) تقدم تخريجه .

الزيادة فى الإرادة ويشهد لذلك ما ورد فى حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) المتقدم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ ... »[1] الحديث، والأسماء فيها سبعة خمسة ظاهرة : الله والرَّب والرَّحمن والرَّحِيم والمَلِك، واسمان مضمران مفهومان، من صفة الحمد الحميد، ومن أثر الصِّفة والاسم للإعانة فى قوله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[2]، والآيات سبع بالاتفاق عند من أثبت البسملة أو نفاها، فهى القرآن العظيم لاشتمالها على هذه المعانى التى هى أُصول الإسلام وهى لا توجد فى سواها فالسبعة الفصول والأسماء والآيات كلها مثانى، لأنَّها تثنى بعضها على بعض، أى تنعطف وتتصل تناسباً وتقارباً، قال الله تعالى : ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...** ﴾[3] فأعلمنا أن القرآن كله مثانى، وسمى بذلك إمَّا لأن القصص تثنى فيه، أى تتكرر، وإمَّا لأنه يشتمل على أسماء وصفات تثنى على ما تنوع من الخطاب فيه وتقشعر عند سماع الخطاب قلوب الخائفين من سطوته، الخاشعين لجلاله وعظمته.

فالفاتحة إذن سبع آيات من المثانى كما ورد فى الحديث المتقدم، وهى القرآن العظيم الشامل لما تبدد من المعانى فى القرآن وآيه الشريفة المنيفة المطول منها فى المقصر فإنَّها آتية على أكثر مقاصد القرآن، وافية لمن تدبرها بما فيه شفاء الصدور من الشك بنور الهُدى والإيقان، وقد ذكر أهل الاعتبار أن لمقاصد القرآن عشرة أوجه الكلام فى الذات والصفات والأفعال وتزكية النفس وهى مجانبة الأفعال الذميمة كما قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴾[4]، وتحليتها بالاستقامة وهى فعل ما ندب الشرع إلى فعله من

---

(١) (صحيح) تقدم تخريجه .
(٢) سورة الفاتحة ، الآية (٥) .
(٣) سورة الزمر ، الآية) ٢٣) .
(٤) سورة الشمس ، الآية (٩) .

الخصال الحميدة وتلك هى الصراط المستقيم المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ... ﴾ (١) ، وعلم حال الموالى والمعادى من المهتدى والضال فى الحال والمآل . فهذه الثمانية اشتملت الفاتحة عليها صريحاً ، ونفى مجادلة الكفار وأحكام الحلال والحرام لم يجر ذكرهما فيها صريحاً وإن أمكن الاستقراء لهما من قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (٢) معناه : احمدوا الله فالمعنى واجب عليكم أن تحمدوه أو حرام عليكم ترك حمده ، ومن قوله : ﴿ اهْدِنَا ﴾ معناه قولوا : اهدنا ، وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣) فيه إشعار بأن ثم من ينكر ذلك اليوم من الدلالة على ملكه ليوم الدين بكونه رب العالمين لعدم إنكارهم لإلهيته ههنا كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ (٤) فكأن تحصيل الكلام ههنا كما أنه إله ههنا فكذلك فى الأخرى فكانت القرآن العظيم بهذا الاعتبار لأنها أجمع سورة لما تفرق من المعانى فى القرآن مع قلة عدد آيها .
ولما كانت وافية بهذه المعانى الثمانية أمكن أن تكون أسناناً لمفاتيح أبواب الجنة الثمانية (٥) ، ومن هنا اقتضت الحكمة تكرارها فى الصلاة لتكرر فتح أبواب الجنة بتكرار تلاوتها وذلك كما أن المصلى أمر أن يسجد على سبعة آراب وأبواب النار سبعة (٦) فيكون فعل الصلاة دافعاً لشر النار مغلقاً لأبوابها عنه لاستعماله فيها السبعة الأعضاء التى روى عن النبى ﷺ فيها أنه قال :

---

(١) سورة فصلت ، الآية (٣٠) . (٢) سورة الفاتحة ، الآية (٢) .

(٣) سورة الفاتحة ، الآية (٤) .

(٤) سورة الزمر ، الآية (٣٨) ، ولقمان ، الآية (٢٥) .

(٥) وأبواب الجنة ثمانية لقوله النبى ﷺ : « ما منكم من أحد يَتَوَضَّأ فيسبغُ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلَّا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلَّا فُتِحَتْ له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء » رواه مسلم .

(٦) وأبواب النَّار سبعة لقوله تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ... ﴾ [الحجر / ٤٤] .

« أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى آرَابٍ : الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ » (١) .
قال المصنف (لطف الله به) : وقد وقع لى أن كلمة التوحيد وهى « لَا إِلٰهَ إِلَّا الله » سبع كلمات فمن قالها أغلقت عنه أبواب النار السبعة التى يستحق الخلود فيها من أشرك بالله سبحانه فكأن قوله لكلمة التوحيد أغلق عنه الخلود فى أى منزل أدخل إليه من أى باب كان من أبواب النار السبعة .
فقد اشتملت الصلاة على ما يفتح أبواب الجنَّة ويغلق أبواب النار ، فالتالى للفاتحة تستروح روحه أنس القرب وراحة القلب وينشرح صدره ، وتنبعث مواد أشواقه إلى الازدياد من إصلاح المعاد بالإقبال على التأمل للمعانى المودعة فيها والأسرار المتضمنة لها الناشئة عن تدبرها ولولا التلذذ بالمعارف الروحانية فى دار الابتلاء والامتحان ، والاستعداد للانتقال عنها إلى دار الراحة والأمان ، وإعداد القرب فيها لسكان الجنان ، لما فاق شرف الإنسان على غيره من الحيوان ولكان كالبهائم أكلًا وشُرباً ومطعماً ومنكحاً ولهواً وغفلة ، ولأجل ذلك قال الله تعالى فى حق بعض أهل الجنة : ﴿ ... **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ** ... ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ** ﴾ (٣) ، وقال تعالى فى قوم آخرين منهم : ﴿ **يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ** ﴾ (٤) ، ثم قال فى حقهم : ﴿ **وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ (٥) ، فهؤلاء الصادرون الحافظون لعهود الله الواعظون بأفعالهم لا بأقوالهم ﴿ ... **أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٦) ،

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٨١٢ ، ٨١٦) ، ومسلم (٤٩٠) ، والنسائى (١١١٣) ، وابن ماجه (٨٨٣ ، ٨٨٤) ، وأحمد (٢٩٢/١ ، ٣٠٥) ، والبيهقى (١٠١/٢) ، وغيرهم من حديث ابن عباس به نحوه .
(٢) سورة الزخرف ، الآية (٧١) . (٣) سورة يسٓ ، الآية (٥٥) .
(٤) سورة المطففين ، الآية (٢٥) .
(٥) سورة المطففين ، الآيتان (٢٧ ، ٢٨) .
(٦) سورة الأعراف ، الآية (١٥٧) .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١) : أى على أدائها فى أوقاتها المشروعة لها يواظبون ، أو المعنى أنهم على استقامة قلوبهم مع الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ فى السرَّاء والضرَّاء عاكفون ، لأنَّ الصلاة تقوِّم المعوج فى الأَقوال والأَفعال كما يقوِّم ما اعوج من الأعواد بالنار ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ (٢) الحائزون لذخائر الأجور والمثوبات بالاستعمال للطاعات أو لذخائر الأنفاس فى السرائر ، ومفاخر الآثار فى البواطن والظواهر فهم لنعم الله عليها شاكرون ولكرم ما أولاهم من الجميل ذاكرون ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣) .

تَـدَبُّر كَلَام اللَّـه :

فمن نظر إلى كلام الله بعين التأمل والفَهْم ازداد بَصِيرة ، ومن أدبر عن تفهمه وكان مقوماً لحروفه محرفاً للكلم عن مواضعه فقد أساء لنفسه اختياراً ، وفاء إلى فيئة الهوى الهاوية فى درك الجحيم جرأة واغتراراً ، وهذه حكمة من تدبرها ظفر ، ومن نفر عن فهمها خسر ، وبهذا تم المطلب الثالث .

* * *

(١) سورة المؤمنون ، الآية (٩) .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية (١٠) .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية (١١) .

الْـمَطْـلَبُ الرَّابِـع

فى اعْتِبَـار ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْـهِ الصَّـلَاة من الأَسْمَاء وَالصِّفَات وَاخْتِبَـار ما يَظْهَرُ فِيهَـا مِنَ الأَسْـرَار ونفيس العَطَـايَا وَالهِبَـات

اعلموا أَنَّ الأعمال شجرة غرست فى تربة الإيمان وثمرتها المؤداة منها الخشـوع ، ولذلك أثنى الله عليهم بالفَلَاح وهو الفـوز من الهلاك فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْـمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (١) ، فالخشوع فى الصَّلاة يقع فى أربعة مواطن من الأفعال فى : القيام والركوع والسجود والجلوس ، وفى أربعة أنواع من الأقوال : الثناء والقراءة والتسبيح والدعـاء ، وقد اشتملت من الأسـماء التى هى مظاهر معانى الحق فى موجوداته به أقامها وأبرمها وأحكمها ، وبها كلمة التقوى فى قلوب العارفين ألزمها ، فمن رزقه الله فهماً فيهـا كان منه بالمكان العلى وهو الحرى بأَنْ يطلق عليه فى حياته ومماته اسم الولى ، ولما تقرر أن الصلاة أشرف الأعمال لما اشتملت عليه من الفوائد فى الحال والمآل ، ولذلك قال فيها (عليه الصلاة والسلام) : « أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ » (٢) : أى كنا فى تعب بتأخيرها عن وقتها

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان (١ ، ٢) .

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود (٤٩٨٦) ، وأحمد (٣٧١/٥) عن رجل من الصحابة بلفظ : « قُمْ يا بلال فأرحنا بالصلاة » ، وأبو داود (٤٩٨٥) ، وأحمد (٣٦٤/٥) بلفظ : « يا بلال ... » ورجال الإسناد الأول ثقات .

وأخرجه (بهذا اللفظ فى حديث طويل) الطّبرانى فى الكبير ، وقال الهَيْثمى فى مجمع الزوائد (١٥٠/١) : « وفيه أبو حمْزة الثّمالى وهو ضعيف واهى الحديث » .

وفى عون المعبود (٣٣٠/١٣) قال فى النّهاية : « أى نستريح بأدائها من شغل القلب بها ، وقيل : اشْتِغَاله بالصلاة لما فيها من مناجاة الله تعالى ، ولهذا قال : وجُعلت قُرّة عينى فى الصلاة وما أقرب الراحة من قرة العين » .

فأرح تعبنا بفعلها حتى تشتغل خواطرنا بسواها من الأعمال المطلوبة منا أو أدخل الراحة علينا بفعلها حتى تتلذذ الروح بما تجد من روح القيام بين يدى الله تعالى وطلب مرضاته ومناجاته والعرب إذا دعت للشخص قالت له : أقر الله عينك ، وإذا دعت عليه قالت : أسخن الله عينه ، فكان (عليه الصلاة والسلام) يجد فيها من لذيذ المناجاة وبرد القرب والرضا عن الله والاشتغال به ما يحبب إليه عملها فى أكثر الأوقات ويتجلّى له فيها ما لا يتجلّى له فى غيرها وإن كانت أشق على الأنفس منها .

وقد اشتملت الصلاة من أسماء الله الحسنى على ما ينبغى أن يتبين للبيب معناه ، ويتزين به الأريب فى سره ونجواه فنقول : اشتملت من الأسماء على الاسم الجامع للذات والصفات وهو الله ، ثم الكبير فى قوله : « الله أكبر »[(١)] ، ثم الفاطر من قوله : « فَطَرَ السَّمٰوَاتِ »[(٢)] فى التوجه والمحمود من قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[(٣)] ، والرَّب ، والرَّحْمٰن ، والرَّحيم من قوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[(٤)] ، ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾[(٥)] ، والملك من قوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[(٦)] ، والمعبود من قوله : ﴿ نَعْبُدُ ﴾[(٧)] ، والمعين من قوله : ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾[(٨)] ، والهادى من قوله : ﴿ اهْدِنَا ﴾[(٩)] ، والمنعم من قوله : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[(١٠)] ، والمجيد من قوله : « أَهْلَ الثَّنَاء والْمَجْدِ »[(١١)] .

واشتمل القُنوت عند من يورده على أسماء منها الوالى فى قوله : « وَتَوَلَّنَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ »[(١٢)] ، والواقى فى قوله : « وَقِنَا شَرَّ مَا قَضَيْتَ »[(١٣)] ،

---

(١) (صحيح) تقد تخريجه .
(٢) (صحيح) تقدم تخريجه .
(٣) ، (٤) سورة الفاتحة ، الآية (٢) .
(٥) سورة الفاتحة ، الآية (٣) .
(٦) سورة الفاتحة ، الآية (٤) .
(٧) ، (٨) سورة الفاتحة ، الآية (٥) .
(٩) سورة الفاتحة ، الآية (٦) .
(١٠) سورة الفاتحة ، الآية (٧) .
(١١) (صحيح) تقدم تخريجه .
(١٢) ، (١٣) صحيح تقدم تخريجه .

والمتعالى فى قوله : « تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ »[١]. فقد اشتملت من أسماء الله الحسنى وصفاته على ما يقضى لمن حافظ عليها بالشرف الأعلى ، فمن تدبر معانيها نال المنزلة العليا فى الآخرة والأُولى .

ولما كانت الأسماء منقسمة إلى قسمين : اسم ذات كقولنا : الله ، واسم صفة كقولنا : الرحيم جمعت الصلاة النوعين لتستوعب ما يتعلق بالمقصود من اسم المعبود ويلاحظ عند ذكر كل اسم منها ما يليق بذلك الاسم من التعبد به حتى يتحقق له الحضور ويستوثق له الأنس بالله والسرور ، وليرتب معانيها فى مواضعها ولينزلها فى أماكنها ، فليستحضر عند اسمه الله وله العقول به وعليه ، أو مآلها له وإليه ، وعند قوله : « أكبر » كبر بحيث لا كبير فوقه ، بل هو فوق كل كبير وكل كبير بالنسبة إليه صغير ، وفى قوله : « فَطَرَ السَّمٰوَاتِ » : أى ابتدع إنشاءها وابتدأ اختراعها على غير مثال يحتذيه ، وهكذا فيما بقى من الأسماء ولو تتبعنا ما فى كل اسم من المعنى أطلنا ومن أراد ذلك نظره فيما شرح من تقدمنا من أسماء الله الحسنى وليعلم من له طلب فى تحقيق المعارف أَنَّ المقصود من ذكر الأسماء إنَّمَا هو التعريف بالمسمَّى المشار إليه بالصِّفات المعروفة له بحضوره فى الذّهن وسبق العلم بوجود التسمية له حتى يلاحظ الذاكر عند ذكره ويشعر قلبه بما تضمن ذلك الاسم من المعنى الموافق له المطابق لمعناه ، ولو تتبعنا ما يليق بكل اسم أطلنا ، وقد تكلم الناس فى شرح معانى أسماء الله الحسنى[٢] وأطالوا الشوط فى تفسيرها ، وما لها من الاشتقاق والاعتبار والتعبد بها ، فمن أراد طلبه من أماكنه ، وحاصل أسماء الله الحسنى تدور على قيام صفة الكمال فى ذاته وموجوداته وعن ذلك ظهر صفة الجمال فى إبداع الموجودات ، وأنواع المصنوعات ، وصفة الجلال فى إعدام المبدعات ، وإحكام المخترعات ،

---

(١) (صحيح) تقدم تخريجه .

(٢) وقد أُلِّفَتْ فى معانى أسماء الله كتب كثيرة .

ومن الجمال ظهر أثر الفضل على الخلائق ، وأثر العدل فى انتظام الحقائق فبذلك قام القسط ، ودام الضبط ، ووجد التعبد ، وفقد التعدد ، ومن على ما قلناه اعتمد ، وجد بعد أن فقد وصدر بعد أن ورد ، وأقر بعد أنْ جحد ، ووصل إلى ما من الأمر له قصد .

المَقْصُود الأَعْظَم من العِبَادَة

ولنختم ذلك بقاعدة فيها حكم متوارد ، قاعدة شاهدة بمنة قاصد .

اعلموا أن المقصود الأعظم من العباد التعبد لله بامتثال الأمر ، والنهى ، والانقياد لطاعة الرسل (عليهم الصلاة والسلام) المبلغة عن الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ فإنَّهم الوسائط والرَّوابط بين الخلق والحق ، والمقصود من التَّعَبُّد الوصُول إلى الله والقُرب منه بالأنس به فى الدنيا ، والقدس للنفس بحملها على المشاق والتَّنعم فى الآخرة برفعة الدرجات فى الجنان العلى ، وبسط بساط القُرب فى جناب العليّ الأعلى ، والوصول إليه فى هذه الدَّار إنَّمَا هو التمكن فى مراتب العِلم واليقين ، والتحصن بالتخلق بأخلاق المتقِين الموقنين من حمل النَّفْس على الرياضة ، وصونها عن الغضاضة ، وقد يقع ابتداء من الله تفضلًا ، وبوسائط من هداية واجتهاد فى الأذكار تَوَسُّلًا ، كما قال تعالى : ﴿ ... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[1] ، ﴿ ... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِى الأَلْبَابِ ﴾[2] ، ﴿ ... تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[3] ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ... ﴾[4] . فبالذكر ، والتدبر ، والاعتبار ، يحصل الوصول إلى مقام المقربين والأَبرار ، ولما شهدوا ما شاهدوا من الوصول بالذِّكر قالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ... ﴾[5] إلى آخر الآيتين ، والصلاة إذا أُقيمت شروطها وأوقعت على

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٧) . (٢) سورة الزمر ، الآية (٢١) .
(٣) سورة الأعراف ، الآية (٢٠١) . (٤) سورة قٓ ، الآية (٢٧) .
(٥) سورة آل عمران ، الآية (٨) .

وفق حقيقتها اشتملت على الفكر والذكر ، والتدبر والتبصر ، فهى مصفية للخواطر من الكدر ، منورة لظلم الفكر ، مخرجة عن أطوار العادة بما وظف فيها من التسبيح والثناء والتلاوة والذكر والفكر الموجب للحضور فى حضرة الملك بوصف الجلال له والتعظيم بشغل الحواس الباطنة والظاهرة عن الحركة المفرقة للجمع معه ، وتلك الجملة من الذكر والتذكر ، والتدبر والتبصر ، إنَّما وظفت وسيلة للعلم بالمعبود إليه وذلك هو جنة هذه الدار ، وهى الجنة الصغرى ، والصلاة هى القاعدة الكاشفة عن أسرارها وقد أخبر (عليه الصلاة والسلام) عن حال أهل الجنة الكبرى فى الدار الآخرة أنَّهم يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس (١) كما أخبر الله عنهم فى كتابه بقوله الحق : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ... ﴾ (٢) ، فإذا سبق التذكر ترتب عليه علم المذكور فلحق الذكر له بالثناء عليه بالتهليل والتسبيح كما قال ﷺ للأعرابى المتكلم فى صلاته وهو معاوية بن الحكم السُّلمى (٣) :

---

(١) ولفظ الحديث : « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ، ولا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » مسلم (٢٨٣٥) ، وأحمد (٣/٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٨٤) ، والدارمى (٢/٣٣٥) ، وغيرهم من حديث جابر (رضى الله عنه) به .

قال النَّووى فى شرح مسلم (١٧/١٨٠) : « مذهب أهل السنة وعامة المسلمين ، أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون يتنعمون بذلك وبغيره من ملاذ وأنواع نعيمها تنعماً دائماً لا آخر له ولا انقطاع أبداً ، وأن تنعمهم بذلك على هيئة تنعم أهل الدنيا إلا ما بينهما من التفاضل فى اللذة والنفاسة التى لا يشارك نعيم الدنيا إلا فى التسمية ، وأصل الهيئة وإلا فى أنهم لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتمخطون ، ولا يبصقوا ، وقد دلت دلائل القرآن والسنة فى هذه الأحاديث التى ذكرها مسلم وغيره أن نعيم الجنة دائم لا انقطاع له أبداً » .

(٢) سورة يونس ، الآية (١٠) .

(٣) هو : الصحابى الجليل معاوية بن الحكم السُّلمى ، كان ينزل المدينة ويسكن فى بنى سليم ، وله عن النبى ﷺ حديثان : الأول فى الكهانة والطيرة ، والثانى من طريق ابنه كثير بن معاوية عنه .

انظر : تهذيب الكمال (٣/١٣٤٣) ، وتهذيب التهذيب (١٠/٢٠٥) ، وتقريب التهذيب (٢/٢٥٩) ، وأسد الغابة (٥/٢٠٨) ، والاستيعاب (٣/١٤١٥) ، والطبقات الكبرى (٧/٣٥) .

« إِنَّ هَـٰذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ »[1] أو كما قال رسول الله ﷺ ، أخرجه أبو داود والنسائى . فإذن الصلاة لمن تأمَّل موضوعها جنة مفتحة الأبواب بما فيها من التلذذ بالذِّكر والتلاوة والتدبُّر والثناء والدُّعاء ، وجنة مانعة من نزول العَذَاب بحفظ الحواس ، وصونها عن الوقوع فى مهواة المخالفات ، فإن المصلى يتردد بين ثناء وتوحيد ، وتهليل وتحميد ، فى أفعال متغايرة من قيام وقعود ، وركوع وسجود ، ومن قام بتلك الوظيفة فإنَّ الله سبحانه يذكره كما يذكره ، قال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ... ﴾[2] ، وفى الحديث الصحيح : « مَنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى ، وَمَنْ ذَكَرَنِى فِى مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ »[3] ، فهو قد أثنى عليهم بذكره لهم فى غيبه فأوصلَهُم إليه ولم يحجبهم عنه بما أبْدَاه من معانى أسمائه وصِفَاته المتجلِّية على جميع موجوداته ، بل ناجَاهُم فى ظهر الغيب بجلاله وناداهُم بما بهر عُقولهم من نُور جَمَاله فهم بقدسه فى صلاتهم يَتنعَّمُون ، وبأنسه فى قيامهم بين يديه يَتمتَّعُون .

* * *

---

(١) (صحيح) أخرجه مسلم (٥٣٧) ، وأبو داود (٩٣٠) ، والنسائى (١٢١٨) ، وأحمد (٤٤٧/٥ ، ٤٤٨) ، وأبو عوانة (١٤١/٢ ، ١٤٢) ، والدارمى (٣٥٣/١ ، ٣٥٤) ، والبيهقى (٢٤٩/٢ ، ٢٥٠ ، ٣٦٠) ، والطيالسى (١١٠٥) ، وغيرهم من حديث معاوية بن الحكم به .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٥٢) .

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخارى (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) ، والترمذى (٣٦٠٣) ، وابن ماجه (٣٨٢٢) ، وأحمد (٤٨٢/٢) ، وابن حبان (٢٣٩٤) من حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) .

تَـدَبُّر أَلْفَـاظ التِّـلَاوَة وَالذِّكْر وَالثَّنَـاء

ومن تأَمَّل ما ذكرناه من المعانى المودعة فى الصلاة ، فإنَّ صلاحه قد غدا بسعده وراح ، وفلاحه قد بدأ بمجده ولاح ، وهذه دقيقة يتعين التنبه لها فى المساء والصباح ، فنقول :

كل ذِكر أو تِلاوة أو ثناء أو تَسْبيح أو حَمد أو دُعَاء فى الصلاة ينبغى أن يتأمل القائل له معناه ، ويعول على ملاحظته لمبناه ، وأَنْ يعمر سره بفهمه حتى يواطىء فكره بقلبه نطقه بلسانه ولا يشغل عن ملاحظة ما هو فيه من ذكر أو ثناء بغيره وإنْ كان أتم منه أو أكثر ثواباً ، بل يجمع فكرته ويحبس نفسه على تدبر ما هو مشتغل به وناظر فيه ولا ينتقل عنه إلى غيره حتى يكمله ويتأمل كل كلمة وما يقصد منها وما تشتمل عليه من رغبة أو رهبة أو دعاء أو ثناء أو ذكر ، فإنْ كان فى ذكر قدر أنه حاضر بين يدى المذكور يخاطبه ، وإنْ كان فى ثناء قدر كأنه بين يدى الله يثنى عليه ، وإنْ كان فى دعاء قدر كان المدعو يسمعه فهو يلح فى الدعاء ويرغب فى التناء ، وإنْ كان فى تلاوة قدر كأنه يسمع من الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ ، فإذا اعتمد ذلك كان له عن كيد الشيطان حارساً ، وعن اختلاسه لصلاته منه حابساً ، وقد تعرض له فى صلاته وساوس بذكر الجنة والنار ، والمعاصى الصغار والكبار ، فلا يلتفت إلى تلك الأفكار ، فإنَّ ذلك شاغل له عن التوجه فى صلاته هذا وقت الفكر الذى يخرجه عن تلك الحال ، فإنه قد جعل لكل مقام مقال ، وحصل لكل عمل رجال فالكامل منهم إذا شغل وقته بشىء أحكمه ، فإذا أنْهَاه نهايته تحول عنه إلى غيره .

وأمَّا عند التلاوة فليلاحظ معانى الآيات ، وما هى مشتملة عليه من المعانى والإشارات بعد إحكام ما قام بها من أنواع العبارات ، فيتدبر معنى

كل كلمة من طرد أو بعد على فعل نوى الإقلاع عنه إنْ كان فعله والامتناع عن الوقوع فى مثله ولا ينتقل عنها حتى يفى بما اشتملت عليه من المعانى بقدر وسع ذهنه وإمكان فهمه ، كما إذا قرأ آية فيها ترغيب فى فعل البِرّ والمعروف أحَبّ المبادرة إلى فعله ليحصل له الثواب على ما قصده أو نواه ، أو آيه فيها محبة الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ وتذكير بنعمه جعل محبته وشكر نعمته الذى خولها له نصب عينيه فشغله ذلك عن النظر فى غيرها ، أو آية فيها ذكر القرون الماضية والأعصار الخالية وما نزل بأهلها عند المخالفات وإطالة المنازعات لما جاءهم من الرسالات من إحلال العقوبات مثل أنه مخالف وأنه مستحق للعذاب بارتكاب ما نهى عنه ، أو آية فيها بشارة أو إنذار ، بجنة أو نار ، مستحضراً الخوف أو الأمن فى وقت ذلك بقلبه وقدر أنه شاهد ما ذكر له رأى عين ، أو قرأ آية تشتمل على توحيد المعبود تأمل ما يليق بها من المعنى المقصود ، ولنضرب لذلك أمثلة يُستعان لها فى الصدور والورود :

* * *

الْمِثَالُ الْأَوَّل

فَضْلُ سُورَة « يسٓ »

روى قتادة عن أنس (رضى الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْباً وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس ، وَمَنْ قَرَأَ يس كُتِبَ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةُ الْقُرْآن عَشْرَ مَرَّات »[1] أخرجه الترمذى وقال : هو غريب .

وإنَّما كانت قلب القرآن لوجهين :

أحدهما : أنَّ القلب فى الآدمى هو معدن الفكر والأسرار ، وموطن السر فى الاعتبار ، فكذلك هذه السورة فى القرآن لاشتمالها على أكثر ما فى القرآن من الإقرار بنبوة محمد ﷺ والتصديق بالرسل (عليهم الصلاة

---

(١) (إسناده هالك) أخرجه الترمذى (٢٨٨٧) ، والدارمى (٢/٤٥٦) ، والقضاعى فى مسند الشهاب (١٠٣٥) ، وغيرهم من حديث أنس (رضى الله عنه) به .

قال أبو عيسى (الترمذى) (٥/١٦٢) : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد ابن عبد الرحمن ، وبالبصرة لا يعرفون من حديث قتادة إلا من هذا الوجه ، وهارون أبو محمد شيخ مجهول » .

وقال الذهبى فى الميزان (٥/٤١٣) : « قُلت : أنا أتهمه (أى هارون أبو محمد) بما رواه القُضَاعى فى شهابه » وذكر الحديث .

وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/٥٥ ، ٥٦) : « سألتُ أبى عن هذا الحديث ، فقال : مقاتل هذا هو مقاتل بن سليمان ، رأيت هذا الحديث فى أول كتاب وضعه مقاتل بن سليمان ، وهو حديث باطل لا أصل له » .

وقال الألبانى فى الضعيفة (١/٢٠٣) : « فظن بعض الرواه أنَّه ابن حيان فنسبه إليه ، من هؤلاء الأَزْدِىّ نفسه ، فإنَّه ذكر عن وكيع أنَّه قال فى مقاتل بن حيان : (ينسب إلى الكذب) ، قال الذَّهبى : كذا قال أبو الفتح وأحسبه التبس عليه مقاتل بن حيان بمقاتل بن سليمان ، فابن حيان : صدوق قوى الحديث ، والذى كذَّبه وكيع (ابن سليمان) » .

ثم قال أبو الفتح : « قلت : فساق إسناد الحديث » ، فتعقبه الذهبى بقوله : « قلت : الظاهر أنَّه مقاتل بن سليمان » .

والسلام) وذكر ما جرى عليهم من المكذبين بهم وقبلهم فى ذات الله ، وذكر البعث والنشور ، والآيات الدالة على وجود ما أعد الله لخلقه من المصالح ، ومجارى الشمس والقمر وتقدير منازله على ترتيب الأصول ، وختمها بضرب المثال فى إحياء الأموات بأن من أنشأ لا من شىء قادر على أن يعيد ما أعدم إلى غير ذلك من المعانى الدالة على عظمة الله وتوحيده .

وثانيهما : أَنَّ القلب هو الخيار من كل شىء والباطن منه فكانت سورة « يسٓ » كذلك لأنَّها اشتملت على ما لم يشتمل عليه ما هو بمثابة عدد آياتها من السور فكانت قلباً له ، أى خياراً يقال : هذا قلب القوم ، أى خيارهم وأشرفهم وسيأتى الكلام فى معنى شرف بعض القرآن على بعض ، فإذا قرأ فى مفتتحها تدبر ما فيها من أخبار الأموات وإحاطة علمه بهم وبكل شىء من الموجودات ، ومن ضرب المثل بقوله : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا** ... ﴾ (1) فى مختتمها ، ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا** ... ﴾ (2) ، ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا** ... ﴾ (3) ، ومن ذكر النِّعم بإحياء الأرض بالنبات وتفجيرها بالمياه ، ومن ذكر خلقه الأزواج كما قال تعالى : ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ** ... ﴾ (4) أى صنفين يكون أحدهما زوجاً للآخر كالذكر والأُنثى ، وكما قال تعالى : ﴿ **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ... ﴾ (5) كل ذلك دلالة على عظمة الله تعالى وعلو شأنه .

فإن قيل : كيف يكتب له ثواب قراءة القرآن عشر مرات وقراءة القرآن أكثر مشقة ومهما كانت المشقة أكثر كان الثواب أكثر ؟!

قال المصنف أمده الله بعنايته الجواب عنه من وجوه :

---

(1) سورة يسٓ ، الآية (٧٨) .
(2) سورة يسٓ ، الآية (١٣) .
(3) سورة يسٓ ، الآية (٣٦) .
(4) سورة الذاريات ، الآية (٤٩) .
(5) سورة الأنعام ، الآية (١٤٣) .

أولهـا : أنَّ ذلك من باب الفضـل إلحـاقاً للأخف برتبة الأشق وذلك من باب الفضل والكرم .

وثانيهـا : أنَّ المراد المشتمل على ما فى سورة « يسٓ » من المعانى وتكون الألف واللام للمعهود ، أى يثاب قارؤها بمثابة من قرأ مثل ما تضمنت عشر مرات فإنَّ الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يطلق اسم الكل على البعض تجوزاً .

وثالثهـا : أَنَّ من قرأها بمثابة من قرأ بقدر سورة مثلها عشر مرات زائدة على أجور الأحرف عند التلاوة تشريفاً لها على غيرها ، وقد يطلق اللفظ عاماً ويراد به الخصوص كقوله تعالى : ﴿ ... **أَوْ يُنْفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ** ... ﴾ (١) أى من الأرض التى أفسدوا فيها ، وللعلم بذلك استغنى عن بيانه .

* * *

(١) سورة المائدة ، الآية (٣٣) .

الْمِثَالُ الثَّانِى
فَضْلُ سُورَة « الإِخْلَاص »

صح من حديث أبى صالح عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ »(١) أخرجه الأئمة .

فإذا تدبرها التالى لها وجدها تفى من التوحيد لله تعالى بما لا يفى به غيرها ، وسبب نزولها ما رواه أبو العالية(٢) عن أبى بن كعب (رضى الله عنه) « إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .

فَالصَّمَدُ : الَّذِى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لأَنَّهُ لَيْسَ شَىْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَيَمُوتُ ، وَلَيْسَ شَىْءٌ يَمُوتُ إِلَّا سَيُورَثُ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ، قَالَ : وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ »(٣) وأبو العالية اسمه رفيع أخرجه الترمذى . فليستحضر عند تلاوتها

---

(١) (صحيح) أخرجه الترمذى (٢٨٩٩) ، وابن ماجه (٣٧٨٧) ، وغيرهم من طريق أبى صالح عن أبى هرير (رضى الله عنه) به .

وأخرجه مسلم (٨/٢) ، والترمذى (٢٩٠٠) ، من طريق أبى حازم عن أبى هريرة (رضى الله عنه) به نحوه ، وروى ذلك من حديث ابن عباس ، وعائشة (رضى الله عنهما) .

قال النَّووى (٢٥٩/٦ ، ٢٦١) : « قال القاضى : قال المازِرىّ : قيل : معناه أن القرآن على ثلاثة أنحاء : قَصَص ، وأحكام ، وصفات لله تعالى ، و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مُتمحّضة للصفات فهى ثلث وجزء من ثلاثة أجزاء ، وقيل : معناه أن ثواب قراءتها يُضاعف بقدر ثواب قراءة القرآن بغير تضعيف » انتهى

(٢) هو : رُفيع (بالتصغير) بن مهران الرِّياحى ، ثقة كثير الإرسال ، توفى سنة (٩٠) ، وقيل : (٩٣) ، وقيل بعد ذلك ، وانظر : تهذيب الكمال (٤١٦/١) ، وتهذيب التهذيب (٢٨٤/٣٠) .

(٣) (حسن بذكر السورة فقط) أخرجه الترمذى (٣٣٦٤) ، وأحمد (١٣٣/٥) ، =

معنى توحيد الله فى قوله : ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [1] وليجرد ذاته وصفاته عن الموجد والموجل لها إذ كان هو المستقل بالإيجاد والإيجاب لما يشاء من الإنشاء فيما أظهر وأخفى من الموجودات فلا قيم له فى ذاته ولا شبيه فى صفاته وليفرد ذاته بالقدم فلا أحد يلحقه بأولية وآخرية ، فهو قبل كل أول وبعد كل آخر كما أخبر عن نفسه بقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] ، وليوحده فى الإلٰهية فلا إلٰه فى الخلق غيره ، وفى أفعاله فلا خالق لفعل سواه فى أمره ونهيه ، فلا حُكْم إلَّا لله وحده ، وكما توحد فيما ذكرناه فقد توحد فى صِفَة الجلال والجمال وعنهما نشأ العدل فى الفعال ، والفضل فى النوال ، وبهما قامت صفة الكمال ، فلا كامل ولا جليل ولا جميل سواه على اختلاف الأحوال ، وإنَّما أسقط الألف واللام ليحقق أَنَّ هذا الوصف له أزلًا وأبداً كان فى قدمه حيث لا عين ولا أثر فهو له ملازم ، وعن أحديته كانت العوالم ، وقد اختلف فى الفرق بين الواحد والأحد ، والصحيح الفرق ، فإنَّ القائل إذا قال : ما جاءنى واحد احتمل أنه جاءه أكثر من واحد واحتمل أنه ما جاءه واحد ، ولا تقول : جاءنى أحد ، فالأحد مصدر الواحد من حيث أن الواحد متركب مع

= والحاكم (٢/٥٤٠) ، والبخارى فى تاريخه (١/٢٤٥) ، وابن جرير فى تفسيره (٣٠/٣٤٢) ، والواحدى فى « أسباب النزول » (ص ٣١٧) من حديث أبى بن كعب وفيه أبو سعد الصنعانى .

قال ابن حَجَر : ضعيف رمى بالإرجاء ، ورواه الترمذى (٣٣٦٥) مرسلًا .

وله شاهد من حديث جرير بن عبد الله ، أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٢٠٤٥) ، والطبرى فى « تفسيره » (٣٠/٣٤٣) ، والواحدى فى « أسباب النزول » (ص ٣١٨) ، وقال السيوطى فى «الدر المنثور » (٦/٧٠٤) : « أحرج أبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى بسند حسن عن جابر .. فذكر الحديث وفيه السورة كاملة دون التفسيرات المذكورة ، فيه مجالد بن سعيد ، قال ابن حجر : ليس بالقوى .

(١) سورة الإخلاص ، الآية (١) .

(٢) سورة الحديد ، الآية (٣) .

مثله ويضاف إليه سواه فيصير اثنين حتى ينتهى إلى العدد المقصود ، والأحد لا يتركب مع غيره ولا يضاف ، فتميز الأحد وتخصص عن الواحد ، ولأجل ذلك نفى عنه الكفوية لأحد من الخلق بقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [1] ، ومن أطلق عليه اسم الأحد من الجن والإنس والملائكة فمن باب المجاز من حيث يوجد المعنى القائم بهم من الإدراك الذى يقع التمييز عن الحيوان وهى الأمانة المعروضة التى حصل الإباء عن حملها فى قوله الحق : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ... ﴾ [2] ، ثم ليتأمل فى قوله : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ [3] وهو فعل بمعنى مفعول ، أى مقصود ، وهو السيد المتناهى فى السؤدد والشرف أو الذى يصمد إليه ، أى يقصد فى الحاجات وإزاحة الإلحاحات فتكون صفة فعل يظهر بها عظمة ما قام به من الصمدية التى تقتضى الكمال له فى السيادة وإغاثة الملهوف والمضطر ونفى النقائص عنه وإثبات الكمال له بافتقار الخلق إليه واستغنائه عنهم ، ثم ليتدبر قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ [4] وما فيه من التوكيد لما سبق من التوحيد فإنّه يدل على نفى النظير والمثل والمجانس والتركيب لأن الولد نظير الوالد ومثله فى المعنى المقصود ، أى لا يجانس فيتخذ صاحبة من جنسه فيتوالد ، وقد نبه الله تعالى على سر هذا المعنى بقوله : ﴿ ... أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ... ﴾ [5] أى كيف يولد لمن هذه حالته ، وكذلك قوله : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [6] أى لم يكن فرعاً عن أصل فيكون حادثاً أو مركباً إذِ المولود يوصف بالحدوث والجنسية وهو القديم [7] الذى لا ابتداء

---

(١) سورة الإخلاص ، الآية (٤) .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٧٢) .
(٣) سورة الإخلاص ، الآية (٢) .
(٤) سورة الإخلاص ، الآية (٣) .
(٥) سورة الأنعام ، الآية (١٠١) .
(٦) سورة الإخلاص ، الآية (٣) .
(٧) قال ابن أبى العز الأذرعى الحنفى فى شرح العقيدة الطّحاوية (١١٢) : « وقد أدخل المتكلمون فى أسماء الله تعالى القديم ، وليس هو من الأسماء الحسنى ، فإن القديم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن : هو المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم للعتيق ، وهذا حديث للجديد ، =

لوجوده ، ولا انتهاء لجوده (١) ، ولا يتأثر بشيء من الإيجاب أو الإيجاد ، فإنَّه الموجب الموجد لقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٢) أى من احتوى على صفات ما سبق من الكمال ، فليس له أحد من الخلق كفواً : أى يقابل ذلك الكمال ويعارضه بمماثلة أو مشاكلة . والكفو : المقابل المماثل ومنه الكفاءة فى النكاح ، ويحتمل أن يريد لا يكافأ فيكون له صاحبة نفياً لها بالدليل ، والعرب كانت لا ترى أن تنكح إلَّا من الأكفاء ، فلما أثبت عدم الكفاءة انتفت عنه الصلاحية تقريراً لما كان مستقرًّا فى زعمهم كأنه قال : كيف يكون صاحبة لمن لا كفؤ له من خلقه ، ولأجل ما تضمنته السورة من فاتحتها إلى خاتمتها مع قرب ما بينهما من صفات الله العلى ، وتوحيد وجهه الأعلى ، كانت تعدل ثلث القرآن فإنَّها قد احتوت على التوحيد إجمالاً بقوله : ﴿ أَحَدٌ ﴾ وتفصيلًا بباقى السورة ما لم يجتمع فى مثلها من السور ، ولما كان القرآن يشتمل على توحيد وقصص وأحكام عدلت ما فيه من التوحيد ، ومثلها الحديث الذى رواه ثابت البنانى عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ إِذَا زُلْزِلَت عَدَلَتْ لَهُ بِنِصْفِ الْقُرْآنِ ، وَمَنْ قَرَأَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ عَدَلَتْ لَهُ بِرُبُعِ الْقُرْآنِ ، وَمَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ

= ولم يستعملوا هذا الاسم إلا فى المتقدم على غيره لا فيما لم يَسبقْه عدم » انتهى .

(١) وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ ، وقول نبيه ﷺ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّل فَلَيْسَ قَبلك شَيْء ، وَأَنْتَ الآخر فَلَيْسَ بَعدك شَيْء » رواه مسلم .

وقال الطَّحاوى : « خَالقٌ بلا حَاجَةٍ ، رازقٌ بلا مؤْنَةٍ » ؛ وذلك معنى قول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح . « يا عِبَادى لو أنَّ أَوَّلكم وآخِركم وإنْسكم وجنّكم كانُوا على أَتْقى قَلْب رَجُلٍ واحدٍ مِنكُم مَا زَادَ ذلك فى مُلكى شَيئاً ، يا عِبَادى لو أَنَّ أَوَّلكُم وآخركم وإنْسكُم وجنّكم كانُوا على أَفْجَر قَلْب رَجُلٍ واحدٍ مِنْكم ما نَقصَ دلك فى مُلْكِى شَيْئاً ، يا عِبَادى لَوْ أَنَّ أَوَّلكُم وآخِركم وإنْسكم وجنّكم قَامُوا فى صعيدٍ واحدٍ فسألُونى ، فأعطيتُ كل إنْسَان مسألته ما نَقَصَ ذلك ممَّا عندى إلَّا كما يَنْقُص المِخْيط إذا أُدْخِل البحر » رواه مسلم .

(٢) سورة الإخلاص ، الآية (٤) .

اللَّهُ أَحَدٌ عَدَلَتْ لَهُ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ »[1] أخرجه الترمذى وقال : غريب ، واعتبار ذلك أن القرآن مشتمل على أحوال الدنيا وأهوال الآخرة ، و﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تتعلق بأمر الآخرة من البعث والنشور والحساب فكانت تعدل نصف القرآن ، وأما إنّ ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ تعدل الربع ، فيحتمل أن القرآن لما اشتمل على ما ذكرنا فى سورة الإخلاص وعلى التعبد بما للمكلف وهذه السورة لم يتعرض فيها إلَّا للعبادة فكانت بمثابة الربع ، ويحتمل أن القرآن لما اشتمل على عابد ومعبود ومتعبد به وهيئة عبادة كانت هذه السورة تتضمن هذه العبادة فكانت بمثابة الربع والله أعلم .

الكَلَامُ فِى التَّوْحِيد أَشْرَف الكَلَام

ولما كان الكلام فى التوحيد هو أشرف الكلام كان التوحيد أشرف العلم ، فإنَّ العلم تابع للمعلوم فى كماله ونقصه ومعلوم التوحيد هو الله وصفاته ، فهو أشرف العلوم وأسماها قدراً ، وأسناها محتداً وفخراً ، وكلام الله تعالى وإن كان كله شريفاً فى نفسه إلَّا أن كلامه فى ذاته أفضل من كلامه فى غير ذاته ، لأن كلامه فى ذاته يجتمع فيه شرفان : شرف صفة وشرف نسبة إليه كذلك كلامنا فى ذات الله تعالى أفضل من كلامنا فى غير ذاته لأن العلم بشرف المعلوم يشرف وبضعته يتضع[2] . ومن هذا الوجه

---

(١) (إسناده ضعيف) أخرجه الترمذى (٢٨٩٣) ، وقال أبو عيسى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سلم » ، والعقيلى فى الضعفاء (٨٩) ، وقال الحسن : مجهول وحديثه غير محفوظ .

وأخرجه الحاكم (١/٥٦٦) من حديث ابن عباس وفيه يمان بن المغيرة ، قال البخارى عنه : « مُنْكر الحديث » ، وقال النَّسائى : « ليس بثقة » ، ورُوِى الجزء الثَّانى من هذا الحديث وهو : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ... ﴾ شواهد كثيرة ، والجزء الثالث صحيح .

(٢) قال أبو حامد الغزالى فى جوَاهر القُرآن : « لعلك أن تقول قد أشرت إلى تَفْضيل بعض آيات القرآن على بعض والكلام كلام الله ، فكيف يَتَفَاوَتُ بعضُها بعضاً ؟! وكَيْفَ يكون بعضها أشرف من بعض ؟! فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يُرشِدك إلى الفرق بين آية الكرسى وبين آية =

ذكر أهل التحقيق فى الطريق أَنَّ الأحوال الواردة مهما تعلق ابتداؤها أو انتهاؤها بالله أو كان عائداً إليه كان أشرف ممَّا يتعلق ابتداؤه به دون انتهائه ، واعتبار ذلك بمقام المحبة فإنَّها تتعلق بشيئين : إعظام وإجلال ، وإكرام وإفضال فالأول أولى وأكمل ، وأتم وأفضل ، لتعلقه بالله بواسطة سبب التعظيم وذلك متعلق بالذات والصفات ، والثانية سببها الإفضال بالنوال ، وهو مخلوق مطروق بالانقضاء والزوال ، فالمحب بهذا الوجه معلول ، قلبه بغير الله مشغول ، إذ له شغل بالله من وجه ، وبما أولاه من وجه آخر بخلاف الأول فإنَّه مشغول بالله تعالى من وجهين راجعين إلى الله لا تعلق بهما للعبد فكان أتم ، فلأجل ذلك كان حال العظمة والهيبة أكمل من حال الرجاء والخوف لأن الهيبة ناشئة عن الذات والصفات والخوف عن مظاهر الذات والصفات ، فالهائب مشغول بالله من وجهين بخلاف الخائف فإنَّه مشغول به فكان الهائب أتم حالًا ، وأكرم عند الله مآلًا .

* * *

= المداينات ، وبين سورة الإخلاص ، وسورة تَبَّت ، وترتاع على اعتقاد نفسك الخوارة المستغرقة بالتقليد ، فقلدْ صاحب الرسالة ﷺ فهو الذى أُنزل عليه القرآن وقال : « ... وفاتحة الكتاب أفضل سور القرآن » ، « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » ، والأخبار الواردة فى فضائل القرآن وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل وكثرة الثواب فى تلاوتها لا تحصى » انتهى .

قُلت : أجاز ذلك القاضى عياض وذكره النَّووى فى شرح مسلم (٥ ، ٣٤٠/٦) : « والمختار جواز قوله هذه الآية أو السورة أعظم أو أفضل بمعنى أن الثواب المتعلق بها أكثر » وسيأتى بتمامه .

الْمِثَالُ الثَّالِث
فَضْلُ آيَةِ الكُرْسِي

كل آية فى القرآن تشتمل على معنى فشرفها بشرف ما اشتملت عليه من المعنى فمهما كان المعنى أشرف كانت الآية أشرف وقد تقدم بيان ذلك بما فيه كفاية .

روى عبد الله بن رباح [1] عن أبى بن كعب (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « أَبَا الْمُنْذِرِ ، أَىُّ آيَةٍ مَعَكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : أَبَا الْمُنْذِرِ أَىُّ آيَةٍ مَعَكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ قاله : قُلْتُ : اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ، قَالَ : فَضَرَبَ صَدْرِى وَقَالَ : لِيَهْنُ لَكَ أَبَا الْمُنْذِرِ الْعِلْمُ » [2] أخرجه مسلم وأبو داود واللفظ له ، فلما سأل عن أعظم آية وأخبره بما وقع له فاستحسنه

---

(١) هو : عبد الله بن رباح الأنصارى ، البصرى ، يكنى بأبى خالد المدنى ، ثقة عابد ، تُوفى سنة (١٠٠ هـ) تقريباً .

انظر : تهذيب الكمال (٢/٦٨٠) ، وتهذيب التهذيب (٥/٢٠٦) ، وتقريب التهذيب (١/٤١٤) ، والوافى بالوفيات (١٧/١٦٣) ، والطبقات الكبرى (١/١٨٢) .

(٢) (صحيح) أخرجه مسلم (٨١٠) ، وأبو داود (١٤٦٠) ، والحاكم (٣/٣٠٤) ، وأبو نعيم (١/٢٥٠) ، وغيرهم من طريق عبد الله بن رباح عن أُبىّ بن كعب به .

قال النَّووى فى شرح مسلم (٥ ، ٦/٣٤٠) : « قال القاضى عياض : فيه حجة للقول بجواز تفضيل بعض القرآن على بعض ، وتفضيله على سائر كُتب الله تعالى ، قال : وفيه خلاف للعلماء ، فمنع منه أبو الحسن الأشعرى ، وأبو بكر الباقِلّانى ، وجماعة من الفقهاء والعلماء لأنَّ تفضيل بعضه يقتضى نقص المفضول وليس فى كلام الله نقص به وتأول هؤلاء ما ورد من إطلاق أعظم وأفضل فى بعض الآيات والسور بمعنى عظيم وفاضل ، وأجاز ذلك إسحاق بن رَاهَوَيْه وغيره من العلماء والمتكلمين قالوا : وهو راجع إلى عظم أجر القارئ ذلك وجزيل ثوابه .

والمُخْتَار جواز قول هذه الآية أو السورة أعظم أو أفضل بمعنى : أنَّ الثواب المتعلق بها أكثر وهو معنى الحديث والله أعلم .

منه وأقره عليه وهنأه بذلك عَلِمْنَا أنَّ أشرف الآى إنَّما هو بما تضمنته من المعانى واعتبرنا آية الكرسى فكان سبب عظمها اشتمالها على ما لم يشتمل عليه غيرها من التوحيد لله سبحانه وبذلك كانت سيدة آى القرآن وورد فى بعض الأحاديث أنها تعدل ثلث القرآن (١)، وورد أنَّ من قرأها أول ليله أو أوَّل نَهَاره لم يقربه شيطان (٢)، وإنَّما كانت سيدة الآى لأنَّها تتعلق بمعرفة الله ـــ عَزَّ وَجَلَّ ـــ ومعرفة ذاته وصفاته وذلك هو الغاية القصوى من أنواع علوم القرآن ، فإنَّ هذه الآية تراد لنفسها وما سواها يراد لها فهى إذاً متبوعة وغيرها لها تابع ولا معنى للسيد إلَّا المتقدم المتبوع الذى تتوجه وجوه الأتباع وقلوبها إليه ، وقد اشتملت على ذكر الذات والصفات والأفعال ، وها نحن نأتى على بيانها إن شاء الله تعالى ، فقوله : ﴿ اللَّهُ ﴾ إشارة إلى الذات القديمة المقدسة المنزهة ، وقوله : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إشارة إلى توحيد الذات المسماة بالاسم الشريف المقدس ، وقوله : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ صفة للذات وإثبات لجلالتها ، فإنَّ القيوم وزان فيعول وهو صفة مبالغة للذى يقوم بنفسه ويقوم به غيره ولا يفتقر قوامه لشىء وكل شىء يفتقر إليه فى قيامه به وذلك أعظم الجلاله ، وقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ تنزيه لذاته العلية وتقديس لشريف مجدها عن الحدوث والتركيب وإلمام الحوادث بها ، وجمع بين النَّوم والسِّنَة تنبيهاً على نفى الأقل والأكثر من الحوادث . فتدبير الملك الواسع إنَّما يكون باليقظة ، والسِّنة مبدأ الغفلة والنوم منتهاها ، فنفى عنه الغفلة قليلها وكثيرها وبدايتها ونهايتها إشارة إلى من لا غفلة تلحقه ، فلا آفة ولا خلل يتصل به أو يملكه ، وقوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ : أى خلقاً وملكاً ، وجاء بلفظ ﴿ مَا ﴾ وإنْ كان فيهما من يعقل لأنَّ المراد جملة

---

(١) لم أعثر عليه .

(٢) ورد فى أحاديث كثيرة منها حديث أبى هريرة (رضى الله عنه) عندما تمثل له الشيطان فى صورة رجل ، وأخذ يحثو من تمر الصدقة ، والقصة مشهورة عن كثير من الصحابة .

أو موجود ما فيهما له وهو إشارة إلى الفعل ، أى إنَّ جميع الموجودات مواردها ومصادرها إليه وعنه ، وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ تخصيص للشفاعة بمن يعقل ، وإشارة إلى أنه منفرد بالتصرف فى ذلك الملك بالحكم عليه أمراً ونهياً وتدبيراً ، وأنَّ الشفاعة لا يملكها إلَّا من أَذِنَ له فيها ، أى أمره بها أو أباحها له تشريفاً لقدره وهذا نفى للشريك فى الحكم ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ : أى ما تقدم أو تأخر وجوده عن وجودهم وسبق ولحق من أفعالهم ، وهو إشارة إلى صِفَة العِلم وتمييزه للمعلومات تفصيلًا وإجمالًا ، ونفياً للعلم بالأشياء حقيقة عن غيرِه ، وقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ : أى معلوماته ، والمعنى لا معلوم يحصل لأحد إلَّا أن يتكرم ويتلطف فيعلم ويفهم فيكون له علم ينضاف إليه منه مبدأه ، وقوله : ﴿ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ : أى علمه وقدرته فهو إشارة إلى سعة مملكته وعظمتها ، وإحاطة قدرته وحكمتها ، وأنَّ العقول تلزم حدها ولا تتعدى طورها فى دعوى الإحاطة بمعلوماته ومصنوعاته ، والكرسى مخلوق عظيم لله تبارك وتعالى بين يدى العرش نسبته إليه كنسبة الكرسى إلى سرير الملك وورد تفسيره فى حديث أبى ذر (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ : « مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا حَلَقَةٌ مُلْقَاةٌ بِأَرْضِ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلَقَةِ »[1] . والمراد تعريفنا بعظم مخلوقاته ، وعموم مقدوراته حتى نقف على بساط الأدب

---

(١) (صحيح) أخرجه محمد بن أبى شَيْبة فى كتاب العرش (١/١١٤) ، وابن جرير فى تفسيره (٥/٣٩٩) ، والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص ٢٩٠) ، وابن كثير فى تفسيره (٢/١٣) ، ونسب تخريجه ابن مردويه وغيرهم من حديث أبى ذر بلفظ : « ما السماوات فى الكرسى إلا كحلقة ... » .

قال الألبانى فى الصحيحة (١/١٥) : « واعلم أنه لا يصح فى صفة الكرسى غير هذا الحديث ، كما فى بعض الروايات أنَّه موضع القدمين ، وأن له أطيطاً كأطيط الرحل الجديد ، وأنه يحمله أربعة أملاك ، لكل ملك أربعة وجوه ، ... فهذا كله لا يصح مرفوعاً عن النبى ﷺ » انتهى .

معه سرًّا وجهراً فى الانقياد له والبراءة من العلوم والقدر كلها ونضيف ذلك إليه فإنَّه يهب منه ما شاء لمن شاء ، وقوله : ﴿ وَلَا يَـؤُدُهُ ﴾ : أى لا يثقله ولا يعجزه ، وهو إشارة إلى كماله فى قدرته ، وتنزيهه عن النقائص فى ذاته وصنعته ، والضمير فى الهاء عائد إلى الله أو إلى الكرسى أى لا يثقل الكرسى تعلق السموات والأرض به وحمله لهما ، وقوله : ﴿ حِفْظُهُمَا وَهُـوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ ﴾ لما اشتملت الآية على إثبات صفة الإلهية وما لها من إحاطة العلم وتمام القدرة ، ووجود القهر وإحكام الصنعة ، ختمها بقوله : ﴿ الْعَلِىُّ ﴾ : أى الكامل العلو بالقدرة على ما أظهر وأخفى من المقدورات أو المتعالى عن الأشباه والأنداد ، والأكفاء والأضداد ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ شأنه فى سلطانه وتصرفه عن أن يلحقه نقص أو ضيم فى شىء من مراداته كلها .

فمن تأمَّل هذه الآية واعتبر ما اشتملت عليه من المعانى وتدبرها فى صلاته وفى مقصود العبادة ، وحظى من الله بالقرب والزيادة فى السعادة . وهذا ضرب مثال لمن يفهم حتى يحدو عليه فى تدبره وتصوره لما يتلوه أو يتلى عليه من الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حتى يأتم به من كان تالياً للقرآن نافياً لوساوس الشيطان ، ناظراً فيما يتعين عليه من إصلاح الشأن ، شاكراً لنعم مولاه عليه فى السر والإعلان .

ومن الله نسأل الهداية لما فيه الصلاح للأديان والأبدان ، والعناية منه بما فيه لآمالنا وأعمالنا النجاح والفلاح على ممر الأزمان ، ونحن نعتذر من الاقتصار على الاختصار ، فإنَّ ذلك وقع فى أيام يسيرة مشحونة بالموانع والأعذار ، فنسأل الله الإجارة من عذاب النار والإصارة إلى ما يقرب من جنابه آناء الليل، وأطراف النهار ، بمحمد المصطفى وآله الأطهار ، وصحبه الأخيار ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

* * *

المصادر والمراجع

م	اللقب	سنة الوفاة	اسم الكتاب
١	مالك ابن أنس	١٧٩ هـ	**الموطأ** : طبعة الشعب – القاهرة . * **المدونة** : دار صادر – بيروت .
٢	ابن سعد	٢٣٠ هـ	**الطبقات الكبرى** : دار الكتب العلمية – بيروت .
٣	أحمد بن حنبل	٢٤١ هـ	**المسند** : دار الكتب العلمية – بيروت .
٤	أبو داود	٢٧٥ هـ	**سنن أبو داود** : دار إحياء التراث – بيروت .
٥	ابن ماجه	٢٧٥ هـ	**سنن ابن ماجه** : دار الحديث – القاهرة .
٦	ابن هانى	٢٧٥ هـ	**مسائل الإمام أحمد بن حنبل** : المكتب الإسلامى – عمان .
٧	الترمذى	٢٧٩ هـ	**سنن الترمذى** : طبع مصطفى البابى الحلبى – القاهرة .
٨	النسائى	٣٠٣ هـ	**سنن النسائى** : مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .
٩	ابن خزيمة	٣١١ هـ	**صحيح ابن خزيمة** : المكتب الإسلامى – عمان .
١٠	الطبرانى	٣٦٠ هـ	**المعجم الكبير** : البيان العربى – القاهرة .
١١	ابن منده	٣٩٥ هـ	**الإيمان** : دار الكتب العلمية – بيروت .
١٢	الحاكم	٤٠٥ هـ	**المستدرك** : دار المعرفة – بيروت .
١٣	أبو نعيم	٤٣٠ هـ	**الحلية** : دار الكتب العلمية – بيروت .
١٤	القضاعى	٤٥٤ هـ	**مسند الشهاب** : مؤسسة الرسالة – بيروت .
١٥	ابن حزم	٤٥٦ هـ	**المحلى** : دار الآفاق الجديدة – بيروت .
١٦	البيهقى	٤٥٨ هـ	**السنن الكبرى** : دار الكتب العلمية – بيروت . * **شعب الإيمان** : دار الكتب العلمية – بيروت .

م	اللقب	سنة الوفاة	اسم الكتاب
١٧	ابن عبد البر	٤٦١ هـ	**التمهيد** : مكتبة فضالة المحمدية – المغرب .
١٨	البغوى	٥١٦ هـ	**شرح السنة** : المكتب الإسلامى – عمان .
١٩	ابن بشكوال	٥٧٨ هـ	**الصلة** : الدار المصرية للتأليف .
٢٠	ابن رشد	٥٩٥ هـ	**بداية المجتهد** : دار المعرفة – بيروت .
٢١	الجزرى	٦٠٣ هـ	**اللباب** : مكتب المثنى – بغداد .
٢٢	ابن قدامة	٦٢٠ هـ	**المغنى** : دار الكتاب العربى – بيروت .
٢٣	ياقوت الحموى	٦٢٦ هـ	**معجم البلدان** : دار الكتب العلمية – بيروت .
٢٤	ابن باطيش	٦٥٥ هـ	**المغنى فى الأنباء عن غريب المذهب** : المكتبة التجارية – مكة .
٢٥	النووى	٦٧٦ هـ	**شرح صحيح مسلم** : دار القلم – بيروت . * **تهذيب الأسماء واللغات** : دار الكتب العلمية – بيروت . * **روضة الطالبين** : دار الكتب العلمية – بيروت .
٢٦	ابن خلكان	٦٨١ هـ	**وفيات الأعيان** .
٢٧	ابن منظور	٧١١ هـ	**لسان العرب** : دار المعارف – القاهرة .
٢٨	ابن تيمية	٧٢٨ هـ	**مجموع الفتاوى** : مكتبة ابن تيمية – القاهرة .
٢٩	البغدادى	٧٣٩ هـ	**مراصد الاطلاع** : دار الجيل – بيروت .
٣٠	ابن بلبان	٧٣٩ هـ	**الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان** : دار الكتب العلمية – بيروت .
٣١	المزى	٧٤٢ هـ	**تهذيب الكمال** : مؤسسة الرسالة – بيروت .
٣٢	الذهبى	٧٤٨ هـ	**تذكرة الحفاظ** : دار الكتب العلمية – بيروت . * **الكاشف** : دار الكتب الحديثة – القاهرة . * **العبر** : مطبعة حكومة الكويت . * **ميزان الاعتدال** : دار الفكر العربى . * **سير أعلام النبلاء** : مؤسسة الرسالة – بيروت .

م	اللقب	سنة الوفاة	اسم الكتاب
٣٣	ابن القيم	٧٥١ هـ	**زاد الميعاد** : مؤسسة الرسالة – بيروت . * **مدارج السالكين** : السنة المحمدية . **المصباح المنير** : المطبعة الأميرية – القاهرة .
٣٤	ابن السبكى	٧٧١ هـ	**طبقات الشافعية الكبرى** : عيسى البابى الحلبى – القاهرة .
٣٥	ابن كثير	٧٧٤ هـ	**تفسير ابن كثير** : دار القلم – بيروت . * **البداية والنهاية** : مكتبة المعارف – بيروت .
٣٦	ابن أبى العز	٧٩٢ هـ	**شرح العقيدة الطحاوية** : المكتب الإسلامى – عمان .
٣٧	ابن فرحون	٧٩٩ هـ	**الديباج** : القاهرة .
٣٨	الهيثمى	٨٠٧ هـ	**مجمع الزوائد** : مؤسسة الرسالة – بيروت .
٣٩	المقريزى	٨٤٥ هـ	**المقفى الكبير** : دار الغرب الإسلامى – المغرب .
٤٠	ابن حجر	٨٥٢ هـ	**فتح البارى** : السلفية – القاهرة . * **الإصابة** : دار الكتب العلمية – بيروت . * **تهذيب التهذيب** : دار صادر بيروت . * **تقريب التهذيب** : دار الرشيد – حلب .
٤١	ابن تغرى بردى	٨٧٤ هـ	**النجوم الزاهرة** : الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة .
٤٢	السيوطى	٩١١ هـ	**طبقات المفسرين** : دار الكتب العلمية – بيروت . * **حسن المحاضرة** :
٤٣	المتقى الهندى	٩٧٥ هـ	**كنز العمال** : مؤسسة الرسالة – بيروت .
٤٤	ابن العماد	١٠٨٩ هـ	**شذرات الذهب** : دار المسير – بيروت .
٤٥	الشوكانى	١٢٥٠ هـ	**السيل الجرار** : لجنة إحياء التراث الإسلامى – القاهرة . * **نيل الأوطار** : مكتبة الكليات الأزهرية .
٤٦	صديق حسن خان	١٣٠٧ هـ	**قطف الثمر** : دار الكتب السلفية – القاهرة .

فهرس الموضوعات

*

رقم الإيدع بدار الكتب المصرية ٩٤/٢٩٩٥ م